دراسات وتأملات 5

الإسلام والمجتمع والمدنيّة

محمد حسن الوزاني

مؤسسة محمد حسن الوزاني

دراسات وتأملات 5

الإسلام والمجتمع والمدنية

محمد حسن الوزاني

مؤسسة محمد حسن الوزاني

الطبعة الاولى

1987 /1407

حقوق الطبع والترجمة والنقل محفوظة
لمؤسسة محمد حسن الوزاني
9 زنقة الدكتور فراج - فاس (المغرب)

رقم الإيداع القانوني 478 / 1986

تقديم

قامت مؤسسة محمد حسن الوزاني بنشر كتاب **حياة وجهاد**: التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية في ستة أجزاء بقلم محمد حسن الوزاني، والجزء السابع قيد الإعداد للطبع. كما نشرت لنفس المؤلف في سلسلة **حرب القلم** ستة أجزاء أخرى.

وها هي المؤسسة اليوم تنشر مجموعة أخرى من مؤلفات محمد حسن الوزاني في سلسلة **دراسات وتأملات**، ستكون كذلك في ستة أجزاء، أولها: **الإسلام والدولة أو حقيقة الحكم في الإسلام**، وقد ألّفه بمنفاه السحيق في الصحراء، والثاني: ترجمة كتاب ديبون ـ وايط: **حرية الفرد وسلطة الدولة**، وقد قام محمد حسن الوزاني بدراسة هذا الكتاب وتلخيصه وترجمته إلى العربية أثناء مقامه في المنفى بالصحراء كذلك؛ والثالث: **في الدستور والبرلمان**؛ والرابع: **في السياسة والمجتمع... بعد الاستقلال**، وهي تأملات ومداخلات وأبحاث قام بها خلال العقدين الأولين من فترة الاستقلال. والخامس: **الإسلام والمجتمع والمدنيّة** حرر بعض فصوله بالمنفى وبعضها الآخر في فترة الاستقلال.

والسادس: **وطنيات**، وهي كذلك مراسلات ودراسات تتعلق بالحركة الوطنية المغربية وتاريخها كتبت في فترات مختلفة.

ونشير إلى أن المؤلف المرحوم ترك هذه الكتب في مسوداتها، وأن مؤسسة محمد حسن الوزاني هي التي قامت بترتيبها، ووضع عناوين لما لم يكتب له عنوان منها. وستقوم المؤسسة فيما بعد بنشر مجموعة من مقالات محمد حسن الوزاني الصادرة باللغة الفرنسية (في جزءين)، وبمجموعة خطبه ومحاضراته وندواته الصحفية.

مؤسسة محمد حسن الوزاني

الإسلام والمجتمع والمدنية

تحت هـذا العنوان «العصـور القديمـة» أخرجت المـطبعة الأمريكية في بيروت سنة 1926 م مؤلفاً وسمه صاحبه بأنه تمهيد لدرس التاريخ القديم وأعمال الإنسان الأول. وصاحب الكتاب هو الدكتور جايمس هنري براستد أستاذ تاريخ الشرق ورئيس دائرة اللغات والعلوم الشرقية في جامعة شيكاغو وعضو أكاديمية العلوم في برلين. ومعرب الكتاب داود قربان أحد أساتذة جامعة بيروت الأمريكية، ومحرره وناشره هرلد نلسن أحد أساتذة التاريخ في هذه الجامعة.

يقدم الأستاذ نلسن الكتاب المتحدث عنه إلى أبناء الشرق الأدنى مؤكداً أنه أفضل كتاب مدرسي في تاريخ العالم القديم باللغة الإنجليزية، وينوه بمؤلفه الأستاذ براستد بصفته أعظم مؤرخ أمريكي كتب في تاريخ الشرق ومن صفوة الكتاب البارعين في اللغة الإنجليزية.

لقد توخى الأستاذ براستد في الطبعة الإنجليزية لكتابه ـ كما يقول المحرر الناشر ـ فائدة الطلبة الأمريكيين بنوع أخص، ولم يدخر وسعاً في جعل بلاد الشرق الأدنى معروفة ومشهورة لدى

الغرب. وبما أن الناشر قد سعى في ترجمة الكتاب المذكور إلى العربية ليمكن خاصة طلاب العلم الشرقيين بما طالما شعر أنهم في أشد الحاجة إليه ـ وهو تاريخ عصري يوقفهم على نشوء العمران في أقطار البحر المتوسط وتاريخه القديم، فإنه رأى نفسه مضطراً إلى تنقيح الأصل الإنكليزي بالزيادة والحذف متوخياً في عمله التحريري هذا فائدة الطلبة من أبناء العربية. ويخبرنا المترجم أن ما حذفه الأستاذ نلسن وما أضافه لم يكن بالشيء اليسير.

ويسرنا جداً ما قدر لسعي الأستاذ نلسن من التوفيق والنجاح في بعض أقطار الشرق العربي وخاصة في فلسطين والعراق حيث أن حكومتيهما ألحتا إلحاحاً في الإسراع بإنجاز الكتاب في طبعته العربية، وبهذا أدرك الأستاذ نلسن رغبته الأساسية وهي تزويد طلبة العلم بالمشرق بما كان يعوزهم لمعرفة تاريخ بلادهم القديمة، وتنبيه قراء الكتاب عامة إلى قيمة الميراث الثمين الذي خلفه أسلاف الشرقيين للعلم والحضارة، ذلك الميراث ـ كما يقول المحرر نفسه ـ الذي قاوم صروف الدهر ونكبات الحرب وعوامل الدثور، وبقي إلى أيامنا مخبوءاً في أطلال وأنقاض المدنيات السالفة التي تحدق بنا.

ينعى الأستاذ نلسن على أولئك الذين سماهم بالمتطرفين من إخواننا في الديار الإسلامية «ظنهم أن كل شيء تقدم عصر النبوة الإسلامية ليس جديراً بأي عناية ولا اهتمام وذلك لمجرد أنه يخص عالماً غير عالم الإسلام وبصرف النظر عما كان للعصر السابق من قيمة وشأن». ونحن لا ننكر أن الشرقيين إجمالاً

يهملون التاريخ القديم. ولكننا لا نرى من الانصاف أن نقسو عليهم في هذا الحكم. فإن ما عرفوا به من إهمال التاريخ القديم لا يعزى إلى محض إرادتهم وذلك احتقاراً منهم لكل ما سبق عصر النبوة المحمدية كما يدعي الأستاذ نلسن وإنما تحقيق الإنصاف في هذه المسألة أن التاريخ القديم كان معظمه مجهولاً أيام التدوين عند العرب وهو في عصرنا هذا ـ عصر البحث والتنقيب ـ لا يزال الكثير من آثاره مخبوءاً تحت الأرض. وأن الكتب العربية القديمة لتحتوي على كثير من أخبار العالم القديم وذلك بقدر ما كان يسمح به العلم زمن تأليف تلك الكتب وتلك الأخبار ـ وإن لابستها في نظرنا صفات الخرافة وزخرفة الأساطير ـ تدل دلالة بينة على أن أسلاف الشرقيين والعرب خاصة قد عنوا عناية بالتاريخ القديم المعروف في زمنهم. ولا نحسب أننا نخطىء إن ذهبنا إلى أن معرفة الأوربيين لتاريخ الشرق القديم إنما استمدت من مصادر من ضمنها كتب العرب والمسلمين. وإن كان لا بدّ من أن ننحى باللائمة على الشرقيين لما هم عليه من الإهمال لتواريخ الأمم الشرقية الغابرة فليقع لومنا على ولاة الأمر منهم الذين هم المسؤولون قبل غيرهم عن برامج التعليم وما تتهم به من عيب وتؤدي إليه من نقص في ثقافة أبناء المشرق. على أن بعض الحكومات العربية قد أخذت منذ بدء النهضة الشرقية الراهنة تعمل لإدراج التاريخ القديم في برامج التعليم وربط ماضي الأمم الشرقية بحاضرها وتعريف الخلف بميراث السلف. ويتجلى كذلك واجب الحكومات الشرقية نحو تاريخ بلادها القديم في غير برامج التعليم، ذلك أنها تبذل

الجهود وتصرف الأموال وتنشط الأعمال للتنقيب عن الآثار القديمة في بلادها والكشف عن رسوم التاريخ الغابر. وبهذا تستجلى غوامض الماضي وتتوفر المواد لمعرفة التاريخ الأول الذي لو اعتمد فيه على ما دونه القدماء لما علم الناس منه شيئاً كبيراً.

ونحن إن وافقنا الأستاذ نلسن على أن إهمال التاريخ القديم كما يقول: قاتل بفهم تاريخ الشعوب الإسلامية فهماً صحيحاً، وأن العمران والحضارة لم يبتدئا من عصر النبوة المحمدية، فلا نسايره أصلاً فيما ادعاه ضمناً من أن ما طرأ على أحوال الشرق من التغيرات بسبب الإسلام إنما كان شأنها حقيراً كما أننا لا نجاريه مطلقاً فيما زعمه صراحة من أن أسس الهيئة الاجتماعية، وفكرة الحكومة الأساسية، وأصول الشريعة ـ جميع هذه وكثير غيرها من مظاهر الحضارة الشرقية قد دخلت التمدن الإسلامي متحدرة من أزمان قديمة سبقت ظهور الإسلام بعد تعديل خفيف طرأ عليها.

حقاً ما يراه الأستاذ نلسن من أنه لا يمكن فهم تاريخ الشرق الأدنى منذ ظهور الإسلام فهماً حقيقياً ما لم يرتكز ذلك على فهم تاريخ البلدان التي نشأت قبل زمان النبي ﷺ فهماً جيداً لأن تاريخ كل شعب من شعوب الأرض هو وحدة أو حلقة من تاريخ السلالة البشرية. ونقرر مع الأستاذ المذكور أن الحضارة ليست خلقاً جديداً وُجد بوجود الديانة الجديدة وهي الإسلام. لكن الأستاذ المؤرخ لا يضن بالموافقة على ما نذهب إليه من أن معرفة تاريخ الأمة العربية أو غيرها من الأمم الشرقية الإسلامية مثلاً لا يقتضي حتماً أن يحيط علماً بتاريخ جميع الأمم السالفة من بدء الخليقة أي طيلة آلاف عديدة من السنين. فلا نرى من ضرورة

لمن رغب مثلاً في درس تاريخ شبه الجزيرة العربية بعد الإسلام أن يلم بخبر الإنسان في العصر الحجري. وبعبارة أوضح لا نرى رأي الأستاذ نلسن وهو أن تاريخ الأمم الشرقية الإسلامية مرتبط بتاريخ بلدانها القديم ذلك الارتباط الوثيق المحكم الذي يتخيل معه الأستاذ أن التمدن الإسلامي إنما هو في الحقيقة الحضارة الشرقية القديمة معدلة تعديلاً طفيفاً طرأ عليها بظهور الإسلام. فلو تابعنا صاحب هذا الرأي لاتهمنا حقاً بجهل أو تجاهل حقيقة الحضارة الشرقية القديمة أو حقيقة التمدن الإسلامي. ونظرة بسيطة عجلى إلى حالة الشعب العربي في الجاهلية والإسلام توقفنا على أنه ليس من الصواب في شيء، القول بأن الإسلام قد تنحل المدنية ولم يأت أقوام الشرق بحضارة جديدة ولم يطرأ بسببه على الشعوب التي ضرب في أوطانها بجرانه إلا انقلاب صوري حقير.

إن تاريخ العرب في جاهليتهم لا يعرف كثيره بالرغم عما ورد في الأسفار القديمة من أخبار القبائل العربية وآدابها، وحقاً ما قيل من أن العرب يعرفون بأدبهم أكثر مما يعرفون بتاريخهم. ولن يعرف تاريخ عن الجزيرة العربية بشيء من التوسع إلا يوم يقول العلم الحديث كلمته النهائية فيما اكتشف أو سيكتشف في الأصقاع العربية من قديم الآثار.

وينقسم العرب إلى ثلاثة أقسام: العرب البائدة وهم عاد وثمود والعمالقة وطسم وجديس وأميم وجرهم وحضرموت وقد اندثرت هذه القبائل قبل الإسلام. والعرب القحطانية النازحين إلى اليمن من بابل عقب انقراض دولة حمورابي. وقد قامت لهم باليمن

دول كثيرة منها دولة معين ودولة سبأ ودولة التبابعة ودولة حمير والعرب العدنانية أو المستعربة وأرضهم تهامة والحجاز ونجد.

رأينا سابقاً أن الأستاذ نلسن يـذهب إلى أن أسس الهيئة الاجتماعية وفكرة الحكومة الأساسية وأصول الشريعة قد تسربت إلى التمدن الإسلامي من المدنيات القديمة التي قـامت في المشرق.

من المعروف أن عاداً وثمود كانت لهم حضارة مناسبة لزمنهم وأن دولة حمورابي البابلية أدركت أرقى درجة في المدنية الممكنة في ذلك العهد. وكذلك بلغت دول اليمن المعينية والسبئية والحميرية من العمران والحضارة ما حمل قدماء اليونان على تسمية بلادهم ببلاد العرب المعيدة. وقد تأثر بحضارة اليمن عرب الجهات التي كانت يفد إليها التجار القحطانيون كما تأثر العرب في أواخر الجاهلية بحضارة الفرس ودولة الـروم الشرقيـة أو البيزنطية فعمل كل من المناذرة والغسانيين على محاكاة حضارة الفرس والروم حتى أن ملك الحيرة مثلاً حاول تقليداً لبـلاد فـارس كما حاول ملك الغسانين مجاراة الروم في مثل ذلك.

ويحدثنا التاريخ أن العرب كانوا يفدون إلى مدن الفرس والروم للتجارة فكان هذا الاتصال عاملاً في صقل العقل العربي ونقل أخبار تلك الشعوب إلى بـلاد العـرب. ولكن ليس معنى هذا أن العرب اقتبسوا مدنيات جيرانهم اقتباساً، بل لم يتأثر بالفرس والروم بعض التأثر إلا عرب التخوم خاصة. أما معظم الشعب العربي فكان بدوياً بعيداً عن الحضارة.

وإن ما يعنينا هنا أكثر من سواه ما كان عليه العـرب في جاهليتهم من الأحوال الاجتماعية فيحدثنا المؤرخون الإفرنـج أنفسهم بأن العرب في دولة حمورابي كانوا يؤلفون طبقات متباينة الامتيازات وقلما كانت هذه الطبقات متصلة بعضها ببعض عن طريق المصاهرة. وكان الاسترقاق فاشياً بينهم إذاك. ومن عادتهم أن كل امرأة أسر زوجها في الحرب يسوغ لها أن تتخذ زوجاً غيره إلى أن يعود الزوج الأسير. وإن ولدت من الزوج المؤقت أولاداً فإنها تتركهم له ليقوم بأمرهم وإن فر زوجها في القتال ثم رجع فيحق لها أن تمتنع من العودة إليه. وكان يجوز للمرأة طلب الطلاق وإذا ثبت أنها لا تستحق الطلاق عوقبت بأنها ترمى في الماء. وإذا عجز الزوج عن أداء دين امرأته جاز للدائن أن يقبض على المرأة حتى يأخذ مـاله وكذلك يحبس الدائن المرأة وأولادها إن عجز الزوج عن أداء دينه وكان الرجل والمرأة متساوين في الإرث وفي عهد دول اليمن كان العرب طبقات أعلاها الجنود وبعدهم الزارعون ثم الصناع ثم التجار. ومن عوائدهم أن يتزوج الإخوة امرأة واحدة. ولم تكن الأمهات محـرمة على الأولاد وكذلك الأخوات. والمتزوج من غير أسرته يعاقب بالقتل.

ومن عوائد العدنانيين أن النساء عندهم لا يدخلن في الميراث وأن الولد كان يرث امرأة أبيه كما هو الشأن في العرف البربري اليوم وكان من أقبح عادات العرب وأد البنات أحياء خشية الإملاق والعار، وتعدد الزوجات بلا حصر ولا شرط، وسبي النساء وذلك أن العربي إذا لقي آخر ليس من قبيلته ترافقه ظعينة اقتتلا وأخذ الغالب امرأة الآخر على سبيل السبي. ومن عوائدهم الرذيلة أيضاً

العصبية والأخذ بالثأر. وبعبارة فإن العرب «كانوا شعباً ساذجاً لم تدخله مظاهر الحضارة» تاريخ الإسلام السياسي ص 39.

أما من الوجهة السياسية فإن الحكم في عصر الدول اليمنية كان حكم الفردية المطلقة بمعنى أن الملك كان ذا سلطة مطلقة لا يتقيد في تصرفه بأي قيد ولا شرط وكان الحكم وراثياً. وبصفة عامة لم يكن للعرب حكومة بالمعنى الصحيح، لأن الطبيعة العربية كانت تأبى الحكم الثابت، وقد كانت لهم إمارات وكانوا ينصبون عليهم أميراً كلما رحلوا من مكان إلى غيره. ولم تقم بين العرب حكومة حقيقية لأنهم كانوا متخاذلين متطاحنين بسبب العصبية الجاهلية وعادة الأخذ بالثأر المستهجنة وتخاصمهم على الأراضي الخصبة. وقد استحكمت فيهم هذه العوائد القبيحة بحكم الفطرة والبيئة ولم يقدر على محوها ما توفر لديهم من أسباب الاتحاد وعوامل الوئام التي هي وحدة اللغة العربية ووحدة الديانة الوثنية ووحدة الجنس السامي فهم كانوا في حياتهم الاجتماعية والسياسية إخواناً أعداء.

وكما أن العرب لم تكن لهم سلطة حاكمة تضبط أمورهم فإنه لم يكن لهم جيش منظم يحمي حماهم كلما دهمهم الخطر بل كانوا في الحرب يحاربون تحت إمرة أمير وفي السلم كانوا لا يعترفون بشيء غير الأسرة ورئيسها وبصفة عامة فإن البدو فطروا على عدم قبول أي قيد لحريتهم. بذلك كان الحكم عندهم حكماً قبلياً. (Patriarcal) أخص ميزاته أن لكل قبيلة رئيساً تأتمر بأمره حسب نظام مقرر في الحرب والسلم.

وقد تكون الرئاسة وراثية وبعبارة كان الرؤساء القبليون يساوون

الملوك وإن لم تكن لهم ألقاب الملك ولم تعل رؤوسهم تيجان. وباختصار فإن طباع العرب وأخلاقهم كما يقول م. جول لابوم - لا تدل الناظر إليها إلا على أنهم شعب لم يكادوا يجوزون العقبة الأولى من عقبات الاجتماع لو لم تكن الأسرة عندهم بل والقبيلة أيضاً تهتم اهتماماً عظيماً بحفظ سلسلة نسبها، ولو لم يكن إدراكهم للقوانين وسعة لغتهم من جهة أخرى داعيين إلى الالتفات بنوع أخص. وهذا كله لا يشير إلى أن العرب لم يكن فيهم أي جرثومة خلقية صالحة يمكن تقويمها وتهذيبها».

إن العرب قبل الإسلام لم يتأثروا بالأمم الأخرى ذلك التأثر الذي يتوهمه بعض المؤرخين مثل الأستاذ نلسن الذي يدعي أن التمدن الإسلامي إنما هو الحضارة الشرقية القديمة معدلة تعديلاً بسيطاً. وإن احتجنا على ذلك إلى دليل، فهو ما كتبه جول لابوم حيث قال: إن الأفراد الذين كانوا تابعين لأمم أرقى من الأمة العربية والذين كانوا مبعثرين هنا وهناك في جزيرة العرب كانوا قليلي العدد جداً. ولا يظهر أنهم كلفوا أنفسهم وظيفة الدعوة إلى مللهم. فاليهود الذين كانوا متشبعين بالأثرة الشعبية لا يرى منهم لليوم خاصية التأثير على غيرهم إلا بالخضوع لقوانين الأمة التي يشتغلون تحت ظل حمايتها بالأمور المالية. أما المسيحيون فكانوا يفدون شيئاً فشيئاً إلى بلاد العرب هرباً من الاضطهادات الدينية التي كانت في مملكة الرومانيين. ولكن لم يكن في حالهم نور يلفت البصر تألقه. وفي حالة مسيحيي الحبشة اليوم نموذج لذلك.

ولئن وجد في العرب من أخذوا بعض الأفكار الدينية عن

اليهود وعن نساطرة الحيرة، ولئن وجدت المسيحية أشياعاً في قبائل تغلب وغسان وقضاعة شمالاً وفي اليمن جنوباً فلم تستطع اليهودية ولا النصرانية أن تتغلب على ديانة العرب الوثنية وتفوز عليها فوزاً فقد حال تعصب العرب لوثنيتهم وهيامهم بحريتهم واستقلالهم دون تسرب الموسوية والمسيحية إلى نفوسهم والسيطرة على عقولهم وقلوبهم. بل كان العرب المجاورون للمسيحيين في الشمال والجنوب أكثر الناس تمسكاً بوثنيتهم وأشدهم حماساً لديانتهم الأولى وفي عهد هذه الأحوال الحالكة ـ كما يقول م. جول لابوم ـ وفي وسط هذا الجيل الشديد الوطأة ولد محمد بن عبد الله في 29 أغسطس سنة 570 م. عن جعفر بن أبي طالب في حديثه للنجاشي قال: أيها الملك! كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباءنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة الخ...

وفي هذا الانقلاب قال:

أما الانقلاب الذي أحدثه الإسلام في حالة العرب يقول العلامة الأستاذ فريد وجدي:

ليس في تاريخ البشر من الانقلابات الاجتماعية ما للعرب الذي تم على يد رسول الله ﷺ فقد كانت الأمة العربية من الوجهة

الاجتماعية على ما رأيته وهي حالة انحطاط وانحلال في جميع الروابط العمرانية. فلم تكن لها وحدة قومية ولا جامعة سياسية ولا رابطة وطنية ولا أصل من الأصول التي ترتكز عليها الميول والعواطف الإنسانية فتسمو بها إلى الغايات الوجودية... فلما بعث النبي ﷺ جعل من هؤلاء العرب المختلفي القبائل والنزعات، المتنافري الأغراض والغايات أمة موحدة الوجهة مشتركة الغاية ذات مقومات أدبية وروابط اجتماعية مودعاً فيها روحاً عالية تسمو بها إلى الغايات البعيدة وجاعلاً لها دستوراً يقيد حكومتها الرشيدة فبلغت هذه الدولة في ثمانين عاماً من بسطة الملك وانتشار للسلطان ما لم تبلغه دولة الرومان في ثمانية قرون. فكان هذا الانقلاب الاجتماعي في سرعة أدواره واستكمال أطواره أعجب انقلاب حدث في العالم الإنساني إلى اليوم.

أما من الوجهة السياسية الإدارية فيقول أيضاً الاستاذ وجدي إن الإدارة العربية إنما كانت إدارة بدوية ثورية تناسب حالة العرب الساذجة. أما الإدارة التي نتجت بعد دعوة النبي ﷺ فكانت أثر الآداب الإسلامية لمخالفتها لما فطر عليه العرب من الخشونة وتحكيم القوة.

وهذا رأي علامة مسلم. رأى مستشرق كبير هو وليام موير (Muir) مؤلف حياة محمد (The Life of Mohammed) قال: قد أتم (محمد) من الأعمال ما يدهش العقول. ولم يعهد التاريخ مصلحاً أيقظ النفوس وأحيا الأخلاق ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل محمد.

فهذه الثورة الاجتماعية والسياسية الكبيرة التي أحدثها الإسلام بين العرب، وهذا الانقلاب المعنوي العظيم الذي طرأ على أحوال الأمة العربية بتعاليم الرسول السامية ومثله العليا الخالدة، كل هذا كان يخالف كل المخالفة ما ألفه العرب من عوائد اجتماعية وتقاليد سياسية ومناسك دينية. وأكبر دليل على أن الإسلام جاء مضاداً للجاهلية وأنه كان صدمة عظيمة عنيفة رجت الطبيعة العربية وزعزعت أوضاع الهيئة العمرانية في شبه الجزيرة، هو ما لقيه الرسول ودعوته من شدة الخصومة وقسوة المحاربة التي لا يقوى على مواجهتها وحمل أعبائها أقوى الجبابرة من بني الإنسان. فلو كان الإسلام حدثاً بسيطاً في أعين العرب ولو كان التغيير الذي أتى به طفيفاً لهان على العرب أمره وقبلوه بسهولة كشيء يسير لا عسير على أنفسهم الجامحة وطبائعهم الوثابة. ولكن الإسلام قلب أوضاع العرب رأساً على عقب وعمل على تبديل النفسية العربية بالتهذيب والإرشاد وترييضها على مثل عليا جديدة في الدين والأخلاق والاجتماع والسياسة وكل شيء له صلة بحياة العرب خاصة، والبشر أجمعين فكانت تلك المثل العليا ـ هي تعاليم الإسلام السامية ـ واضحة قوية مؤثرة بحيث استطاعت في زمن يسير أن تخرج العرب من جاهليتهم الفوضوية الساذجة إلى حضارة الإسلام الممتازة أبدل العرب فيها الأمن بعد الخوف، والعزة بعد الذلة، والذكر بعد الخمول، فأحس العرب قاطبة بأن الإسلام قد بعثهم من مرقدهم وخلقهم خلقاً جديداً استطاعوا بـه أن يؤدوا الرسالة المحمدية ويقوموا بأعباء الهداية بين الأمم كافة.

عن قيس بن الحجاج قال: لما فتحت مصر أتى أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بؤنة من أشهر العجم فقالوا له: أيها الأمير إن لنيلنا هذا سنة لا يجري إلا بها. فقال لهم وما ذاك؟ فقالوا إذا كان اثنتي عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها فأرضينا أباها وحملنا عليها من الحلي والثياب أفضل ما يكون ثم ألقيناها في النيل. فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون في الإسلام. وإن الإسلام يهدم ما كان قبله. فأقاموا بؤنة وأبيب ومسرى والنيل لا يجري قليلاً ولا كثيراً حتى هموا بالجلاء منها فلما رأى ذلك عمرو بن العاص كتب إلى عمر ابن الخطاب بذلك فكتب إليه عمر: إنك قد أصبت بالذي فعلت لأن الإسلام يهدم ما كان قبله. (سيرة عمر لابن الجوزي ص 172) ليس في الإسلام ـ دين العقل والعلم والحكمة والرقي ـ ما يمنع أهله من العناية بتواريخ الأمم القديمة منها والحديثة. بل نرى ويرى كل عاقل معنا أن الاطلاع على ماضي الأمم الشرقية قبل الإسلام يظهر حقيقة هذا الدّين وسمو تعاليمه وارتقاء مثله العليا الصالحة لكل مكان وزمان. إذ ـ كما يقال ـ بالضد تتميز الأشياء. فإن أظهر العرب والمسلمون غفلة عن الاعتناء بتاريخ ما سلفهم من الشعوب فإنما يعزى ذلك إلى أسباب من أهمها أن الفضائل التي قررها الإسلام كانت ـ كما قال المستشرق الكبير جولد زيهر ـ جديرة بأن تبعث المسلم على ازدراء المثل العليا للجاهلية.

نعود إلى كلام الأستاذ نلسن لنقول إن ما عرضناه بإيجاز من بيان أحوال العرب الأقدمين من الوجهتين الاجتماعية والسياسية

وما قدمناه من الإشارة السريعة إلى الانقلاب العظيم الذي أتاهم به الإسلام على يد الرسول الأعظم في حياتهم الخاصة والعامة كاف لدحض نظرية الأستاذ القائلة بأن التغيرات الطارئة على أحوال الشرق بعد البعثة النبوية كانت زهيدة، أي أن مظاهر الحضارة الشرقية، من أسس الهيئة الاجتماعية وفكرة الحكومة الأساسية وأصول الشريعة وكثير غيرها إنما دخلت التمدن الإسلامي من المدنيات القديمة بعد تعديل طفيف وأن الحضارة العربية ليست خلقاً جديداً وجد بوجود الديانة الجديدة.

كيف يأخذ خبير عاقل بهذه النظرية والحقيقة ما ذكرنا آنفاً؟ كيف يقال إن الإسلام اقتبس الأنظمة الاجتماعية والقوانين السياسية وأصول التشريع من الأمم السالفة في حين أنه قام حرباً شعواء على كل الأنظمة والعوائد والتقاليد التي جرى عليها العرب والشرقيون. وإنَّ مجرد الموازنة بين تلك الأنظمة الجاهلية والأنظمة الإسلامية الطريفة لمن شأنها أن تبطل مزاعم الأستاذ نلسن وأضرابه إبطالاً يرد الحق إلى نصابه.

لقد كان العرب فوضى في ديانتهم الوثنية، فوضى في هيئتهم الاجتماعية، فوضى في أساليبهم الحكومية، فوضى في حربهم وسلمهم، فوضى في جميع مناحي حياتهم الساذجة، فوضى في طبائعهم وعوائدهم ونزعاتهم، فلم تستطع المدنيات الشرقية القديمة والمعاصرة أن تمدهم بما يغير من شأنهم لا كثيراً ولا قليلاً. وقد كان عرب الشمال والجنوب يجاورون تلك المدنيات ويخالطون أقوامها بل كان هؤلاء الأقوام كالفرس والروم يحكمون كثيراً من قبائل التخوم ومع هذا كله لم يتأثر بهم العرب تأثراً

يخرجهم من خشونتهم واضطرابهم العام، حتى جاء الإسلام فهذبهم تهذيباً وأمن أحوالهم الخاصة والعامة بما أولاهم من الوحدة في كل شيء: الوحدة في الدين، الوحدة في الدستور العام الذي هو القرآن العظيم، الوحدة في نظام الأمة العربية جمعاء، تلك الوحدة التي طالما أعوزتها في كل شيء والتي هيأتها لعظائم الأعمال داخلاً وخارجاً وغيرت مجرى تاريخها وتاريخ الشرق كله.

لقد أتى الإسلام بعقيدة التوحيد وما تقتضيه من العبادات التي تنبني كلها على حكمة بالغة فقضى بهذا على شر الوثنية وباطلها فكان الإسلام ثورة دينية عظيمة، ثم شرع نظاماً جديداً محكماً للأسرة فقرر حقوق وواجبات كل فرد منها، فكان عمله هذا ثورة عائلية قلبت أوضاع الأسرة الجاهلية. كما قرَّر الإسلام نظاماً واضحاً دقيقاً للمعاملات بين الناس، وحرم سفك الدماء بغير حق فقضى على القاعدة العربية الجاهلية هي الأخذ بالثأر الذي كان السبب الأساسي في الفتنة والفوضى بين العرب والذي كان يمنع قيام الحكم القوي العادل في جماعتهم، وحرم كذلك الربا وأكل أموال الناس بالباطل فصان بهذا الأموال، وعمل الإسلام كل جهده لإلغاء الاسترقاق الذي أقرته جميع المدنيات سواء التي سبقت الإسلام أو التي عاصرته في الشرق وغيره. والذي كان شر عار يلطخ هذه المدنيات وشعوبها، فحرم الشرع استرقاق المسلم مطلقاً ولم يبح إلا استرقاق المحاربين أي أسارى الحرب الشرعية القائمة باعتداء سابق من غير المسلمين. أما من الوجهة السياسية فقد أبطل الإسلام العصبية الجاهلية وأحقادها

وفتنها، فانضم العرب حول الرسول وخضعوا لأحكام القرآن وانقادوا لحكومة مركزية قوية عادلة. وقد قضى الإسلام على عصبية الجاهلية بما قرره من المساواة بين الناس حتى بين المسلمين وغيرهم ما بقوا في سلم وموادعة. وقد قامت الأخوة الإسلامية بين العرب مقام العصبية القبلية الممقوتة وفي ذلك يقول الله تعالى: إنما المؤمنون إخوة. ويقول: يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير.

وقال الرسول في خطبة الوداع: أيها الناس إنما المؤمنون إخوة. إن ربكم واحد. وإن أباكم واحد. كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربي فضل على عجمي إلا بالتقوى.

هكذا سوى الإسلام بين الأقوام على اختلاف أجناسهم وألوانهم ومللهم. وهي مساواة أمام الله وأمام القانون لا مساواة بين الطبقات التي هي تقويض للهيئة الاجتماعية البشرية وحلم لا يقول به إلا معتوه.

كما شرع الإسلام قواعد في الأخلاق النفسية والآداب الاجتماعية هي أرقى ما عرفه الإنسان على الإطلاق.

هذا قُلّ من كُثر. فأين هذا كله من الجاهلية وأنظمة الأمم الشرقية القديمة؟ أليس الإسلام كان ثورة عامة شملت كل شيء في حياة العرب وغير العرب؟ ألم يكن انقلاباً عظيماً في المعنويات والماديات أنشأ العرب خاصة نشأة جديدة وقادهم في مهيع حضارة طريفة رائعة؟.

إن قواعد الإسلام قواعد إنسانية نبيلة راقية. «فيها تجد من المحامد ما يناقض كل المناقضة الأساليب التي كانت تتخذها إلى عهد قريب شعوب تدعي أنها تمشي في طليعة الحضارة». هذه شهادة المستشرق فان دنبرغ في الموازنة بين الإسلام والمدنيات الحديثة نفسها. وفي تقدير الرسول ودعوته يقول المستشرق الشهير فانلي (Finlay) قد ينحرف المؤرخ عن موضوعه ليتأمل حياة رجل نال سلطة خارقة على عقول أتباعه وأعمالهم، ووضعت عبقريته أساس نظام ديني سياسي ما زال يحكم الملايين من البشر من أجناس مختلفة وصفات متباينة. إن نجاح محمد كمشرع بين أقدم الأمم الأسيوية، وثبات نظمه مدى أجيال طويلة في كل نواحي الهيكل الاجتماعي دليل على أن ذلك الرجل الخارق قد كونه مزيج نادر من كفايات ليكورغوس والإسكندر، (مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام لعبد الله عنان ص 11) فهل بقي بعد هذا كله أي مجال للادعاء أن الإسلام كان حادثاً بسيطاً ضئيل التأثير على العرب وشعوب الشرق الأدنى؟ ولعل أبين حجة نفند بها دعوى الأستاذ نلسن قول الأستاذ براستد في كتابه (ص 481) إن تاريخ الدولة الإسلامية العظيمة وامتدادها يدخلان المؤرخ في عصر جديد من عصور التاريخ. ومعنى هذا أن الشرق في عهد الإسلام غيره في العهد القديم.

حقيقة أن الشعوب الشرقية كما يقول أيضاً الأستاذ نلسن هي من سلالة تلك الأجناس القديمة التي دانت لسلطان الفراعنة، وملوك بابل، وامبراطورية أشور وبلاد الحثيين، وأمراء الحكومات المدينية في فلسطين وسورية، وأن دماء هؤلاء يجري في عروق

أقوام الشرق الأدنى، لكن لا نعتقد صواباً ما ذهب إليه الأستاذ نلسن من أن الأخلاق والعادات الراسخة فيهم والظاهرة في حياتهم وأفكارهم تمتد أصولها إلى أزمان متراخية في القدم وإن العوادي الدينية والسياسية قد عجزت عن اجتثاث تلك الأصول.

من الممكن أن تكون بعض الأخلاق والعادات المشاهدة اليوم في أمم المشرق تنتمي بأصولها إلى الأزمنة الغابرة، لأن الشرق عرف دائماً بالمحافظة على الماضي محافظة عدها غير واحد من المؤرخين علة تأخره قديماً وحديثاً. ولكن من الغلو والخطإ القول بأن كل الأخلاق والعوائد الراسخة عند الشرقيين والبارزة في حياتهم وأفكارهم هي أخلاق وعوائد قديمة الوجود. وهذا بعينه هو العبث بحقائق العلم والتاريخ الأمر الذي يجمل بكل أستاذ خبير أن يحترز عنه مطلقاً. أذ لا داعي قطُّ ـ من أجل إيقاظ روح الحمية العربية في صدور أبناء الشرق الأدنى وإقناعهم بوجوب العناية بتاريخ بلادهم القديم ـ لغمط الإسلام ومدنيته وتحقير الشرق الحديث في أعين ناشئته خاصة.

مصادر:

Finlay : A History of Greece From its Conquet by the Romans to the Présent Tima.

William Muir : The Caliphate, its Rise, Decline And Fall.

ملحق

مآتي المدينة الشرقية

ـ ماذا عمل الشرق القديم للجنس البشري في هذه الحقبة الطويلة (مدة ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة)؟ لا مراء في أنه أولى العالم الصناعات الأولى بالغة درجة عالية من الاتقان كصناعة الآلات المعدنية والنسج والزجاج والورق وما شاكل ذلك من ضروب الصناعات ولتوزيع ما كانت تنتجه هذه الصنائع بطريق التجارة اضطرته الحال إلى بناء أقدم السفن وقد سبق أهل الأرض طراً في رفع الأثقال، والإقدام على تشييد المباني الكبرى فالشرق القديم قد نفح العالم باختراعات جمة مهمة لا يفوقها إلا اختراعات هذا العصر.

ـ أخذ الغرب عن الشرق القديم أشياء كثيرة منها أقدم المباني الحجرية الفنية والأروقة المعمدة والأبراج الحلزونية الشكل وأقدم المنحوتات المحكمة الصنعة من الصور والتماثيل الهائلة من صنع مصر إلى الختوم النفيسة من صنع بابل القديمة وأخذ عنه أيضاً الكتابة وحروف الهجاء وأقدم الروايات المنشورة المعروفة والقصائد الشعرية والأسفار التاريخية والمباحث الاجتماعية حتى الروايات الشعرية التمثيلية وتقويم السنين الذي لا يزال الغرب

يستعمله حتى اليوم ومبادىء الحساب والفلك والطب وقد نظم الشرق أول حكومة كبيرة من أمة واحدة عظيمة أو من مجموع أمم تألف امبراطورية.

ـ وأخيراً نقول إنه من الشرق نشأ أقدم إيمان بإله واحد وبعنايته الأبوية الشاملة لجميع الناس وبذلك وضع أساس حياة العالم الدينية فللشرق فضل كبير على الغرب لأنه جاء بهذه الأشياء كلها أو معظمها والغرب يتسكع في مهامه الجهل والضلال.

ـ ولننظر الآن هل قصر الشرق عن بلوغ أشياء مهمة له. رضي الشرق على الدوام بالحكم الملكي المطلق كأنه قضية مسلم بها.

وأعتقد أن الملك يجب أن يكون عادلاً رفيقاً بالرعية. ولم يخطر ببال أحد من سكان الشرق قط أن الرعية يجب أن يكون لها صوت في الحكومة وكيفية إدارتها. ولم يدر في خلد أحد معنى الوطني الحر الذي يشعر بمحبة وطنه شعوراً حقيقياً. ويستفزه الواجب إلى الاشتراك في التصويت وإدارة الحكومة فالحرية كما يفهمها العالم المتمدن اليوم كانت معدومة في الشرق والديمقراطية لم يحلم بها المشارقة ولذلك كان يعوز حياة الفرد في الشرق القديم الشعور بالمسؤولية والواجب تجاه الوطن. والشعور بهما لا يصدر إلا عن التابعية الحرة وأي شيء يدفع الفرد إلى خدمة وطنه مثل الاهتمام بمسائله العمومية والاشتراك في التصويت والتجند للذود عنه فهذه الأشياء تنبه الغافلين وتحرك سواكن الهمم فيهم إلى العمل وقد كانت أعظم الذرائع في تنشئة الرجال العظام بين اليونان والرومان.

ـ وكما قبل أبناء الشرق الحكم الملكي المطلق بلا اعتراض كذلك قبلوا حكم الآلهة الذي لم يكن إلا تقليداً قبله آباؤهم من قبلهم. فانحصرت أفكارهم ضمن دائرة ضيقة وقصرت عن إدراك كنه العالم الذي عاشوا فيه فإذا هبت الريح زعزعا عزوا هبوبها إلى أحد الآلهة وإذا حدث خسوف أو كسوف عللوه بغضب أحد الآلهة أيضاً والشيطان. فيستدل من ذلك على أن أبناء الشرق قلما عنوا بالبحث عن العلل الطبيعية للأحداث الجوية وبالإجمال نقول إن ما سرى من البلايا يعزى إلى فقدانهم الحرية العملية وعبوديتهم للتقاليد. ففي هذه الأحوال يتعذر على العلم الطبيعي أن يرتقي ويتقدم كثيراً. أما الديانة فكانت تغشاها ظلمات من الخرافات وأما الفنون والآداب فكان يعوزها تلك القوة التي تبعث في النفوس الهمة والإقدام (العصور القديمة: ص 165).

شورى الحكم في الإسلام

لقد ضرب سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه أروع الأمثلة في ديمقراطية الحكم القائم على الشورى التي أوجبها الإسلام على لسان القرآن الكريم ﴿وأمرهم شورى بينهم - وشاورهم في الأمر﴾. والتي طبعت الحكم الإسلامي في عهوده الزاهرة، فكانت الشورى اسماً وجوهراً، وقولاً وعملاً، ولم تكن شكلاً وزوراً، فهذا سيدنا عمر بن الخطاب - وبالرغم عما كان يتصف به من شدة وصرامة - لم يمارس الحكم في المسلمين كحاكم بأمره، وكرئيس دولة مستقل برأيه، وكمسؤول مستبد بسلطته، وكحالم بالدكتاتورية وبالحكم الشخصي على نسق بعض طواغيت العصر، بل جرى في حكمه بين المسلمين على الأخذ بالشورى حتى لا ينفرد برأيه في الشؤون العامة، ولا يقطع فيها دون مشورة ذوي الرأي في الأمة باعتبار أنهم أهل الحل والعقد فيها، وهكذا كان عمر بن الخطاب يلجأ إلى هؤلاء بعد تقليب وجوه النظر في الأمور، وقبل اتخاذ القرار المناسب فيها، ومن أجل هذا حرص الخليفة عمر على منع كبار الصحابة وذوي الرأي والمشورة من مغادرة المدينة مقر الخلافة حتى يتسنى له أن يرجع إليهم عند الحاجة وذلك وفاءً منه وطاعة لأمر الله: وأمرهم شورى بينهم - وشاورهم في الأسر.

مثال الحكم الصالح في الإسلام

1) عمر بن الخطاب: ﴿ إنها تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا ﴾ قرآن حكيم.

بعد بيعة عمر بن الخطاب بالخلافة خطب في الناس بالمسجد فقال: «إنما مثل العربي مثل جمل أَنِفٍ اتَّبع قائده، فلينظر قائده حيث يقوده، أما أنا فَوَرَبِّ الكعبة لأحملنهم على الطريق». فلما سمع الناس هذا ظنوا أن عمر سيكون عليهم، أكثر مما كان، في عهد الرسول وأبي بكر، شدة وغلظة، وسرعان ما أدرك عمر هذا فقام في الناس خطيباً حيث قال:

بلغني أن الناس هابوا شدتي، وخافوا غلظتي، وقالوا: قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله بين أظهرنا، ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟ ومن قال ذلك فقد صدق.

«... إنني كنت مع رسول الله، فكنت عبده وخادمه، وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكان ـ كما قال الله ـ بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً، فكنت بين يديه سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل مع رسول الله حتى توفاه الله وهو عني راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد!.

ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر، فكان من لا تنكرون دعته وكرمه ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتي بلينه، فأكون سيفاً مسلولاً حتى يغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عزّ وجلّ وهو عني راضٍ، فالحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد!.

ثم إني وليت أموركم، أيها الناس، فاعلموا أن تلك الشدة قد أُضعِفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي على المسلمين، فأما أهل السلامة، والدين، والقصد فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أَدَعُ أحداً يظلم أحداً، أو يتعدى عليه حتى أضع خده على الأرض، وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن بالحق، وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف، وأهل الكفاف.

ولكم علي، أيها الناس، خصال أذكرها لكم فخذوني بها.

لكم عليّ أن لا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه.

ولكم عليّ إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه.

ولكم عليّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى، وأسدّ ثغوركم.

ولكم عليّ ألا أُلقيكم في المهالك، ولا أجمركم في ثغوركم، وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال.

فاتقوا الله، عباد الله، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني،

وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإحضاري النصيحة فيما ولّاني الله من أمركم، أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

2) علي بن أبي طالب:

من قوله في أول خلافته:

«إن الله حرم حراماً غير مجهول، وأحل حلالاً غير مدخول، وفضل حرمة المسلم على الحرُمِ كلِّها، وشد بالإخلاص والتوحيد حقوق المسلمين في معاقدها، فالمسلم مَنْ سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده إلا بالحق، ولا يحل أذى المسلم إلا بما يجب، بادروا أمر العامة وخاصة أحدكم وهو الموت، فسره الإمام محمد عبده بقوله: عاجلوا أمر العامة بالإصلاح لئلا يغلبكم الفساد فتهلكوا، فإذا انقضى عملكم في شؤون العامة فبادروا الموت بالعمل الصالح كيلا يأخذكم على غفلة فلا تكونوا منه على أهبة. فإن الناس أمامكم، وإن الساعة تحدوكم من خلفكم، تخففوا تلحقوا، فإنما ينتظر بأولكم أحركم، اتقوا الله في عباده وبلاده، فإنكم مسؤولون حتى عن البقاع والبهائم، وأطيعوا الله ولا تعصوه، وإذا رأيتم الخير فخذوا به، وإذا رأيتم الشر فأعرضوا عنه».

ومن قوله في خطبته بصفين:

«أما بعد، فقد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمركم، ولكم عليّ من الحق مثل الذي لي عليكم، فالحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلا جرى

عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه، ولكنه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهلُه، ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها، ويوجب بعضها ولا يستوجب بعضاً إلا ببعض.

«أعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق: حق الوالي على الرعية، وحق الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل، فجعلها نظاماً لإلفتهم، وعزاً لدينهم، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها عز الحق بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على أذلالها السنن، فصلح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء، وإذا غلبت الرعية واليها، وأجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الأدغال في الدين، وتركت محاج السنن، فعُمل بالهوى، وعطلت الأحكام، وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطل، ولا لعظيم باطل فعل، فهنالك تذل الأبرار، وتعز الأشرار، وتعظم تبعات الله عند العباد، فعليكم بالتناصح في ذلك، وحسن التعاون عليه، فليس أحد، وإن اشتد على رضاء الله حرصه، وطال في العمل اجتهاده، ببالغ حقيقة ما الله أهله

من الطاعة، ولكن من واجب حقوق الله على العباد: النصيحة بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحق بينهم، وليس امرؤ، وإن عظمت في الحق منزلته، وتقدمت في الدين فضيلته، بفوق أن يعاون على حمله الله من حقه، ولا امرؤ، وإن صغرته النفوس، واقتحمته العيون، بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه».

ومن سياسته مع ولاته ما كتب به إلى أمرائه على الجيش: «من عبد الله أمير المؤمنين إلى أصحاب المسالح (الثغور)، أما بعد، فإن حقاً على الوالي أن لا يغيره على رعيته فضل ناله، ولا طول خص به، وأن يزيده ما قسم الله له من نعمه دنوا من عباده، وعطفاً على إخوانه...».

وكذلك ما كتبه إلى واليه على مصر، وهو يعد بحق دستور الحكم العادل في الإسلام، قال:

«... أمره بتقوى الله... وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات، ويزعها عند الجمحات، فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله. ثم اعلم يا مالك، أني قد وجهتك إلى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وأن الناس ينظرون من أمورك في مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على ألسن عباده، فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح، فاملك هواك، وشح بنفسك عما لا يحل لك... وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم، واللطف بهم، ولا تكونن عليهم

سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق...

ولا تنصبن نفسك لحرب الله... إياك ومساماة الله في عظمته، والتشبه في جبروته، فإن الله يُذِلُّ كل جبار، ويهين كل مختال... وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم، فإن الله سميع دعوة المضطهدين، وهو للظالمين بالمرصاد...

وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق، وأعمها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية، فإن سخط العامة يجحف برضى الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة...

وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أظنبهم لمعايب الناس...

«إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيراً، ومن شركهم في الأثام، فلا يكونن لك بطانة، فإنهم أعوان الأثمة، وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف....

فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك، ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعاً من هواك حيث وقع...

«ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الإلفة، وصلحت عليها الرعية، ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن...»

«وأكثر مدارسة العلماء، ومنافثة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك، وإقامة ما استقام به الناس قبلك».

«واعلم أن الرعية طبقات، لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض...»

«وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية، وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم، وقلة استثقال دولهم، وترك استبطاء انقطاع مدتهم...».

«ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم...».

«ثم انظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة، فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم في الإسلام المتقدمة، فإنهم أكرم أخلاقاً، وأصح أعراضاً، وأقل في المطامع إشرافاً، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً... ثم تفقد أعمالهم، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم...».

«... وليكن نظرك في عمارة الأرض أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد، وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلاً... وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء، وقلة انتفاعهم بالعبر...».

من هو الداعية؟

الداعية غير الخطيب، الخطيب خطيب وكفى، والداعية مؤمن بفكرة، يدعو إليها بالكتابة، والخطابة، والحديث العادي، والعمل الجدي في سيرته الخاصة والعامة، وبكل ما يستطيع من وسائل الدعاية، فهو كاتب وخطيب ومحدث وقدوة، يؤثر في الناس بعمله وشخصه. والداعية أيضاً طبيب اجتماعي يعالج أمراض النفوس، ويصلح أوضاع المجتمع الفاسدة، فهو ناقد بصير، يقف حياته على الإصلاح إلى ما شاء الله، وهو رفيق، وصديق، وأخ للغني والفقير، والكبير والصغير، ومن هذه الصفات تشيع المحبة في قلبه، وتتدفق الرحمة من عينيه، وتجري المواساة على لسانه ويديه، وهذا ضروري جداً للداعية، وهو من مواهب الروح والجنان، لا من صفات البلاغة وملكات اللسان. والداعية قائد في محيطه، وسياسي في بيئته، وزعيم لفكرته ومن يتبعه في ناحيته، وكل هذا لا تنهض الخطابة وحدها بحقوقه، فلا بدّ له من التأثير النفساني، والهيمنة الروحية، والاتصال بالله، واستعانة العقل بما حصل من تجارب التاريخ وأحوال الناس.

والذين جاهدوا فينا لنهديهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين - قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني.

الأمانة في الإسلام

الإسلام يرقب من معتنقه أن يكون ذا ضمير يقظ، تصان به حقوق الله وحقوق الناس، وتحرس به الأعمال من دواعي التفريط والإهمال، ومن ثم أوجب على المسلم أن يكون أميناً. والأمانة في نظر الشرع واسعة الدلالة، وهي ترمز إلى معانٍ شتى، مناطها جميعاً شعور المرء بتبعته في كل أمر يوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسؤول عنه أمام ربه، على النحو الذي فصله الحديث الكريم: كلُّكم راعٍ، وكلّكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راعٍ ومسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ في أهله وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسؤولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راعٍ وهو مسؤول عن رعيته. قال ابن عمر - راوي الحديث -: سمعت هؤلاء من النبي ﷺ وأحسبه قال: والرجل في مال أبيه راعٍ وهو مسؤول عن رعيته.

والعوام يقصرون الأمانة في أضيق معانيها وآخرها ترتيباً، وهو حفظ الودائع، مع أن حقيقتها في دين الله أضخم وأثقل.

إنها الفريضة التي يتواصى المسلمون برعايتها، ويستعينون بالله على حفظها حتى إنه عندما يكون أحدهم على أهبة سفر يقول له

أخوه: استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك:

وعن أنس قال: ما خطبنا رسول الله إلا قال: لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له.

ولما كانت السعادة القصوى أن يُوقى الإنسان شقاء العيش في الدنيا وسوء المنقلب في الأخرى، فإن رسول الله جمع في استعاذته بين الحالين معاً إذ قال: اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع، وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة.

فالجوع ضياع الدنيا، والخيانة ضياع الدين. وكان رسول الله في حياته الأولى قبل البعثة يلقب بين قومه «بالأمين».

وكذلك شوهدت مخايل الأمانة على موسى حين سقى لابنتي الرجل الصالح ورفق بهما واحترم أنوثتهما، وكان معهما عفيفاً شريفاً، فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال: رب إني لما أنزلت إليَّ مِن خيرٍ فقير، فجاءته إحداهما تمشي على استحياء، قالت: إني أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا، فلما جاءه وقص عليه القصص قال: لا تخف نجوت من القوم الظالمين، قالت إحداهما: يا أبتِ استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين. وقد حدث هذا قبل نبوة موسى وإرساله إلى فرعون. ولا غرو، فرسل الله يختارون من أشرف الناس طباعاً، وأزكاهم معادن، والنفس التي تظل معتصمة بالفضيلة على شدة الفقر ووحشة الغربة هي لرجل قوي أمين، والمحافظة على حقوق الله وحقوق العباد تتطلب خلقاً لا يتغير باختلاف الأيام بين نُعمى وبُؤسى، وذلك جوهر الأمانة.

ومن معاني الأمانة وضع كل شيء في المكان الجدير به، واللائق له، فلا يسند منصب إلا لصاحبه الحقيق به، ولا تملأ وظيفة إلا بالرجل الذي ترفعه كفايته إليها، واعتبار الولايات والأعمال العامة **أمانات** مسؤولة ثابتة من وجوه كثيرة، فعن أبي ذر قال: قلت يا رسول الله ألا تستعملني؟ قال: فضرب بيده على منكبي ثم قال: يا أبا ذر، إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها.

إن الكفاية العلمية أو العملية ليست لازمة لصلاح النفس، فقد يكون الرجل رضي السير، حسن الإيمان، ولكنه لا يحمل من المؤهلات المنشودة ما يجعله منتجاً في وظيفة معينة.

ألا ترى إلى يوسف الصديق، إنه لم يرشح نفسه إلى إدارة شؤون المال بنبوته وتقواه فحسب، بل بحفظه وعلمه أيضاً، «**اجْعَلني على خزائنِ الأرضِ إني حفيظ عَـلِيمٌ**» وأبو ذر لما طلب الولاية لم يره الرسول جلداً لها فحذره منها. والأمانة تقضي بأن نصطفي للأعمال أحسن الناس قياماً بها، فإذا ملنا عنه إلى غيره ـ لهوى أو رشوة أو قرابة ـ فقد ارتكبنا بتنحية القادر وتوليـة العاجز خيانة فادحة.

قال رسول الله: من استعمل رجلاً من عصابة وفيهم من هو أرضى لله منه فقد خان الله ورسوله والمؤمنين. وعن يزيد بن أبي سفيان قال: قال لي أبو بكر الصديق حين بعثني إلى الشام: يا يزيد، إن لك قرابة عسيت أن تؤثرهم بالإمارة، وذلك أكثر ما أخاف عليك بعد ما قال رسول الله: «مَنْ وَلِيَ مِن أمر المسلمين

شيئاً فأمَّر عليهم أحداً محاباةً فعليه لعنةُ الله، لا يقبل الله منه صَرْفاً ولا عَدْلاً حتى يدخله جهنم». والأمة التي لا أمانة فيها هي الأمة التي تعبث فيها الشفاعات بالمصالح المقررة، وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء لتهملهم وتقدم من دونهم، وقد أرشدت السنة إلى أن هذا من مظاهر الفساد الذي سوف يقع آخر الزمان. جاء رجل يسأل رسول الله: متى تقوم الساعة؟ فقال له: «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة!» فقال: وكيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة».

إسلاميات

قوة الإسلام: (ص VIII)

إن ما طرأ على الإسلام من التجزئة والانقسام بسبب التوثبات الاستعمارية والاستيلاءات الأوربية، وما انتاب وحدته الملية من التمزق والانصداع بسبب الحركات القومية المبتدعة، وما تولاه من الضعف والعجز بالرغم عما يبدو منه من فورات الغضب وثورات الانتقام، كل ذلك لم يصرعه ولم يتركه مخضوداً مكسوراً خضداً كسيراً، بل ظل واثباً وطيداً بصفته وحدة دينية وذلك بفضل ما لمدنية الإسلام من صفة عامة وطبيعة عالمية. فالقوالب العربية التي اتخذتها الديانة الإسلامية قد أبدعت وسيلة في كمال الاتحاد مكنت منها جميع الأجناس التي انقادت لسلطانها. فمنها اشترت الاختلافات الجنسية التي يتميز بها التركي عن الفارسي، والعربي عن التركي، والهندي الآري عن البربري، والصيني عن الإسباني، فإن الإسلام يكون بجميع هذه العناصر خير أداة وصل للاتصال ومزج للتمازج الروحي. هذا هو السبب الحقيقي في قوة الإسلام وسرعة دعوته واستمرار ذيوعه... فمرونة القوالب الدينية الإسلامية وعموميتها

(universalité) هما السر فيما نرى عليه جميع المسلمين من ائتلاف القلوب واتحاد الأرواح، حتى إن التتاري والسوداني، والمغربي والجاوي سرعان ما يرتبط بعضهم ببعض ويعطف بعضهم على بعض، وهو ما لا يحصل أبداً فيما يكون بينهم وبين الأوربيين من الروابط والعلائق.

الإسلام والحياة (ص VII)

يتوغل الإسلام في جميع مناحي الحياة فلا يغفل من مجالها شطراً ولا جهة. ذلك أن الإسلام قاعدة الحياة الأساسية (norme) وخلاصتها الجامعة (synthèse) وذلك بصفته جماعاً للتقاليد وملهماً للسيرة النفسية والمواقف الشخصية. فهو يقتضي في آنٍ واحد وطنية شديدة وعالمية جريئة تنشآن منه وفيه ويتعهدهما في غير تردد وفتور. فالإسلام يضع الوطن في قلب الإنسان وبهذا يعده لأن يجد نفسه في كل مكان كما هو شأنه في موطنه. فالإسلام هو في الوجود الشيء الوحيد الذي تفوق قوته قوة الغرائز والطبائع الموروثة. فقد رأيت ما يستطيع أن يؤكده جميع المستشرقين الذين عنوا خاصة بدراسة آسيا وهو أن هنوداً أسلموا لم تمض على ممارستهم للعبادات الإسلامية بضع سنوات حتى تحولوا تحولاً خلقياً يكاد يعادل تحولهم الخلقي. فقد تبدلت سحنتهم وتغيرت مشيتهم وحركات أعضائهم وذلك على مثال التقلبات التي طرأت على أرواحهم وإبطال نظام الطوائف العنصرية بفضل مساواة الإسلام الرائعة ربما لا يكفي في تعليل هذا الحادث الطبيعي (phénomène) فإن نفس الأمر يشاهد في

الصين حيث يعرف المسلمون لأول وهلة بسحنة خاصة تميزهم عن غيرهم من بني جلدتهم.

لا نهضة إلا بالإسلام: (ص: X)

يشعر العرب شعوراً باطناً بأن نهضة جنسهم مرتبطة بنهوض الإسلام. فالإسلام هو عين جوهر الفكرة السامية. فهو قالبها الذي تُفرَغُ فيه فيعبّر عنها أدق تعبير ويمثلها في شكلها العالَمي أقوى تمثيل. فكل انحطاط يعتور الإسلام تكون عاقبته تدهور العرب. وتلافياً لهذا وسعياً في تضييق ممكناته منع الإسلام كل ترجمة للقرآن وأمر نبي الله بثقافة العربية وآدابها، إذ هي ينبوع لا ينضب بل يتفجر دائماً بالفن والجمال وقوة العاطفة والشعور. ومن أجل هذا أيضاً كان وطن العرب الذين هم دعاة الإسلام وأحباؤه وسَطاً بين أوطان الشعوب الأخرى بل كان العرب أنفسهم المركز الذي يتجه إليه كل شيء وذلك ليدرك ببلوغه مرامه في الوحدة. كلما انحط مجتمع إسلامي كان هذا الانحطاط ناشئاً عن عدم رعاية المبادىء الإسلامية فيه رعاية صحيحة أمينة. فكل انحطاط اجتماعي في المشرق لا ينشأ إلا عن ثلاثة أسباب: تفريط المؤمنين في مجال الديانة، عجز وسوء إرادة السلطة الحاكمة، الخطر الخارجي. ومجرد حركة إدارية تستطيع في المشرق أن تعيد النظام إلى نصابه بينما الانحطاطات الاجتماعية الأوربية التي تتأصل جذورها في النظام الاجتماعي نفسه لا يكفي في علاج أمرها وتقويم أودها إلا سلاح الثورة.

لهذا ما فتئت أعلن وأكرر بقوة أن حركة التجديد في الشرق

الإسلامي يجب أن تقوم باسم الإسلام وعلى يد الإسلام. وقد جاءت كبريات الحوادث برهاناً على ما أرى وأدعو إليه.

الإسلام والشخصية: (ص XII)

حقاً إن الإسلام وسيلة رائعة لتآخي الشعوب والأجناس، وحقاً كذلك أن العرب المسلمين ساميون خلص وأن جميع الأقوام التي تدخل في الإسلام تنطبع بالطابع السامي عاجلاً أو آجلاً. ولكن يجب أن لا يظن أحد أن الإسلام يروم تسوية الطبائع بالعنف والقساوة وأنه بهذه الصفة يعادي الشخصية الإنسانية، بل الأمر بخلاف هذا، فالإسلام خلاصة كاملة ضمت واحتضنت أشد الشخصيات تبايناً وتمايزاً، ولكن عملت لرفعتها وأغزرت حيويتها، وأبرزت مميزاتها.

الإسلام والمدنية:

أوجد الإسلام بين جميع المسلمين في المعمور روابط روحية قوية، ومزاجاً خاصاً يعلو المصالح المادية والمحلية.

وقد آن أن نقضي على تلك الأسطورة التي تصور العالم الإسلامي في صورة محيط غريب يتألف من أشياع متعصبين دائماً في حالة هيجان وتحفز يترصدون الفرصة لمواثبة غير المسلمين ومحقهم محقاً لا يبقي ولا يذر، الحقيقة أن الإسلام يملك المدنية الوحيدة التي تستقبل أشد العقول تغايراً وترحب بتعاون أعظم الأجناس تمايزاً. فالسماحة (tolérance). والعالمية (universalité). أي الكرامة الفكرية والإحسان الروحي وهما

صفتان أساسيتان في الإسلام تمكنان كل شعب وكل حضارة من بلوغ أرقى وأحسن مظهر من المظاهر الاجتماعية.

على أن ما يعوز اليوم الإسلام في حركة نهضته وتطوره هو تأييد خالص نزيه من أمة أوربية تكون بمثابة الحلقة وصلة الوصل وتجعله يتمتع بفضائل المدنية الحديثة دون أن يخشى من وراء سحر الأحاديث عن الرقي والتقدم والحرية والإخاء أي رهط من الاستعباد السياسي والاقتصادي الذي يتوارى عن الأعين بحجاب.

إن العالم الإسلامي بالرغم عما فيه من مدارس فكرية وفرق دينية، واختلافات مذهبية، ما زال يحتفظ برابطة وحدته التي يجعلها التطور الحديث أقل دينية وأكثر اجتماعية فإذا تذكرنا أن اللغة العربية هي لغة مئة مليون من الناس وأنها بصفتها لغة الدين تدرس وتستعمل حيثما يقوم أصغر مسجد أدركنا جلياً أن الوحدة الإسلامية ليست بمسألة ذات قيمة وضعية يستهان بها.

القانون في الإسلام (ص: 139)

لا غاية للقانون الإسلامي غير خدمة المصلحة الاجتماعية على أساس إحقاق الحق وإزهاق الباطل. والمصلحة الاجتماعية تتغير بتغير أحوال الإنسان وظروف الحياة. فالقانون الإسلامي مع بقائه ضمن الحدود المقررة له بالنصوص الشرعية قابل للتغير والتطور والارتقاء.

قال خان باها دور في «حصول المأمول»: زعم بعضهم أن علم الفقه إنما هو مجموع أحاديث وأقضية (exemples) السلف

وأن ليس لنا إلا العمل بها دون مناقشة ولا جدال. وبهذا يضيق مجال العلم وينحط شأنه بحيث يصير نوعاً من التاريخ ويحرم من الاعتراف له بغاية ذات وجود مستقل.

ويقول الحنابلة إنه لا شك في أن تطبيق القانون يمكن أن يتغير مع الزمان، وقيل: إن المصلحة هي قاعدة المشرع. ويرى الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه لا بدّ لمظالم جديدة من قوانين جديدة (A des abis nouveaux, il faut de nouvelles lois) وقيل: ما تجده جماعة المسلمين صالحاً فهو عند الله صالحاً. وفي الحديث الشريف: يد الله مع الجماعة. ولهذا كان «للإجماع» في التشريع سلطة القانون. ويقول سانت لانا: إن تكرر الاستعمال واحداً غير محرف وكان خالياً مما يخالف مكارم الأخلاق وأحكام القانون الوضعي فإنه يكون له من السلطة ما للقانون نفسه بل يعد جزءاً من القانون. وورد في الوصايا التي كتب بها الخليفة عمر إلى أبي موسى الأشعري: الفهم، الفهم مما يتلجلج في صدرك ويشكل عليك مما لم ينزل في الكتاب ولم تجر به سنة، فاعرف الأشباه والأمثال ثم قس الأمور بعضها ببعض وانظر أقربها إلى الله وأشبهها بالحق فاتبعه واعمد إليه، فالقياس وسيلة صالحة لتطبيق القانون. فكل ما يستنتج بطريق القياس من الأصول العامة التي يقررها القانون يتمتع بنفس القيمة التي للنص الصريح.

ولما أوفد الرسول معاذ بن جبل والياً على اليمن اختبره فقال له: بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله: قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي فقال

رسول الله : «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسوله».

فكل ما أسلفناه من الشواهد يكفي في إعطاء فكرة واضحة عن الفقه الإسلامي وممكنات تطوره وارتقائه.

قابلية الإسلام للتجديد والتطور (ص: 143)

كم مرة قيل إن الإسلام بجموده على الأحكام الراسخة التي تقررها المذاهب الأربعة لا يستطيع أن يتطور حسب مقتضيات هذا العصر وضرورات الحياة فيه. وهذه دعوى باطلة ولست أسوق دليلاً على بطلانها سوى ما قام به الإمام الشافعي الذي بعد أن أملى مذهبه ببغداد أدخل عليه بمصر من التعديل ما جعله ينطبق على الضرورات الجديدة. وما قتل العلم الصحيح بين المسلمين إلا عصور القهقرة التي توالت على الإسلام فأثقلت عاتقه وعاقته عن النهوض والمسير. إذاك! أصيب علماء الشريعة بالعجز والجهل والكسل وأصبحوا في خشية من المسيطرين فانقلبوا بهذا مقلدين جامدين وأعلنوا غلق باب الاجتهاد في الأحكام واستعمال الرأي في التشريع. وقد ثارت دائماً العقول المرنة الحرة على هذه المزاعم المخالفة لروح الإسلام الأول حيث كان الخلفاء الراشدون وهم عمدة في التشريع يستعملون الرأي والاجتهاد فيما لم يرد فيه النص من كتاب ولا سنّة.

وتوجد اليوم مدرسة فكرية عصرية يمكن أن نسميها «بمدرسة التجديد» وإن قامت على الدعوة إلى المذاهب السلفية والمذاهب الأصلية فهذه المدرسة الناشئة تعلن أن باب الرأي والاجتهاد قد فتح على مصراعيه من جديد. وبهذا تمكن الإسلام من وسائل

التطور حسب مقتضيات الحياة العصرية وذلك عن طريق تطبيق وتحسين وتوسيع المبادىء والقواعد التي توجد في الشرع الإسلامي، لا بواسطة اقتباس الأنظمة عن البلاد الأوربية اقتباساً قد لا يكون موفقاً ولا تقضي به مصلحة. ولكن بصرف النظر عن مسألة الاجتهاد لا يسُوغ سد الإسلام عن التطور والسير مع ضرورات الزمان. ومنذ زمن اتجهت أنظار الهيئة العلمية في الإسلام إلى مسألة توحيد المذاهب الفقهية الأربعة وجعلها مذهباً واحداً على الأقل فيما يرجع إلى المسائل المدنية، وتطبيقاً أولياً لهذا عمدت الحكومة المغربية إلى وضع قانون جنائي (مجلة أحكام) يتألف من خير الأحكام في المذاهب الأربعة.

والقانون الشرعي يعتمد على ثلاثة مبادىء إن لم تكن صريحة بالنص فهي موجودة على سبيل التقدير في القضاء الإسلامي إذ إنها جزء أصلي في الشعور الديني. تلك هي: الرفق والصواب والخير العام. فبإهمال أَحَدِهَا ينزاح الإنسان عن حظيرة النظام الفكري السُّنّي.

وإذاً فمن الغريب أن يجحد بعضهم الإسلام حق الانتخاب والانتقاء (eclectisme) وقدرته الخارقة على التطور حسب البيئة والوسط.

إن مظاهر الرقي غير واحدة عند الساميين والأوربيين وإغفال هذه الحقيقة هو ما حدى في الغالب على التهاون بمقدرة الإسلام على التطور والارتقاء. فالأمة الأوربية ترتقي بإضافة عناصر جديدة أو إنضاج عنصر سابق بتحويله من حيز العقل (état

(polentiel إلى مجال الفعل. أما الأمة الإسلامية فالرقي عندها يكون عبارة عن انتقاء عناصر موجودة لم تتحول عن موضعها. فإنجاز الرقي يكون لا بإعادة نظام الأشياء ولكن بالعودة إلى نظام تقليدي (hiératique) أصلي فالأساس في هذا ليس هو تمييز القديم من الجديد ولا فرز الأمهات عن الجزئيات وعزل النقي الخالص عن الخليط والمزيج. فالرقي الآريّ يقود أقوامه من العتيق الخلق إلى الجديد أما في الإسلام فلا شيء يتطرق إليه البلى ويهرم لأن المسلمين لن ينزعوا أبداً عن أصولهم ولم يهجروا نظامهم الأول. ولهذا فإن عصوراً طويلة من الجدال الفارغ العقيم (bysautinisme) والتعليم القديم الجامد (scolastique) لم يخنق فيهم ذلك الأساس من الصفاء القلبي والاستعداد المنطقي الذي يكون خاصاً بأبناء الطبيعة وأهل الفطرة. وتكاد تتلخص جميع النفسيات العربية في أمور ثلاثة: الإخلاص الفطري، (naiveté) وذكاء القلب (subtilité) وسرعة الخاطر (activité) وكلها ينابيع قوة وجدة لا تنضب لها مادة. ويمكن القول بأن السنة تضم الدراسات الكلاسيكية، والمعارف الإنسانية (humanités) الخاصة بالجنس القومي. وهذا هو السبب فيما للسنّة من سلطة تربوية ونفوذ تجديدي يعملان في الجماهير والنخبة جميعاً.

فالإسلام بالرغم عن دقة وجمود قوالبه يتطور حسب الضرورات البديهية، ويستطيع أن يتحول دون أن يصاب بنقص كما يمكنه أن يبقى على مر الدهور مائلاً لقوته الحيوية ولمرونته الخاصة. فالبرغم عن شدة استمساكه بالأشكال والصيغ يستطيع

إدراك الانتقاء في مجال الدين وتحقيق (synchrétisme) الذي هو حكم زمرة في الفلاسفة الإنسانيين (humanitaristes).

وباختصار فإن السنّة تجسم ما في الحضارة من روح العالمية وتتجه وجهة روحية ولو أثناء اهتمامها بالمسائل العادية.

وكل من يتجرد عن نزعات الهوى وأفكار الباطل (préjugés) ويشغف قلبه بروح الخلائق وهيئة الأشياء في المشرق يستطيع الوصول إلى هذه النتيجة وهي أن الإسلام هو الكمال نفسه يتجلى في سماحة رائعة وإنسانية هي أقوى ما تكون خلابة وفتوناً.

العهد في الإسلام: (ص: 154):

كل شيء في الإسلام يقوم على أساس العقد (contrat) والميثاق (pacte) والعهد (traité) فإذا ما تغلغلت هذه الحقيقة الأساسية في العقول أدركت نهائياً أسرار السياسة الإسلامية. بل إن المبدأ الأصلي في الإسلام يقوم على العهد ذلك أن صورة عهد مبرم بين الإنسان وخالقه حتى إن العقيدة الصحيحة تسمى في الإسلام بصحة العهد. وكذلك تعيين الخليفة أو الإمام في الملة الإسلامية يستند إلى ميثاق (البيعة) يربط الجماعة والشخص الذي يعهد إليه بالسلطة العليا. ونجد أيضاً أن العلائق التي بين المسلمين وغيرهم إنما تحكم بمقتضى العهود والمواثيق. فأهل «دار الحرب» قسمان: المعاهدون وغير المعاهدين وهؤلاء وحدهم هم الذين يحاربون ويجاهدون.

الجهاد في الإسلام:

لا يقتضي الجهاد الحرب والقتال مجرداً، بل هو كذلك كل مجهود تعبدي عظيم يعرض صاحبه للأخطار ذاتية كانت أو معنوية فهذا الواجب، متى اعتبرناه بهذه الصفة، اكتسى معنىً خلقياً سامياً وتحتم على جميع المسلمين المستنيرين خاصة وعلى جميع من يستحقون أن يوصفوا تقديراً أو امتيازاً بالمؤمنين حقاً، أن يطمحوا إليه بشعور حماسهم الديني وروح تضحيتهم وعزيمة إرادتهم.

فليس الجهاد ويجب أن لا يكون عمل محق وتدمير ولا عمل فتح طائش (forcené) ولا وسيلة قمع دموي، بل هو مجهود قدسي يُبذل في طريق الإنسانية وفي سبيل الخير والكمال الذي هو سبيل الله. ويتضح من بعض الآيات القرآنية التي ترتفع بمعانيها إلى درجة السمو والعلى أن الجهاد يكون بالأموال والأنفس وأن المجاهدين يحاربون ثقالاً أو خفافاً وأن الفضل في الخروج للجهاد. وليس الخروج هو ما يقتضيه المعنى الحقيقي لهذه العبارة فحسب، بل هو أيضاً الاجتهاد في اكتناه روح الأعداء إحكاماً لمعرفتهم وبصراً بحقيقة أمورهم. فلا بدّ إذا من بذل جميع المجهود في سبيل الله. وذلك في جميع الحيثيات الإنسانية وفي جميع الظروف وبجميع الوسائل الصالحة: فالحديد يفل بالحديد، والذهب يعارض بالذهب، والحيلة ترد بالحيلة، والعلم يسلط على العلم، والفن يقاوَم بالفن، والمدنية تغالَب بالمدنية. وكل هذا في عراك شريف وبقدر ما في المجهود من صفاء وإخلاص. فهكذا يجب أن يعمل الرجال، لأن الصالحين

هم الذين يستطيعون أن يعارضوا مباشرة بقوة اليقين والإيمان الذهب والحديد ووسائل المكر والخديعة.

الإسلام ويقظة الأمم: (ص: 210)

إن العودة إلى العقل، والنهوض بالتعليم العام، وأنواع المطالبة بالرقي العلمي، والتطور الطبيعي للفكر، كل هذا عند المسلمين لا يخالف الدين في شيء. فالإسلام لم يعاد قط الدرس والمعرفة، وروح العرب روح عقلية صميمة. وإنما السبب في الانحطاط الفكري بالشرق استبداد السلطة الحاكمة، والاستبداد أمر غريب عن الإسلام وإنما تشرب فيه بتأثير الفرس أو المغول أو البيزنطيين. فقوة الأشياء لا بدّ من أن تنصر أحسن أماني الإسلام. ومن المناسب استغلال الظروف للقيام بعمل دائم.

إن يقظة الشعوب الإسلامية يقظة مناسبة موفقة، إذ أن هذه الشعوب تستطيع بل يجب عليها أن تتضافر على عمل المدنية العامة وتساهم بأنصبتها في السلم بعد أن ساهمت بأنصبتها في الحرب وتشارك بحظها من التطور في مجال الجهود المشتركة. فدين الإسلام يحمل المسلمين على هذا ويلزمهم به وذلك لأنه منهاج رائع للشمول والعالمية.

مأخوذ من كتاب المستشرق الدكتور انسباتو: **Dr. Insabato**
L'Islam et la politique des allées.

نهضة العلم بالقرويين

هل القرويين جامعة؟

اعتاد كثير من الناس - إذا كتبوا وتحدثوا عن القرويين - أن ينعتوها بالجامعة مع أنها - في طورها الراهن - ليست بجامعة بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة. ونحن إذ نعلن هذا لا نروم الحط من شأن القرويين وإنما قصدنا ونحن في مجال البحث النزيه أن نلزم ما يُحَتِّمُهُ علينا من التحقيق والتدقيق بقدر الإمكان، فلا نسمي الأشياء إلا بأسمائها المطابقة في غير ما إفراط ولا تفريط، وما يجدينا أن نشتط في تسمية الأشياء، ونغالط أنفسنا فنظن النقص كمالاً، ونتخذ الأمل حقيقة، ونعتبر المآل حالاً.

إن الجامعة كما هي معروفة في اصطلاح أهل العصر عبارة عن جميع كليات التعليم العالي من آداب وحقوق وطب وطبيعة، وعن سائر المعاهد والمدارس على اختلاف مراتبها واختصاصاتها التي توجد في حاضرة من حواضر العلم في البلاد الراقية، كقولنا جامعة باريس أو أكسفورد.

وتطلق أيضاً كلمة جامعة على الهيئات التي تتولى باسم الدولة

التعليم عامة أي الابتدائي والثانوي والعالي، فيقال ـ مثلاً ـ جامعة فرنسا أو الجامعة.

فالجامعة بالمعنى المذكور لا يصح اطلاقها على القرويين في حالتها الراهنة، وإن سماها بعضهم جامعة فإنما يكون هذا من قبيل التجوز في الكلام لا غير.

الحقيقة أن القرويين معهد ديني عربي وهي تعنى بعلوم الدين أكثر من عنايتها بعلوم العربية. وبعبارة فالقرويين، في الوقت الحاضر، كلية إسلامية صرفة. فالمتخرج منها تؤهله معارفه الدينية للقيام بوظائف الكتابة، والعدالة الشرعية والخطابة الدينية، وتدريس علوم الدين والعربية. والقضاء الإسلامي والمحاماة الشرعية. وإن أبينا إلا أن نعتبر القرويين اليوم جامعة كان هذا منا غلطاً أو مغالطة.

القرويين ونهضة الأمة:

ومهما كان اللقب الذي نحلي به القرويين في وضيعتها الحاضرة فإنها لا تكفل للأمة المغربية النهضة العلمية والرقي الفكري الذي تتوقف عليهما لكي تصبح أمة راقية بكل معنى الكلمة. فالأمة المغربية الناهضة في أشد الحاجة إلى علماء أخصائيين في سائر العلوم والفنون المعروفة في هذا العصر مثل الأطباء والمهندسين والأساتذة. وعلماء القانون والاقتصاد وغيرهم من الرجال الأكفاء كما [1] أن أمتنا في

(1) كتب أحد الفرنسيين أخيراً في مقال له تحت عنوان: نصائح لأحبائي المغاربة ما تعريبه: إن ما يهم المغرب اليوم أكثر من سواه هو أن يؤهل أكبر عدد ممكن من =

افتقار شديد إلى ذوي المقدرة والكفاءة من الكتّاب والعدول والخطباء الوعاظ والمدرسين والقضاة والمحامين الشرعيين. والقرويين إن ضمنت للأمة هؤلاء الرجال. فلا تستطيع الآن أن تزود المغرب بما يحتاج إليه من الآخرين.

حاجة المغرب إلى العلوم العصرية:

إن كانت القرويين ستظل كما هي من حيث اقتصار دائرة العلم فيها على الدين والعربية فلا مناص من التفكير ـ حالاً أو استقبالاً ـ في تأسيس جامعة مغربية للعلوم العصرية. وذلك لتخريج ما يدعو إليه تطور المغرب من رجالات العلم الذين تخرج أمثالهم الجامعات العلمية الراقية. إن تحقق هذا نهجنا منهج الأمة المصرية الشقيقة التي أشادت دولتها إلى جانب الأزهر الشريف الجامعة المصرية الجديدة حيث يتلقّى الطلاب المصريون

= أبنائه لا للاحتراف بالمهن الحرة ولكن للاندماج في زمرة أرباب الصنائع الحديثة والمهندسين الخبراء والأخصائيين الفنيين الأكفاء. وخلاصة القول يجب على المغرب أن يجدر بنيه لاستغلال خيراته والاضطلاع بتنظيم وتدبير شؤونه فإن الشعوب غداً ستقدر قيمتها خاصة بما سيكون لها من ثقافة مادية ومعنوية. فإذا قصّر المغاربة عن إدراك هذه الجدارة. والإحراز على هذه الأهلية فإني أخشى أن يحل محلهم هنا لفيف من الأجانب وشذاذ الأفاق الذين تخولهم شهاداتهم العلمية وكفاءتهم الفنية احتلال المناصب والاستبداد بالأعمال والمشاريع العمرانية دون المغاربة الذين إنما يكونون لهم أفراداً وتبعاً. إن العالم كله بعد هذه الحرب سيعمل حتماً لترميم خرابها وإصلاح فسادها والتلبية على أثارها. والشعوب القادرة وحدها هي التي تحظي بالتفوق. أما الشعوب المتأخرة فسيكون حظها أن تصبح لغيرها خدماً وخولاً، فليتدبر المغاربة أمر هذا المستقبل. وحيث كانت أهم القدرة والاستطاعة فليحاولوا المستحيل ليكونوا غداً جدراء بتبوإ منزلتهم في صف الأمم التي تتزعم الحضارة في العالم وإن هذا المصير لبيدهم.

والشرقيون من أنواع العلوم وعناصر الثقافة ما يتلقاه زملاؤهم في لندن أو باريس.

والنهضة المصرية الحاضرة إنما هي ثمرة جامع الأزهر والجامعة الحديثة معاً، ولا غنى لمصر في تقدمها إلى الأمام وسعيها وراء السعادتين الدنيوية والأخروية عن المعرفة الأزهرية والثقافية الجامعية فمنهما يفجر الله لمصر ينابيع الحكمة والهداية.

أما إن كانت القرويين هي التي ستكون وحدها جامعتنا العلمية القومية تتعلم فيها ناشئتها الدين والعربية وتدرس على أساتذتها ـ في المستقبل إن شاء الله ـ جميع العلوم والفنون الحديثة، فمن الضروري لنهضة العلم بين أهل بلادنا ورقي الأفكار بين قومنا وتحقيق ما يقوينا من آمال في هذه الحياة أن ينظر اليوم قبل غيره في توسيع نطاق التعليم القروي بإضافة العلوم العصرية. وتمكينها من جميع الوسائل اللازمة لإعداد العلماء الذين نحتاج إليهم لتكون نهضتنا حقيقية وقائمة على قدم راسخ. فالقرويين لكي تؤدي رسالتها العلمية القومية، وتمد الأمة بوسائل النهوض والارتقاء. تمس حاجتها إلى معهد علمي عصري يكون ملحقاً بها وينهل من معينه طلابنا جميع المعارف التي تنقصهم والتي تؤهلهم لمعركة الحياة. هذه المعركة التي سلاحها من حديد ونار لا من خشب وهشيم.

وقد سبق للقرويين أن كان لها شبه معهد عصري وذلك بزاوية ماء العينين بطالعة فاس. فلا يعسر بحال استئناف هذا المشروع وتوسيع دائرته بقدر الإمكان وإحكام نظامه بصفة تضمن له طول الحياة. وتحقيق الغاية المرجوة. والإتيان بما يرغب فيه من

الثمرات. ونحن نعترف إنه لا يمكن إنشاء هذا المعهد في أكمل صورة بين عشية وضحاها ولكن ما لا يدرك كله لا يترك بعضه. والمهم الآن هو البدء في العمل ليخرج المشروع إلى حيز الوجود وتتكون نواة المعهد الذي نرجو له حياة مديدة موفقة ومستقبلاً عظيماً زاهراً.

وباختصار فالقرويين لن تفي بجميع حاجات الأمة المغربية في مجال نهضتنا العلمية العامة إلا يوم تصبح مستوفية لجميع شروط الجامعة حقاً ويقيناً.

وإن أمل الأمة جمعاء المنوط بهمة ملكها المحبوب كي يَثِبَ بجامع القرويين إلى أوج الكمال وثبات تجددها تجديداً مجيداً وتبوؤها منزلة رفيعة في صف معاهد العلم ومعاقل الحكمة ومنائر الهداية. وما هذا على الله وعلى عزيمة الملك بعزيز.

غابر القرويين وحاضرها:

إن القرويين جديرة فعلاً بأن تطمح إلى نيل حظها الوافر من السؤدد والرفعة بين الجامعات الزاهرة عامة والجامعات الإسلامية خاصة. فلقد كانت القرويين - في غابر الأيام - مركزاً عظيماً يشع منه نور المعرفة على جميع الآفاق. فكان يفد إليها طلاب العلم من سائر أطراف المغرب ومن الأندلس وأقطار الشمال الإفريقي ومصر وغيرها من بلاد الشرق. كما كان يهاجر إليها الطلبة من بعض الأقطار الأوربية التي كانت فقيرة من العلوم المتداولة عندنا إذاك.

وقد أصاب القرويين ما حاق بالأمة من التأخر والانحطاط

والخمول بتقلص العلم بيننا وفسد التعليم وخمدت الهمم، فهوَيْنا في أغوية الإذلال من الناس، ووقعنا في غيابة الجهل فجهلنا واستُجهلنا حتى غدونا مع الإسلام في جاهلية.

وبقي العلم واختلال التعليم في القرويين - طوال عصور متوالية - صورة لركود الهمم وفساد الأخلاق في بلادنا حتى رق الله لأمتنا ورفق بها فقيض لها مَن يجدد غابر مجدها. ويعيد إلى القرويين ما هي أهل له من رفيع الدرجة وسامي المقام.

فقد دخلت القرويين في عهد جلالة الملك سيدي محمد نصره الله طوراً جديداً أقبلت معه على الحياة بعد معاناة أهوال المرض الفتاك المزمن مرض السقوط والضعة والفوضى بعد الإشراف على الهلاك. حقاً تدارك جلالته القرويين فنفخ فيها روحاً جديدة جرى معها دم الفتوة والحياة في شرايين الجامع العتيق، فهبت من رقدتها التي كانت أشبه بالموت وأخذ كل شيء فيها ينتعش من سقطته، وينهض من كبوته، فتجددت الآمال بتجدد الأحوال، وصرنا نحدق بأبصارنا إلى الأمام بعد أن كنا في زمن ركود وقهقرة فأصبحنا في عصر نهضة وتقدم إلى الأمام كما قال جلالته:

«. . . . علمنا ما لجامع القرويين من سالف المجد في حفظ مهجة العلم الإسلامي، وما تخرج منه من الفحول الذين كانوا تيجان فخر بمفرق الدهر في طيّ عهود التاريخ المغربي، فما علمنا وسيلة ترد شبابه، وعمارة دروسه وازدهار العلم به إلا اتخذناها».

عمل الإصلاح بالقرويين:

قال جلالة الملك في بيان الإصلاحات المنجزة بالقرويين: «تعلمون الحالة التي وجدنا عليها التعليم بجامع القرويين، وما كان يسوده من الوقوع في هاوية الزوال: علماء يقلون، وطلبة يتشتتون، علوم تنقص بموت مزاوليها. وقلة ذات اليد تلزم المدرسين أن يهجروا العلم للارتزاق بمهن أخرى، لا مرشد خير يهدي الناس السبيل، ولا رائد رشد يورد من المعارف العذب السلسبيل حتى أدركتنا العناية الربانية فوجهنا همتنا لإصلاح الأحوال، وتدارك مهجة العلم مما كان يسوده من الاضمحلال.

فأسسنا المجلس الأعلى للعلوم الإسلامية بأعتابنا الشريفة. ليباشر تحت إشرافنا إنشاء نظام جديد للمعهد القروي. فرتب مزاولة العلم به في ثلاث طبقات: ابتدائية وثانوية ونهائية. وحدد لكل طبقة ما يقرأ بها من العلوم كما حصر أمد سني الدارسة فيها. وعين المدرسين لكل واحدة منها، ورتب الرواتب الكافية. ثم عين مراقباً لسير الدروس بعدما حصر الفنون والكتب التي تقرأ بها. وأوجب امتحاناً سنوياً لترقي الطلبة من طبقة إلى طبقة. وآخرين للمتخرجين من سادسة الثانوي وثالثة النهائي الديني والأدبي! وجعل شهادتين بذلك يتمسك بهما أولئك المتخرجون دليلاً على تحصيلهم وتأهيلاً لهم لنيل الوظائف الدينية والمخزنية، ثم أحدثنا شهادة أخرى لخريجي رابعة الثانوي تخفيفاً على طلاب البادية. ولم تقتصر عنايتنا على إصلاح المعنويات، بل أمرنا بكل ما يستطاع من الإصلاح المادي: فقد شاهد الكل

ما تم من إصلاح المدرسة المحمدية، وباشرنا في الأسبوع الفارط افتتاح خزانة الكتب وردهة اجتماع أعضاء المجلس التحسيني والمدرسين وما يتبع ذلك من الأمكنة اللازمة لتسيير شؤون الكلية على نمط يضمن لها الحياة ويسهل لها الرقي. أما مدارس سكنى الطلبة فلا تزال يدخل عليها الإصلاح المتواصل من إنارة وغيرها على أننا نرجو في ذلك السبيل مزيداً بعد مزيد. ثم صرنا نتابع هذا الرقي بنفسنا متعهدين بإصلاح النظام كلما سنحت بذلك فرصة قابلين ما يرد علينا من الآراء السديدة فاتحين باب الإصلاح كلما سنحت فرصة للإصلاحات الجديدة.

. . . . ثم لما علمنا أن نظام القرويين لا يكمل إلا إذا مهدت له السبل من الخارج ومدت إليه الوسائل من كل جانب بدأنا الإصلاح من الأساس ليكون هيكله أمتن، ووجهنا عنايتنا لإصلاح كتاتيب القرآن اعتناء بحفظ كتاب الله وتجويده فأصلح الموجود بكل ما يستطاع، وأنشأنا مدرسة بفاس سميناها باسم نجلنا البار مولاي الحسن وأخرى بالدار البيضاء باسم شقيقه الأرضى مولاي عبد الله، وأسسنا برنامجهما لحفظ كتاب الله ومزاولة التعليم الابتدائي ليكون وسيلة إلى تخريج الطبقة الابتدائية منهما ليمكنها الدخول إلى ثانوي القرويين أو ابن يوسف، والأمل هو أن ينشأ أمثالهما بكل مدن إيالتنا الشريفة ليمكن بذلك أن يسقط كل الابتدائي من الجامعتين، فلا يبقى فيهما إلا الثانوي والنهائي تسهيلاً على طلبة العلم الشريف وتيسيراً لورودهم على حياضه في كل النواحي المغربية من غير أن يتحمل الأحداث مشاق التغرب في أول سني الدراسة، كما تأسست مدرسة ابتدائية

بمكناس بمناسبة حلول ركابنا الشريف يمكن للمتخرجين منها أن يدخلوا ثانوي القرويين بأسهل الوسائل.

هذا عرض موجز بأفصح عبارة لما أنجزه جلالة الملك المحبوب خلال السنوات الأخيرة من الأعمال والمشاريع لإنعاش القرويين وتوجيهها توجيهاً صالحاً في سبيل الرقي والازدهار. وقد خطت تلك الإصلاحات بسير العلم عندنا خطوات كبيرة مهمة هي الخطوات الأساسية الضرورية لكل نهضة علمية صحيحة الأسس رفيعة العماد. وإن جلالة الملك لدائب على بذل الجهود اللازمة لتذليل العقبات وإعداد الوسائل، وتيسير الشروط التي من شأنها أن تمكن العروج بالقرويين في معارج الرقي المطلوب والكمال المنشود لأن جلالته يعقد بحق على القرويين أمالاً كباراً يرجو من الجميع علماء، وطلبة وَأُمَّة أن يتضافروا عاملين على تحقيقها خدمة للبلاد ونفعاً للعباد.

قال جلالته مخاطباً علماء فاس: نريد أن تكون جامعة للكلمة، مهدية للأمة، حاملة راية الإصلاح. داعية إلى أسباب الفلاح، راجين من علمائها أن يمتثلوا تعاليم كتاب الله، ويستنيروا بسنّة رسول الله. لا هَمَّ لهم إلا نشرُ معالم الدين، واقتفاء سنن المهتدين في سبيل الإصلاح متآزرين، وعلى ما يضمن سعادة البلاد متعاونين. علقنا كل أملنا بالقرويين راجين أن لا يروج فيه إلا ما يعلي كلمة الله. ولا يسعى فيه إلا بما يرضي الله.

المدارس الإسلامية العربية:

ولن تدرك القرويين مبتغاها في الازدهار إلا بعدما يؤتي

الإصلاح المنجز والمنشود ثمراته، وتصبح الكلية آهلة بالطلبة الوافدين إليها سنوياً من كل آفاق البلاد.

وإن أساس عمارة القرويين لهي الكتاتيب القرآنية المنظمة. والمدارس الإسلامية الحرة. والمدارس الرسمية إن أدخلت على برامجها التعديلات المناسبة لرفع مستوى التعليم العربي وجعله في درجة التعليم بالمدارس الإسلامية الحرة والكتاتيب القرآنية المنظمة. فواجب إذاً العنايةُ قدر المستطاع بتكثير المدارس الابتدائية الحرة والرسمية وتنظيم الكتاتيب القرآنية التي ما تزال في فوضاها وذلك في جميع مدن المملكة المغربية وقراها بحيث نرى طلبة العلم يتقاطرون في كل عام على القرويين ويزدحمون على حلقات التدريس فيها ازدحاماً، ولن توقعنا هذه الأمواج في أية أزمة علمية لأننا أمة ما زال يفتك بها الجهل فتكاً ذريعاً. وتخيم الأمية على عقول الكثرة فيها تخيماً. وانتشار التعليم الإسلامي والعربي في الحواضر وانتظامه بكل أرجاء المملكة سهلها وجبلها كفيلان بتحقيق رغبة جلالة الملك في أن يزاح الابتدائي عن القرويين ومدرسة ابن يوسف بمراكش.

المعاهد الدينية:

إن حاجة المغرب في مجال التعليم الثانوي الإسلامي لا يسدها جامع القرويين وابن يوسف وحدهما. بل الواجب العمل على تكثير معاهد التعليم الثانوي الإسلامي بكل ما يستطاع من الوسائل. وذلك تخفيفاً عن القرويين وابن يوسف. وتسهيلاً على طلبة العلم الذين يتحملون مشاق الهجرة وتكاليف الاغتراب في بداية الدراسة. فما أشد رغبة كثير من الطلبة في غير فاس

ومراكش في أن يزاولوا دراستهم الثانوية في مدنهم أو قريباً منها. وأن لا يظلوا مضطرين إلى الهجرة إلى فاس أو مراكش لنيل المبتغى.

وإن أيسر الوسائل لتزويد الطلبة بمراكز التعليم الثانوي الإسلامي لهو تنظيم الدروس العلمية في كبريات المساجد المغربية التي ينبغي أن تصبح معاهد علمية. وتعد للانخراط في سلك النهائي بالقرويين. وبعبارة ينبغي أن تنظم الدراسة الإسلامية العربية في حواضر المغرب تنظيماً عصرياً محكماً لا تبقى معه فوضى وذلك على نسق مدرسة ابن يوسف بمراكش فلا معنى لأن تختص عاصمة الجنوب بهذا دون غيرها من عواصم المملكة كالرباط وسلا، والبيضاء، ومكناس، وجدة. ويمكن إلحاق هذه المعاهد بالقرويين كما هو الشأن اليوم في أخواتها بمصر. فالجامعة الأزهرية ـ كما ورد في المادة الأولى من قانونها ـ هي مجموع المعاهد الدينية العلمية الإسلامية. والغرض منها القيام على حفظ الشريعة الغرّاء. وفهم علومها. ونشرها على وجه يفيد الأمة، وتخريج علماء يوكل إليهم أمر التعاليم الدينية. ويَلُون الوظائف الشرعية من مصالح الأمة ويرشدونها إلى طرق السعادة.

قسم المعلمين:

إن أردنا تدريس العلوم العصرية في معاهدنا الكبرى كنا مضطرين إلى جلب أساتذة أخصائيين من الخارج، أو إرسال بعثات علمية يتخصص أعضاؤها في مختلف العلوم سواء في الشرق أو الغرب، كما فعلت وتفعل الأمم الشرقية الناهضة.

لكن إن بقينا زمناً عالة على الخارج في أمر الأساتذة الأخصائيين فلا ينبغي أن نهمل أكثر مما فعلنا مسألة إعداد المعلمين الأكفاء لتدريس العلوم الدينية والعربية في بلادنا حسب أحدث الأساليب وأجودها. إذ فساد طرق التعليم عندنا هو المشكلة الأولى التي يجب حلها للنهوض بالعلم بين قومنا. وكلنا، وعلى رأسنا جلالة الملك، نشعر بما يقاسيه طلبة العلم من فساد في أساليب التدريس واختلال في مناهج التعليم. وجلالته وهو الناصح المرشد الأمِين لا يألو جهداً في الدعوة إلى إصلاح التعليم بقدر الإمكان والإهابة بالمدرسين ليحسنوا طرقه خدمة للعلم وذويه من ناشئة المغرب. وفي خطابه الشريف بالقرويين أبى جلالته إلا أن يحض العلماء على أن لا يكتفوا بإلقاء الدروس الاعتيادية، بل ينبغي لكل واحد أن لا يزال يجتهد في المطالعة وتحسين طرق التدريس، ويتابع الترقي في أسلوب التعليم غير قانع بما يتيسر عفواً، بل يوجب عليه اختصاصه بفن واحد أن يدأب على البحث والترتيب في كل وسيلة تسهل تبليغ العلم للطلبة، وأن يغتنم كل فرصة تسنح لتهذيب النشء إذ لا غاية كحسن التربية لتنمية المواهب الطبيعية وتطهير الأخلاق الغريزية.

فالعلماء يجب عليهم أن يعتبروا أنفسهم مدرسين ومربين وأخلاقيين، ولا قيمة للعلم إلا بالتربية الفاضلة والعمل الصالح كما يجب عليهم أن يعملوا جهد المستطاع في كل حين لإجابة دعوة ملكهم في مجال تحسين أساليب التدريس ولإسداء النصيحة لطلاب العلم الذين لهم أبناؤهم الروحيون وهم

مسؤولون عنهم، إذ كلكم راعٍ وكلُّ راعٍ مسؤول عن رعيته، أمام الله وضمائرهم وحارس الملة والوطن أمير المؤمنين أيده الله وأعزه.

وإن إلحاح جلالة الملك على العلماء في العناية بترقية مناهج التعليم ليشعرنا بأنه حفظه الله يعلق كبير الآمال على هذا الإصلاح الذي هو أساس في كل إصلاح علمي حاضر وآتٍ، كما يبشرنا بتفكير جلالته في حل هذه المشكلة المعضلة بما يكفل المصلحة في نفع الناس.

وأحسن ما يضمن إصلاح أساليب التعليم ببلادنا إحداث قسم المعلمين بالقرويين خاصة، ويكون الغرض منه:

1 ـ تخريج مدرسين للتعليم الابتدائي. وينخرط في هذا الفرع الطلبة الحاملون لشهادة علمية مناسبة تبرهن على درجة معرفتهم وذلك بعد النجاح في مسابقة علمية.

2 ـ تخريج أساتذة الثانوي والعالي. وينخرط في هذا القسم حاملو شهادة العالمية بعد أداء امتحان المسابقة كذلك.

وأهمّ ما يحب تدريسه للطلبة المعلمين الجدد علم تربية الأطفال الحديث، (بيداغوجيا) ـ فهو أول علم يتعين على المعلمين حذقه والإحاطةُ بجميع أجزائه ليكونوا أهلاً للاضطلاع بأعباء مهنة التدريس والتربية، وليتمكنوا من رعاية الناشئة التي هي وديعة الآباء والأمة بين أيديهم رعاية صالحة موفقة ترضي الله والعلم والأخلاق.

البذل في سبيل العلم:

المدارس:

إن القرويين ما تزال تسعف طلبتها الآفاقيين على الإقامة والمعيشة بفاس لمزاولة العلم، فمدارس سكنى الطلبة ما فتئت قائمة بخدمة هؤلاء الطلبة، وقد تحسنت أحوالها في الأعوام الأخيرة ولا تزال في تطور مستمر وارتقاء دائم لا يسلمها إصلاح إلا إلى غيره، وكل هذا من شأنه أن يشجع كثيراً من الطلبة على الورود إلى القرويين وتعميرها. وعمارة الكلية من أسس ازدهار العلم فيها.

لكن مدارس سكنى الطلبة الموجودة اليوم لا تكفي وحدها لإيواء جميع الوافدين المحتاجين من طلبة المغرب. وحيث كان من المتوقع أن هؤلاء الطلبة يتزايد عددهم في كل عام وذلك بانتشار التعليم في كافة الأنحاء وتحسين التعليم في القرويين نفسها، فالأمل أن يفكِّر أولو الأمر في المسألة قبل حلولها، ويعملوا لتلافي كل عقبة تعترض شبابنا في طريقه. وتقدم العلم مرتبط - في دائرة كبيرة - بهذا الرهط من التسهيلات والمساعدات. ثم إن كثيراً من الطلبة يقعدهم عن مزاولة العلم ما هم عليه من قلة المادة. فهم محتاجون إلى أن تبذل لمستحقيهم المساعدة المالية اللازمة حسب شروط تضمن صرفا في وجوه العلم. فواجب على الأغنياء أن يتضافروا مع ولاة الأمر فيبذلوا كل ما يستطيعون من الأموال لتشجيع الطلبة المعوزين وذلك بتخصيص منح (بورس) تنفق على من يستحقها لمتابعة الدراسة بالقرويين أو للهجرة إلى الشرق العربي من أجل الدراسات

المفقودة الآن بالمغرب، أو التخصص في العلوم التي يرغب فيها الطلبة، ونحن ما نزال مفتقرين إلى الأخذ عن الشرق الذي نشطت فيه النهضة العلمية حتى جارت الأمم الراقية. ومن الصواب أن نستفيد بقدر الإمكان من وسائل النهوض والرقي التي تيسّرت لإخواننا بالمشرق. ووهم وباطل أن نعتقد أننا أعددنا الضروري مما يلزمنا لبعث حياة العلم بيننا، وإننا مستغنون عن التلمذة لمن سبقنا بأشواط، وتقدمنا بمراحل في تنظيم العلم وتوجيهه توجيهاً صالحاً ينفع البلاد ويصلح الأمة. وبهذه المناسبة يحسن التنويه بما وُفق إليه أخيراً بعض الفضلاء من كبار التجار والموسرين بفاس وهو تخصيص مبلغ من المال لإنشاء منحة (بورس) لفائدة طلبة العلم بالقرويين.

وهذا الصنيع المبرور إنما هو باكورة نرجو أن تعقبها أعمال ومشاريع من جنسها لفائدة الطلبة الذين هم زهرة الشباب. وبهم يناط أمل البلاد، فما أحق الأغنياء المغاربة كافة بأن يقتدوا بمثال هؤلاء الرجال الذين بمثلهم ينصر العلم وتفتخر الأمة. فإنكم ـ أيها الأغنياء ـ أهل لأن تجاروا هؤلاء الأجواد الذين هم في الحقيقة أنصار الواجب الأقدس. فابذلوا كل ما تستطيعون. وإنكم لتستطيعون كثيراً. واغنموا فرص الخير في الدنيا إيقاناً منكم أن أعمال المؤمنين ذخائر عند الله وانشطوا لخدمة العلم الشريف وأهله تفوزوا عند الأمة وعند أمير المؤمنين فوزاً كبيراً.

فما عرفنا أمة ناهضة اعتمدت في سيرها إلى الأمام على ولاة أمرها دون غيرهم من رجال الثروة الذين رزقهم الله ما يعضدون به المشاريع العامة ويؤازرون به رجال الإصلاح. ويسعفون به

مشروعات العلم، يسيرون بالأمة في سبيل رشدها سيراً موفقاً حثيثاً.

خزانة القرويين:

قد نظمت هذه الخزانة تنظيماً انتشلها من الخراب والتلف. وحفظ من الدثور ذلك التراث العلمي القيم الذي سيبقى شاهداً بما كان للمغرب عامة ولفاس خاصة من مجد علمي أثيل.

أصبحت الخزانة المنظمة تحيى حياة مليئة بالنشاط المتزايد. ولكنها ما تزال مفتقرة إلى جهود عظيمة توفر ذخائرها. وتزيد في كنوزها بما يجعل هذه الخزانة العلمية وافية بجميع رغائب طلاب المعرفة من أبناء القرويين وجمهرة المثقفين المغاربة. وفي هذا من تأييد الحركة العلمية وتثبيت معالم العرفان في بلادنا ما يدركه كل واحد.

فخزانة القرويين مجال فسيح لخدمة العلم من ذوي الثراء. فلهؤلاء مثلاً إن وفقهم الله أن يقدموا إليها ما يشاؤون من الكتب القديمة والحديثة، ولهم كذلك أن يهدوا إليها مجموعات من المجلات العربية المهمة التي تعتبر سجلات قيمة لنهضة العلم في عالم الإسلام. وتعد مراجع هامة للباحثين المنقبين. وفي مكنة ذوي اليسار زيادة أن يؤسسوا بالخزانة فروعاً خاصة بعلوم تكون محتوية على أشهر وأفيد الكتب في كل واحد من هذه العلوم.

وباختصار للأغنياء - إن ألهمهم الله - أن يجهزوا خزانة القرويين بكل ما يرونه ضرورياً مما يزيد في ثروتها العلمية،

ويخولها الوسائل الصالحة للقيام في مهمتها التثقيفية في الأمة.

الحياة الفكرية:

ينبغي أن لا تبقى القرويين مجرد معهد لتخريج حاملي الشهادات والألقاب وإعداد المرشحين للوظائف التي تؤهل إليها الشهادة النهائية، فالشهادة إن دلت على مرحلة الدراسة وأشارت إلى درجة العلم المدرسي المحصل، فلا يصح أن تكون حتماً برهاناً على الثقافة العامة والملكة العلمية عند حامليها، إذ الفوز في الامتحان شيء، وشيء غيره ثقافة العقل وملكة العلم، فقد يثقف العقل ثقافة صحيحة، وتحصل ملكة العلم حقاً أثناء الدراسة. وقد يفوز الطالب في امتحانه وهو عار عن الثقافة الحقيقية. وفاقد لكل ملكة علمية. لأن النجاح في الامتحان كثيراً ما يضمن ملكة الحفظ وهي غير ملكة العلم. والقرويين التي ما تزال أساليب التدريس فيها عتيقة تحتاج إلى كثير من التعديل والإصلاح هي في حاجة ماسة إلى أن تمهد لها الوسائل وتوفر لها الشروط اللازمة للزيادة في تدريب طلبتها على الملكة العلمية وتمكينهم من أسباب وفرص جديدة للتثقيف العام. فبهذا يتسنى للطالب القروي أن يظفر بما فاته أو يفوته في أطوار الدراسة من اتساع المعرفة وجودة الملكة وإنماء المواهب. والتعليم المدرسي ليس هو العلم كله، وإنما هو قسط من العلم يجهز به عقل الطالب كوسيلة لا غاية. ومن البديهي أن لا نهاية للعلم. فكل شهادة نهائية لا يبلغ بها العلم مداه. وقد أُمرنا أن نطلب العلم من المهد إلى اللحد. فالعلم يمتد كالفضاء يعرج فيه الإنسان دون أن يجد ما يلقي فيه مراسيه. وفوق كل ذي علم عليم.

وحيث كان العلم درجات لا حصر لها أبداً فهو لا يرتقي في سلم الكمال إلا باجتياز دائرة البرامج المحددة والتحرر من مواد الدراسة أحياناً للتحليق في أجواء الحياة الفكرية التي بها قوام العلم والتي يجد فيها العقل متعته. ومن منابعها ينهل العذب السلسبيل.

وكل معهد علمي جدير بهذا الاسم لا يكون التعليم فيه مقصوراً على مواد البرنامج المقرر، بل يكون مؤيداً بنشاط فكري متناسب ومصحوباً بحركة تثقيفية تهذيبية حرة تزيد الطلبة إحاطة بعلمهم وتنمية لمداركهم وتهذيباً لنفوسهم. وإن الحياة الفكرية التي يحياها الطلبة في بيئتهم العلمية لهي التي تمدهم بكثير من أسباب الثقافة العامة. وبهذا يكتسب الفكر رحابة ومرونة واقتداراً. ويتذوق ألذ ثمرات الحكمة والعرفان. ولا تخلو المعاهد الراقية من حياة فكرية غزيرة ينعم بها الطلاب وتحبب إليهم العلم وتغمرهم بجلاله وروعته.

وكل واحد منا قضى قسطاً من دراسته في أحد معاهد العلم الزاهرة يتذكر بلذة يُداخلها اشتياق ذلك المكان الذي يزخر بالحياة الفكرية الجامعية والذي هو ردهة المحاضرات. وكثيراً ما تطفح بروح المعرفة. وذلك كلما غصت بجماهير الطلاب والأساتذة والمستمعين. وتدفقت من منصة الخطابة جداول الأحاديث والمحاورات في شتى العلوم والفنون ومختلف الموضوعات التي تغني الطلبة وجمهور المثقفين.

والقرويين وهي معهد علمي في طور التجديد والتنظيم والرقي تحتاج إلى أن تؤسس بها ردهة تكون مقراً لحياة فكرية جديرة لا

غنى عنها لكي يخرج الطلبة من طور الدراسة الجافة إلى جو الثقافة العامة الحية. فيوم تملك القرويين ردهتها ـ كما تملكها جميع المدارس الثانوية والمعاهد العالية بالمغرب ـ وتنظم فيها كل عام سلسلة محاضرات يتولاها الأساتذة والطلبة والمثقفون عامة تقبل على حياة لا عهد لها بها من قبل. وتظهر فيها النهضة جلية قوية، فتصير مركزاً عظيماً لا للتعليم فقط، بل للتثقيف العام والتهذيب الحي. ومن المتوقع ـ إن أنشئت ردهة المحاضرات بالقرويين ونشطت في أعمالها ـ أن تنبعث همم العلماء والباحثين في المغرب ويتحفزوا للعمل لتغذية الحياة الفكرية الجديدة وذلك بما يلقونه من المسامرات والأحاديث التي تفيد طلاب العلم وإحياء المعرفة. فإن تحقق هذا الأمل ومن الله نرجو التوفيق ومن جلالة الملك العمل للتحقيق أصبح تأثير القرويين عاماً شاملاً. فكم من نفوس تتحرك وأقلام تنهض وألسنة تنطلق، وكم ترتبط من أواصر الالفة والمحبة بين أبناء القرويين وجمهرة المفكرين في كافة الأنحاء.

وباختصار فالقرويين تتمكن بذلك من أن تخدم نهضة العلم داخلها وخارجها خدمات جليلة يتحقق بها الأمل العظيم الذي يعلنه أمير المؤمنين والأمة جمعاء على الجامع التاريخي الجليل في توحيد الكلمة وإعزاز الملة وإعلاء كلمة الله.

حياة الطلبة:

القرويين هي المعهد الوحيد في المغرب الذي يعدم نظاماً يجمع شمل طلبته ويضبط حياتهم داخل الكلية. فهذه المدارس الثانوية بفاس والرباط ومراكش وآزرو، وهذه مدارس أبناء الأعيان

في البيضاء وسلا ومكناس لها جمعيات منظمة ساهرة على خدمة المتعلمين من القدماء والتلاميذ. وإن بعض هذه الجمعيات ليقوم بخدمات علمية تستحق الذكر والتنويه. ولهذه الجمعيات أنديتها وخزائنها كما هو جدير بالهيئات التي من جنسها.

ولنذكر نبذة من أعمال بعض الجمعيات المتحدث عنها.

فجمعية قدماء المدرسة الثانوية الإدريسية بفاس قد عطف عليها جلالة الملك فأصدر الأمر منذ سنوات بمنح الجمعية صفة وامتياز جمعية ذات مصلحة عامة. وهذا قد مكنها من قبول كل ما تجود به أريحية الكرام من التبرعات والهبات استطاعت بسببها أن تبذل للطلبة ما يلزمهم في حياتهم المدرسية، فقد منحت إعانات ومنحاً شهرية للمحتاجين واليتامى من تلاميذ المدارس الفاسية وقامت بتوزيع اللباس عليهم كلما سنحت بذلك الفرصة. وكثير من الشباب يتعلمون على نفقتها الطب والصنائع والفنون في المغرب وفرنسا والجزائر. زد على هذا أنها تخدم العلم والأدب بما تنظمه سنوياً من المحاضرات باللغتين العربية والفرنسية وبما تسعى إليه لدى المراجع المختصة ترقية لسير التعليم ودفاعاً عن حق الطلبة. ولهذه الجمعية دور معنوي يتجلى فيما تسديه من النصائح والإرشادات لآباء الطلبة.

والقرويين ـ ومثلها مدرسة ابن يوسف ـ لا تزال فاقدة لمثل هذا الامتياز الذي لا جدال في أن نيله أصبح اليوم ضرورياً ليفارق الطلبة حياة الفوضى إلى حياة النظام فهم الآن في حاجة إلى جمعية تعمل في نطاق القرويين وابن يوسف ما تعمل أخواتهما في مجال المدارس الرسمية فتربط الإلفة بين الطلبة وتدأب

لتوسيع دائرة معارفهم العامة فيما تتوفق إليه من نشاط فكري ومشاريع أدبية لفائدة الشباب وتبذل وسائل التشجيع لكل محتاج من التلامذة. وتمثل الطلبة فتكون لسانهم الناطق لدى الهيئات العلمية المختصة. وتعني بصحة فتيان المعهد العناية المطلوبة. والطالب القروي يفتقر إلى أن يتربى تربية جسمية قوية إذ العقل السليم في الجسم السليم كما في القول المشهور.

فالطلبة إن انتظموا استطاعوا أن يخدموا أغراض المعهد بما يملكون من إخلاص وقوة ونشاط. وتمكنوا خاصة من خلق ما ينقص الكلية من «جو الطلبة» الذي لا تزدهر الحياة المدرسية إلا به، ولا تتجلى الحيوية على المعهد بدونه. وهل يعقل أن تنشأ وتنشط حياة فكرية في الكلية دون أن يكون الطلبة العنصر الفعّال في وجودها ورعايتها وكل عمل لا يكون مخصباً إلا إذا كان مدبراً محكماً.

وحيث إن طلبة القرويين قلما يتصلون بأساتذتهم في غير حلقات الدروس التي يخيم عليها عادة السكون والوقار ما يحاذي الزماته أو يكاد، فإن من شأن جمعية الطلبة المرجو إحداثها أن تتيح الفرص والمناسبات لكل من الأساتذة وتلاميذهم كي يتقاربوا ويتعارفوا ويتحادثوا ويتفاهموا. وهذه مسألة مهمة من حيث تطور الأفكار بالقرويين وتحقيق أماني أمير المؤمنين التي أعلنها يوم نصح الطلبة أن يفعموا قلوبهم بمحبة أساتذتهم وتنظيمهم، وتحسين ظنهم بهم. فإنهم مهذّبو أرواحهم والمجددون لتيسير فلاحهم. وليعلموا أن رابطة المحبة بين الأساتذة والطلاب من أحسن وسائل التحصيل وأنفع الأسباب.

إننا نطمئن على مستقبل القرويين لأن مصيرها بيد قوية حكيمة هي يد جلالة الملك الذي ما فتىء منذ سنوات يدأب في جهاده من أجل ربح المعركة القائمة على ضلال الجهل وطغيان الأمية، وزعانف القهقرة بالمغرب.

ومنذ صرف الملك عنايته للقرويين حل فيها النظام محل الفوضى وأخذ الإصلاح والرقي يغزوان عناصر الفساد والجمود. فالقرويين في تطور مستمر. وجلالة الملك لا يألو جهداً في تجديد سؤددها بتحسين الموجود. وإنشاء المفقود بادئاً بالأهم قبل المهم من الإصلاحات التي تستلزم نهضة العلم في كلية المغرب الإسلامية. لقد قدم الملك العزيز للأمة عامة وللشباب خاصة البراهين تلو البراهين على أن القرويين هي في طليعة ما يهتم به جنابه العالي من المشاريع العلمية القومية. ألم يعلن جلالته يوماً في مشهد تاريخي عظيم: أنا ما جئت لفاس إلاَّ من أجل القرويين؟ ألم يُذكِّر العلماء في الجهود التي بذلها لتذليل الصعاب وتمهيد السبل لترقية العلم وأهله راجياً أن يكون قد بلغ بذلك المرام، وتيسرت وسائل التقدم إلى الأمام. لكن جلالته وقتما علم أن جهوده المشكورة لم تقابل من بعضهم بما تستحقه من التقدير والتأييد وأن الشقاق ما يزال ضارباً أطنابه والتخالف في أمر الإصلاح ماداً أسبابه غضب غضبة مضرية وانتصب كالأسد صارخاً في أوجه من يعنيهم: احذروا أن يسجل عليكم التاريخ أنكم كنتم عائق الإصلاح، والحائل دون تيسير أسباب الفلاح. ولقد جمعناكم بأعتابنا الشريفة ليبين كل دعوته ويشرح حجته. فما كان صلاحاً اتبعناه. وما كان هلاكاً اجتنبناه. ولا نزال بحول

الله دائبين على الجد وراء مصلحة العباد، حتى نقضي على أسباب الفساد. من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد. عاهدنا الله على أن لا نجد مصلحة إلا اتبعناها. ولا نعلم وسيلة خير إلا اتخذناها. بهذا القول الصريح البليغ الحكيم أعلن الملك استياءه من كل معارضة تعمل عن شعور أو غير شعور لتثبيط سير الإصلاح وعرقلة رقي العلم الذي به الحياة والعزة للمغرب وأمته.

وقد تنازل أمير المؤمنين كل التنازل وأعطى الشورى الواجبة عقلاً وشرعاً كامل حقها، وأنصف إنصاف الحكم العادل عندما جاهر مطالباً كل معارض ظاهر ومستتر صريح أو خافت إلى الإعراب عن دعوته والإدلاء بحجته، فما تبين أنه حق وصواب عمل به، وما وضح أنه باطل ضرب به عرض الحائط، لأنه لا يمكن بحال أن تشقى أمة بغواية أفراد، ويضيع شباب الوطن بجمود أنفار. وإن الله عزّ وجلّ لم يرسل محمداً عليه الصلاة والسلام إلا لِيمكِّن للمؤمنين في الأرض ويجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين. كان في استطاعة الملك المحبوب أن يضرب صفحاً في البداية عن كل معارض وجامد. ولكنه إن تنازل مؤقتاً مع رهط المعارضة فلكي يسمع دعواهم شأن المصلح الحكيم والقاضي العادل الذي يسمع من الخصمين. ولكي يقيم خاصة على خصوم الإصلاح الحجة ظاهرة دامغة أمام الله وأمام الأمة والتاريخ. وهذا التواضع والتساهل من جلالة الملك لا ينبغي أن يفهما على غير وجههما، فالملك أيده الله لا يخشى في الله لومة لائم، وقد كسر شرة كل مفسد، وأنذر صراحة كل معاند، يؤكد

أنه لا يني في الجد وراء الصالح العام والأنوفُ راغمة إلى أن يحق الحق ويزهق الباطل ويحطم كل سبب للفساد بين المؤمنين.

ومنذ اتخذ جلالة الملك هذا الموقف الصريح الحاسم قويت الآمال وتبددت مخاوف كانت تساور بعض الأحلام. وقد نفذت مشيئة الله وإرادة الملك، وجرى الإصلاح أشواطاً تتلوها أشواط فجاءت الأعمال تؤيد الأقوال. وبررت المشاريع كل الآمال وغدا الإصلاح خير ناطق يفصح عن الوفاء بالعهد المقطوع للأمة والشباب. وسُقط في يد صف القهقرة فتحقق أن الحق يعلو ولا يعلى عليه، وأن الفوز للحياة والظفر للمستقبل.

فإلى الأمام دائماً إلى الأمام تحت راية الملك الإمام!

عود على بدء نهضة العلم بالقرويين

بعد تسليم مقالنا «نهضة العلم بالقرويين» إلى مجلة الثقافة بزمن يسير حدث حادثان حملانا على أن نجعل لهذا المقال ذيلاً. أما الحادث الأول هو خطبة سمو ولي العهد في حفلة تدشين مدرسة الأمير مولاي عبد الله بالدار البيضاء، شعبان 1362 بمحضر جلالة الملك المحبوب.

ففي هذه الخطبة القيمة التي نعتبرها بحق ترجماناً صادقاً عن آراء الجناب الشريف فيما يخص العلم ومستقبل الأمة المغربية الناهضة نلفي تصريحات خطيرة ونظريات صائبة وحقائق بديهية تزيدنا اقتناعاً بما أبديناه من الأفكار والمقترحات في مقال نهضة العلم بالقرويين. وتضاعف تفاؤلنا بسير الإصلاح المنشود. وتبرر ارتياحنا للأمر العازم الذي يأخذ به جلالة الملك في تحقيق نهضة الأمة نهضة راسخة موفقة.

من أهم ما لفت نظرنا قول الأمير الجليل: «العلم أساس كل نهوض ولا حياة للأمة بدون علم فإنَّ التقدم المادي والمعنوي ينبني دائماً على أسس الحقائق العلمية. وإذا قلنا علم فإننا لا نعني به شطراً من المعرفة دون شطر أو فناً دون فن. وإنما

مقصودنا كل أنواع العلوم والفنون. ولا يمكن أن يقال: إننا في حاجة إلى العلم الفلاني أكثر من حاجتنا إلى غيره، فإن هذا غلط خصوصاً عند أمة مثل أمتنا المغربية التي أتى عليها حين من الدهر وهي غارقة في سبات الجهل والجمود. لم تحافظ من العلوم إلا على قشورها ونبذت تعاليم الإسلام ظهرياً. فأهملت كل ما من شأنه أن ينفعها في دنياها ومآلها. وقد أهاب بها اليوم ملكها الساعي في خيرها إلى أن تقبل على استرجاع مجدها الغابر باقتناء العلوم التي تفسر لها سبل الرقي والنجاح. وقد أوضح سمو الأمير أن المغرب في حاجة إلى الأطباء والمهندسين والأساتذة كما هو في حاجة إلى الفقهاء، والأدباء».

كل هذه الصراحة إن هي إلا صراحة المصلح الذي يجسم حقيقة الفساد ويخبر بسبب الشقاء ويرتاد الخير من طريقه الرحب. وينطبق على نظر الجلالة الشريفة ما قلناه من أن أمتنا في نهضتها الراهنة تشتد حاجتها إلى الرجال الأكفاء الممتازين في كل علم وفن من العلوم والفنون العصرية، كما هي في مسيس الحاجة إلى ذوي المقدرة والأهلية من علماء الدين والشريعة وحملة الأقلام. ولهذا وجب إعداد الأمة على بكرة أبيها بما يلزم نهضتنا العامة من المدارس الراقية التي تكفل تخريج الفريقين من العلماء الأكفاء حقاً. ولئن كانت بعض مدارسنا الحديثة تؤهل شبابنا المتعلم لمزاولة الدارسة العالية بمختلف الكليات الأجنبية، فلا يجمل بنا أن نبقى دائماً في تعليمنا النهائي الحديث عالة على الخارج. فالمصلحة القومية تقضي بأن يجعل هذا التعليم بأنواعه في متناول معظم الشباب المغربي بالمغرب نفسه. وتجهيز الأمة بما

هو ضروري لحياتها العلمية ورقيها العام من آكد الواجبات، وهو لا يتنافى مع خروج فريق من شبابنا هم بلا شك أقلية للتعلم بالبلاد الأجنبية كما أن الاستفادة من معاهد العلم بالخارج لا تغني عن تنظيم التعليم العالي بين قومنا تنظيماً محكماً راقياً. فلا يسوغ بحال أن تتقاصر أمة عمداً عن تدبير شؤونها لمجرد اتكالها على الغير. بل واجب عليها أن تتخذه قدْوة حسنة فلا تستفيد إلا بقدر ما يمكنها أن تفيد. وهكذا كان أمرنا فيما مضى. ولكن لا يحق لنا أن نفاخر بما كان إن لم نعمل نحن ما يرضي الله والواجب.

وهناك تصريح آخر للأمير المحبوب لا يقل عن الأول أهمية وخطورة، وهو يجب أن ترتكز كل الدراسات كيفما كان أمرها على أساس اللغة العربية إذ بالمحافظة عليها نحافظ على كل مقوماتنا ومميزاتنا الخاصة.

وهذا عين ما قلناه في مقالنا وهو لزوم تعديل برنامج الدراسة الإسلامية العربية بالمدارس الرسمية لتظفر بحقها الضائع وتتبوأ العربية في تعليم ناشئتنا المنزلة الرفيعة الجديرة بها بصفتها لغةالدين والأمة والدولة الشريفة. ويندرج في هذا أيضاً ما كتبناه من أنه يجب تعليم العلوم العصرية باللغة العربية إما في القرويين بعد إنجاز الإصلاح اللازم. وإما في جامعة مغربية جديدة. وذلك ليتمكن شبابنا المتعلم بالعربية من العلوم الحديثة التي يحتاج إليها ليكون شباباً مثقفاً حقاً وليصبح عمدة البلاد في مستقبلها. وإذا علمنا أن معظم الشباب المغربي المتعلم لا يعرف سوى العربية قدرنا بسهولة جسامة القصور العلمي الذي يفدح الأمة في ناشئتها، وأدركنا عظم الخسارة التي تنال بلادنا من جراء التقصير

المتحدث عنه. فتدريس العلوم والفنون العصرية باللغة العربية يزيح عنا كل قصور مضر ويجعل حداً ينتهي به ما يتكبده الشباب من وهن وخسران، ويحقق الصفة العلمية بين الناشئة المغربية التي حقها في العلم سواء والتي يجب أن لا تَبقى صنفين متباينين في الثقافة، إذ في استمرار هذا من خلل النهضة وسوء المآل ما لا يعزب عن كل فكر. ونثبت عقب هذا الذيل نصيحة ثمينة نتوجه بها إلى شباب المغرب الحي وهي قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلموا السنن والفرائض واللّحن «اللغة» كما تتعلمون القرآن. وقوله أيضاً: تعلموا العربية فإنها تثبت العقول وتزيد في المروءة.

وأما الحادث الثاني فهو اجتماع المجلس العلمي الأعلى للقرويين والمعاهد الدينية تحت رئاسة جلالة الملك، وذلك في شهر ذي القعدة عام 1362. ففي هذا الاجتماع أثيرت مسائل واتخذت قرارات لها علاقة ببعض القضايا التي عالجناها في مقالنا «نهضة العلم بالقرويين» مما طالبنا به من تكثير معاهد التعليم العربي الإسلامي في مختلف المدن المغربية، وذلك بتنظيم الدراسة في كبريات المساجد فيها حتى تصبح معاهد تامة ملحقة بالقرويين. وفعلاً أنهى المجلس العلمي الأعلى تنظيم التعليم الإسلامي بمكناس في الاجتماع المتحدث عنه سابقاً فظفرت العاصمة الإسماعيلية بما كان يعوزها في مجال التعليم المنظم وهذا الإصلاح يجعلنا نؤمل قوياً أن المدن المغربية الأخرى ستفوز في مستقبل قريب بما تحتاج إليه من الأنظمة العلمية الحديثة.

أما ما يرجع لقسم المعلمين الذي اقترحنا إنشاءه بالقرويين فمسألة الفتح أدرجها المجلس كذلك في سياق مناقشاته التي أسفرت عن ضرورة إنجاز هذا الإصلاح لتخريج المعلمين الذين يستلزمهم نشر التعليم بالمملكة المغربية.

ومما لفتنا إليه أنظار ذوي الثراء في بلادنا وجوب تنشيط الحركة العلمية الفتية ببذل الأموال وأنواع المساعدات لمعاهد العلم وطلبتها المستحقين ونوهنا بما وُفق إليه بعض الموسرين المحسنين بفاس وهو تخصيص مبلغ من المال لإعانة الطالب القروي. وقد عرض هذا المشروع على المجلس العلمي فأمر جلالة الملك بشكر أولئك المتبرعين. وبهذه المناسبة اقترح بعضهم على المجلس تأسيس صندوق لإعانة الطالب القروي وذلك بفتح اكتتاب عام يبدؤه جلالة الملك ورجال المخزن فحبذ الملك هذا الاقتراح، ولكن أمر أن يكون هذا الصندوق عاماً لفائدة طلبة جميع المعاهد الإسلامية المغربية. ومما يجدر التنويه به المدرسة القرآنية التي أسسها بعض المحسنين في مراكش فحبس من أجل هذا داراً مع ربع يخصص ريعه للانفاق عليها. وقد أبلغ هذا المحسن الجناب الشريف بأنه مستعد لتأسيس مدرسة أخرى على نسق الأولى، فأمر جلالته بشكره ومساعدته في إنجاز هذا الصنيع المبرور. فهذان مشروعان يرتاح لهما قلب كل مخلص. ويدلان على أن روح النهضة قد أخذت تسري في نفوس ذوي الثراء من المغاربة. وأن الأمة أصبحت تجني أطيب الثمرات التي تغلها أريحية ذوي الإحْسَان لكن هؤلاء بكل أسف ما زالوا عندنا قلة. وحبذا لو اتخذت وزارة المعارف وسائل فعّالة

تستفز بها أريحية الموسرين وتطلق بها أياديهم للبذل في سبيل العلم وأهله لأن المتمولين قلما يبذلون من تلقاء أنفسهم فيما لا ينفعهم مادياً، فلا بدّ إذن من محرك يحركهم ودافع يحفزهم للعمل في سبيل الصالح العام. ومن الوسائل التي من شأنها أن تبعث الأغنياء على البذل في سبيل المشاريع العامة تعريفهم عن طرق الإذاعة والنشر بما يوفق إليه أمثالهم في باب الإصلاح والمنفعة المشتركة. فبهذه الوسيلة ينشطون للقدوة ويتنافسون في مجال النهضة والإصلاح. على أن هذه الوسيلة لا تجدي وحدها فلا بدّ من تعزيزها بوسائل أخرى تكون أنفع وأجدى كأن توجه وزارة المعارف إلى كافة الموسرين النداء تلو النداء أو تفتح اكتتابات عامة تستدعي لها عامة الأغنياء. وينبغي أن يكون هذا العمل بمثابة جهاد منظم متواصل تغزو به الوزارة عالم الأموال وتفتح به قلوب أصحابها حتى يبذلوا طوعاً أو كرهاً ويشاركوا بنصيبهم في نهضة العلم ورقي الأمة.

انتهى

أبو الفوارس

العربية في ماضي المغرب وحاضره
مقدمة

هذا أول بحث نشر بالعربية في المغرب عن هذا الموضوع الخطير الذي هو تاريخ حركة الاستعراب وبيان نشأة الخريطة اللغوية المغربية في مختلف العصور والبيئات والطبقات. وكاتب البحث هو الأستاذ المستعرب م. جورج كولان أحد الاختصاصيين في دراسة اللهجات العربية المغربية. وليس هذا البحث هو كل ما أنتجته دراسته العلمية الطويلة، بل له أبحاث متفرقة نشرت في مجلة Hespéris وغيرها من المجلات العلمية الفرنسية وكلها تدل على ما بذله الأستاذ المذكور من المساعي في سبيل معرفة تاريخ العربية الدارجة المغربية وبيان التطورات التي طرأت عليها في مختلف الأزمنة إلى يومنا هذا. لم يوفق الأستاذ وغيره إلى ذلك إلا جزئياً لأن المواد اللازمة تعوز الباحث في هذا المجال إعوازاً كبيراً بالرغم عن العناية المتوجهة هنا وهناك إلى الكشف عنها في خفايا التاريخ وخبايا المكاتب. وكل ما كان في يد الباحث أول الأمر معجم القاموس العربي للأسير مويط ـ Mouëtte المسمى (Dictionnaire arabesque) وهو بالرغم عن فقره اللغوي المصدر الوحيد الذي استقى منه علماء اللغة من

المستشرقين في البداية طائفة من المعلومات عن العربية الدارجة المغربية في القرن السابع عشر. وفي سنة 1930 عثر دوسنيفال (De Cénival) بلشبونة عاصمة البرتغال على عدد من الرسائل المغربية يرجع تاريخها إلى القرن السادس عشر. وفي سنة 1928 نشر م. ليفي بروفنسال ـ مدير معهد الدراسات العليا المغربية ـ ثلاث وثائق تاريخية عن العصر الموحدي مع ترجمتها الفرنسية ويقول م. كولان أن هذه الوثائق بالرغم عن عربيتها الفصحى متأثرة قوية التأثر باللهجة الدارجة. وهـذا ما سمـح للأستـاذ المذكور بأن يستمد منها طائفة من الوقائع اللغوية مكنته من محاولة بحث يكون ـ كما قال ـ مبعث دراسة تاريخية للهجات المغربية. وقد نشر نتيجة هذا البحث عن العربية المغربية في العصر الموحدي في مجلة Hespéris سنة 1930.

هذا من الوجهة التاريخية. أما فيما يخص المغربية الحاضرة فقد توفرت فيها المادة لأنها استقتـه من مصدرها الكبير الذي هو الشعب المغربي. ونذكر من بين الكتب التي ظهرت مجموعات: وليام مارسي عن لهجة طنجة، وليفي بروفنسال عن لهجة ورغة، وكولان عن لهجة شمال تازة ـ وبرينو عن لهجة الرباط.

ونحن لم نقدم على تعريب بحث م. كـولان إلا لأسباب جوهرية ثلاثة، هي شخصية الباحث العلمية، وعلاقة البحث بإحدى مشخصاتنا القومية، وإثارته لمسألة الأداة الثقافية المغربية في طور نهضتنا الحاضرة.

ولا يفوتنا أن نقول هنا إننا نقدر شخصية الكاتب العلمية حق

قدرها وإن كنا لا نعتبر أن كل ما يقرره في موضوع العربية المغربية ماضياً وحاضراً هو الكلمة الأولى والأخيرة. فالعلم كما قال بعضهم لا يعرف الكلمة الأخيرة في مسألة من مسائله، وإنما حقائقه كلها إضافية موقوتة لها قيمتها حتى يكشف البحث ما يزيل هذه القيمة أو يغيرها. (فجر الإسلام مقدمة ص. م.) وبعبارة أخرى لا نعتبر بأن كل ما وصل إليه في محاولاته الدراسية يصح أن يكون فصل الخطاب في المسألة التي ما تزال تشتمل على غوامض كثيرة وتسترعي عناية الباحثين لا من الأوربيين فحسب بل حتى من المغاربة أنفسهم ومن المغاربة أصحاب اللغة قبل الأجانب على الإطلاق فالمجال إذاً واسع أمام جميع الباحثين ولا يضيق عن أية طائفة منهم وإن ضاق عن أحد فلا يضيق عن أهل اللغة الذين هم أولى بالاهتمام بها من سواهم وأخلق أن يكونوا بها أعلم وفيها أبصر، وبهذه المناسبة نبدي أسفنا على «عدم» اهتمام الباحثين منا بما اشتدت به عناية الباحثين من الأوربيين في مسألة هي أمس بنا رَحِماً، وأوشج بنا قرابة، ونحن أحق بها وأهلها وأجدر أن لا يعرفها غيرنا أكثر منا. ولا يُعقل لهذا من سبب إلا التهاون وعدم المبالاة. ولا يصح أن يكون استمساكنا بالعربية الفصحى لغة الدين والملة هو الذي حدانا على اهتجار النظر في أمر اللغة الدارجة التي إنما هي عربية محرفة. ويوم كان السلف العربي يُعنَى بالعلم عنايته بالواجب لم يتورع قط عن التوفر على ما اعترى العربية في ألسنة الشعوب الناطقة بها من التحولات والتطورات وقد خلف لنا النحاة واللغويون العرب أدباً جماً وذلك بما وضعوه من التآليف القيمة

في «**لحن العامة**» «**أو خطأ العوام**». وهذا يكون فرعاً مهماً في علم اللغة العربية. ومن مشاهيره الأعلام الكسائي وابن قتيبة والحريري والجواليقي والخفاجي هـذا في المشرق، أمـا في المغرب فقد كتب في هذا الموضوع قديماً العلاّمة النحوي أبو عبد الله محمد بن أحمد بـن هشام بن إبراهيم بن خلف اللخمي السبتي. ونذكر هنا ما أشار إليه م. كولان .(Hésperis T 12 1931 F.I p. 1 et S) من أن كتاب الزبيري الأندلسي هو أول ما وضع في «لحن العامة» وذلك في القرن العاشر (الرابع)، ثم ألف ابن مكي القرطبي في النصف الأول من القرن الثاني عشر (السادس) كتاب تثقيف اللسان وتلقيح الجنان. وفي النصف الثاني من القرن المذكور تناول ابن هشام السبتي الكتابين السابقين بالتنقيح والـزيادة. وفي سنـة 1210 م تولى تلميـذان إخراج مـا حرره أستاذهما ابن هشام وأطلقا عليه اسم كتاب المدخل في تقويم اللسان. وفي النصف الأول من القرن الرابع عشر القرن الثامن قام محمد بن علي بن هاني اللخمي السبتي بترتيب تعاليق ابن هشام ونشرها تحت اسم إنشاد الضوال وإرشاد السوال. وفي النصف الثاني من القرن المذكور اختصر هذا الكتاب أبو جعفر أحمد بن علي بن محمد بـن خاتمة الأنصاري الأندلسي وسماه إيراد البال من إنشاد الضوال. وفي عصر مجهول اختصر هذا الكتاب على يد رجل غير معروف. وقد نشر م. كولان هذا المختصر في مجلة Hespéris سنة 1931. ويذهب الناشر في المقدمة الفرنسية التي صدر بها المختصر المذكور إلى أنه بالرغم عن كون ابن هشام السبتي هو الذي جمع مواد الكتاب الأصلي لا

يصح القول بأن ما تضمنه من المسائل اللغوية يخص المغرب في ذلك العصر، فمعظم ملاحظات ابن هشام ترجع إلى مسائل لغوية دقيقة في بعض لهجات المغرب والأندلس العربية. غير أنه من المحتمل ـ كما قال ـ أن العربية المغربية كانت قبل نزول عرب بني هلال بالمغرب سنة 1188 شبيهة شديد الشبه بالعربية الأندلسية وذلك في المدن الشمالية وما جاورها من القبائل. وهذا الاحتمال يسمح باعتبار أكثر ما حرره ابن هشام من الملاحظات في شأن لهجة سبتة تنطبق كذلك على مسائل في اللغة الأندلسية. ا. هـ. فنرى من هذا أنه وجد في علمائنا القدماء مَنْ صَرَفَ عنايتَه إلى دراسة اللهجة العربية المغربية. وفي العصر الحاضر نذكر أن السيد أحمد بن محمد الصبيحي السلوي قدم إلى المؤتمر الثامن لمعهد الدراسات العليا المغربية وذلك في أبريل سنة 1933. بياناً عن فصيح جمهرة من الألفاظ المغربية ثم صرح في مقدمة كتابه «المقتطف اليانع من روض الحديث الجامع» الذي طبع بالقاهرة سنة 1353 هـ بعزمه على إصدار كتاب في لحن العامة سالكاً في هذا مسلك «اللغويين السابقين» الذين دونوا في هذا الموضوع. ولكن هذا جانب فقط من علم اللغات. وليس هو كل ما يسمى في الاصطلاح الحديث بـ (linquistique) أو (dialoctologie) وكلاهما يعبر عن علم جديد له قواعده ومناهجه فهو لا يعتني بألفاظ المعجم فحسب بل يهتم أيضاً بأساليب النطق والإعراب والتركيب وأنواع المقارنات والمجانسات النحوية واللغوية الخ، فلماذا يعنى الباحث منا «بلحن العامة» مجرداً ولا يتعدى هذا إلى إعمال النظر في

اللهجة العامية كلها على نسق علماء اللهجات الأوروبيين. فهذه ناحية من البحث العلمي القومي التي ما تزال بكراً والتي تحتاج إلى أن يتوجه لها مِنا مَن يأنس مِن نفسه القدرة والكفاية. ونحن إذ نهيب بالباحثين إلى العناية باللغة المغربية لا نفكر أصلاً فيما عرف «بتمصير اللغة»، فإنا من ألد أعداء هذه الفكرة الباطلة التي نحاربها باسم الدين والعروبة، وهما أعز ما نحميه في حياتنا من عبث المفسدين وكيد الضالين المضلين أياً كان جنسهم ورهطهم. فتمصير اللغة شيء (نعوذ بالله من شره) وشيء غيره العنايةُ من بعضنا فقط بدرس اللهجة الشعبية دراسة علمية توقفنا على الزلل والخطأ وتجعلنا أعرف بأنفسنا من الأجانب والغرباء عنا. ومن المسلم أن اللغة مرآة تصور معنويات الأمة قديمها وحديثها، وأنها بهذه الصفة أحسن وسيلة تعرف بها الأمة في أفكارها وعواطفها وأخيلتها وتقاليدها. قال العلاّمة الأستاذ أحمد أمين: تدل اللغة على الحياة العقلية من ناحية أن لغة كل أمة في كل عصر مظهر من مظاهر عقلها، فلم تخلق اللغة دفعة واحدة ويأخذها الخلف عن السلف كاملة، إنما يخلق الناس في أول أمرهم ألفاظاً على قدر حاجاتهم، فإذا ظهرت أشياء جديدة خلقوا لها ألفاظاً جديدة ـ وإذا اندثرت أشياء قد تندثر ألفاظها، وهكذا اللغة في حياة وموت مستمرين، وكذلك الاشتقاقات والتعبيرات فهي أيضاً تنمو وترتقي تبعاً لرقي الأمة، هذا ما ليس فيه مجال للشك، وإذا كان هذا أمكننا إذا حصرنا معجم اللغة الذي تستعمله الأمة في عصر من العصور، أن نعرف الأشياء المادية التي كانت تعرفها والتي لا تعرفها، والكلمات المعنوية التي

تعرفها والتي لا تعرفها، اللهم إلا إذا كانت المعاجم أثرية كمعاجم اللغة العربية التي نستعملها نحن اليوم فإنها لا تدل علينا، لأنها ليست معاجمنا، ولم تسر معنا ولم تمثل عصرنا، ولذلك لم يخرج عليها كتابنا وشعراؤنا، وإنما كانت معاجم صحيحة للعصر العباسي أو نحوه، أما معاجم كل أمة حية الآن فهي دليل عليها، فإذا أمسكت معجماً منذ مائة عام للأمة الفرنسية ولم تجد كلمة للتلغراف والتلفون فمعنى ذلك أن الأمة لا تعرفها، وإذا لم تجد كلمة تدل على معنى من المعاني دلّ ذلك على أنهم لم ينتبهوا إلى هذا المعنى وهكذا... ولِلُّغة دلالة أخرى على الحياة العقلية من حيث ما تستخدم فيه اللغة من شعر ومثل وقصص ا. هـ.

وعليه فالعربية الدارجة التي نتكلم بها منذ الصبى يستوي في ذلك خاصتنا وعامتنا هي أولى علينا من العربية الفصحى التي لا نستعملها إلا في العبادات والكتابات والدروس العلمية والأحاديث الثقافية والتي هذا شأنها كذلك بين جميع العرب حتى في المشرق نفسه.

فالعربية الفصيحة إنما ندرسها كلغة الدين والتدوين والثقافة بينما العربية العامية هي لهجة التخاطب التي نعبر بها عن إحساساتنا وآرائنا وحركاتنا وأخلاقنا وعاداتنا في كل حين ويوم وفي كل ظرف ومكان. فهي بهذه المثابة جديرة بعناية الباحثين منا. ولا ينبغي أن يفهم من هذا أننا ندعو إلى تدريسها لأبنائنا كلغة، فهي غير صالحة لهذا لأنه ليس لها نظام يضبطها ولا منهاج تسير بمقتضاه، ولأنا لنا لغة تغنينا عنها هي العربية الفصحى لسان

الدين والملة ولغة العلم والثقافة، ورابطة الخلف بالسلف، وجامعة الأمم العربية شرقاً ومغرباً. وإنما كل ما نريد من قولنا توجيه أنظار الباحثين إلى ما في لهجتنا المغربية من آداب حية بين منظوم ومنثور ليعملوا على جمعها وحفظها لنا كجزء من التراث الفكري الشعبي العام. وقد أردنا بتعريبنا لبحث م. كولان الذي ننشره فيما بعد أن نعرض على حملة الأقلام من المغاربة خلاصة ما يراه الأستاذ المذكور في موضوع العربية بالمغرب. وزيادة في الفائدة رأينا أن نضيف إلى البحث على سبيل التعليق معلومات توضح المقاصد وتنير الطريق أمام الباحثين وسيقف القراء من بحث م. كولان على مسائل يستنكرونها كما نستنكرها نحن كذلك. ونشير بهذا خصوصاً إلى ما دعاه المشكلة اللغوية في المغرب، فلقلمنا بعد في هذه المسألة جولة تمكننا من التعقيب على رأي الباحث بما نراه صواباً ورداً حاسماً.

وفيما يلي بحث م. كولان قال:

1 ـ اللهجات الحضرية:

فهذه المدن تختلف اختلافاً بيناً عما عليه المدن العريقة في المدينة الحضرية المتأثرة بالثقافة الأندلسية. ومثال هذه المدن الحضرية اللهجة هي: فاس والرباط وسلا وتطوان وتازة والقصر الكبير. أما طنجة ووزان وشفشاون فإن لها لهجات حضرية لكنها قوية التأثر باللهجات الجبلية المجاورة، كما أن مكناس ومراكش متأثرتان في لهجتهما بعناصر بدوية دخلت فيها بواسطة أهل المخزن. ومن المفيد أن نلاحظ حالة أزمور التي تتكلم

مدينتها القديمة لهجة حضرية بينما المدينة الجديدة التي تكونت حول ضريح مولاي بوشعيب تستعمل لهجة بدوية. وتعد اللهجات الحضرية المغربية من جنس لهجات القسم المغربي في المغرب الأوسط وخصوصاً من جنس التي يتكلم بها في تلمسان وندرومة ومدينة الجزائر. وجميع اللهجات الحضرية المغربية تبدأ المضارع بالكاف شمالاً (كيعمل) وبالتاء جنوباً (تيعمل) أما فاس فتستعملهما معاً.

2 ـ اللهجات الجبلية:

إن القبائل التي تستعمل هذه اللهجات تنتمي إلى طائفتين سياسيتين هما غمارة السكان الأصليون وصنهاجة الذين جاءوا فاتحين. وإذا كان ليس من الممكن أن نجعل الحدود اللغوية مطابقة للحدود السياسية والجنسية فمن اليسير أن نجعل اللهجات الجبلية طائفتين كبيرتين:

1 ـ اللهجات الشمالية التي تمتد من الزقاق إلى جنوب شفشاون والتي تضم قبائل غمارة شرقاً.

2 ـ اللهجات الجنوبية الممتدة من وزان إلى تازة وهذه اللهجات تستعملها طائفتان كبيرتان من القبائل هما صنهاجة وادي ورغة وقبائل البتر القوية النسب بزنانة والساكنة بشمال تازة وهذه القبائل هي: مرنيسة والبرانس وتسول ومغراوة ومكناسة.

ويضاف إلى ما ذكر طائفتان صغيرتان إحداهما بناحية صفرو من جنوب فاس (البهاليل وبني يازغة)، والثانية هي غياتة بجنوب تازة. والراجح أن هذه اللهجات هي من بقايا كتلة عربية اللسان

كانت تمتد جنوب مسلك فاس وتازة كما يستدل على وجودها في القرن الثاني عشر بما ورد عند الجغرافي الإدريسي.

وبالرغم عن الاختلافات التي توجد بين اللهجات المذكورة وذلك من حيث اختلاف النطق واستعمال الألفاظ والعبارات الخاصة بمدينتين متباينتين لا يمكن فصل اللهجات الحضرية عن اللهجات الجبلية لا تاريخياً ولا لغوياً. فالاختلاف الأساسي إنما يوجد بين اللهجات الحضرية والجبلية وبين اللهجات البدوية. إن أهل الحواضر هم الذين علّموا سكان الجبال التكلم بالعربية. لكن اللهجات الحضرية كانت أكثر وأسرع تطوراً من الأخرى وذلك نظراً لغزارة القوة الفكرية التي للأقوام الذين يستعملونها. ثم إن اللهجات الحضرية تتأثر بالعوامل الخارجية سياسية كانت أو أدبية أكثر مما تتأثر بها اللهجات الجبلية. وكل هذا مع تفوق العنصر الجنسي البربري بمناطق الجبال يكفي في تبيان الأسباب التي من أجلها تظهر اليوم اللهجات الجبلية لأهل الحاضرة خشنة شنيعة مضحكة. ومن جهة أخرى فإن الحواضر قد تجدد سكانها جميعهم أو بعضهم بدون انقطاع وذلك بما يرد إليها من وفود أهل الجبال المجاورة. فكل هذا يبين صلة القرابة التي توجد في نظر العالم اللغوي بين اللهجات الحضرية واللهجات الجبلية. وربما كانت هذه الأخيرة بسبب شدة المحافظة التي تمتاز بها عن الأولى أكثر من هذه فائدة في تاريخ اللغة. ووليام مارسي يعتبرها أهمّ ما يمثل العربية الدارجة في بوادي المغرب قبل مجيء عرب بني هلال ومعقل.

3 ـ اللهجات البدوية:

توجد هذه اللهجات في السهول المغربية التي على المحيط الأطلانطيقي من أصيلة إلى الصويرة مع ما ينضاف إليها من السهول الممتدة داخل المغرب، كما توجد في بسيط ملوية والمغرب الشرقي وناحية الصحراء (وادي كَير ووادي زيز الخ). وهذه اللهجات البدوية ما تزال مجهولة الحقيقة إلا نادراً منها.

ولهجة هوارة بسوس وحدها هي التي درست دراسة ولكن في أوربا حسب المعلومات المتلقاة من أناس جالوا قبل ذلك كثيراً. وقد درست شخصياً لهجة دكالة الشمالية (أولاد بوعزيز وأولاد فرج). فهي تكاد تطابق في جميع تفاصيلها لهجة أولاد إبراهيم بسعيدة من عمالة وهران. وقد أخرج وليام مارسي بحثاً عن هذه اللهجة.

ولا شك أن دراستها تمكن من تقسيمها إلى طوائف متميزة الخصائص والصفات. وربما أمكن البحث والاستقراء من تمييز لهجات معقل عن لهجات بني هلال. وربما استطاع الباحث اللغوي أيضاً أن يميز بين لهجات القبائل العربية الخالصة ولهجات القبائل البربرية الخالصة القوية التي تسكن النواحي الأطلانطيقية والتي استعربت وكادت تغمرها عناصر البدو[1]. ويلوح أن اللهجات البدوية التي احتفظت بنقاوتها وبقيت على أصلها هي لهجات القبائل النازلة بالصحراء، لأن هذه القبائل كانت في

(1) وهذه القبائل هي حاحا، ورجراجة، ودكالة، وبرغواطة.

الماضي أكثر استقراراً في مساكنها وأقل تأثراً بغيرها. وبخلافها القبائل البدوية الأخرى التي كثر تنقلها إما بصفتها مادة لجيوش الحامية النازلة حول كل مدينة كبيرة كفاس ومكناس والرباط وسلا ومراكش، وإما بإجلائها عن مسكنها الأول وذلك على سبيل الزجر والعقاب، ومثال هذا قبيلة الشراردة. ومهما يكن من الأمر فالميزة الأساسية التي تمتاز بها اللهجات البدوية هي أن الكاف تنطق فيها كافاً معقودة.

وبهذا ميز ابن خلدون اللهجات البدوية التي كانت في عصره. ثم إن تلك اللهجات تمتاز أيضاً بكون النسبة والإضافة يعبر عنها فيها بـ «نتاع».

4 ـ اللهجات الإسرائيلية:

احتفظ اليهود المهاجرون من إسبانيا بلهجة إسبانية قديمة على أن كثيراً منهم تعلموا العربية لحاجتهم إليها في التجارة والمعاملات. وزيادة على هؤلاء اليهود يوجد في جبال البربر وفي المدن الداخلية يهود مغاربة لا يعرف أصلهم بدقة ووضوح. فهم يتكلمون العربية أو البربرية حسب الأماكن والجهات. ولليهود في المدن آداب عربية عامية مدونة بالحروف العبرية وقد طبع بعضها بفاس[1] والدار البيضاء كما أن جريدة بالعربية المغربية الدارجة والحروف العبرية كانت تصدر بطنجة مدة أعوام واسمها الحرية.

(1) Hespéris 1er Tri 1932 T. XIV. Fas.

علاقة الأجناس اللغوية المغربية فيما بينها

كان المغرب لعلماء اللغات ميداناً عجيباً لدراسة آثار اللغة الأصلية في اللغة الدخيلة، حيث إن اللغة الأصلية وهي البربرية ما تزال قائمة إلى جنب العربية ومعروفة معرفة كافية. غير أن نتائج الدراسة قد جاءت من أضعف ما يكون. وأكثر ما يتجلى أثر اللغة الأصلية البربرية في الجدول اللغوي (الأسماء اللغوية Vocabulaire) فقد حفظت اللهجات الجبلية واقتبست اللهجات البدوية كثيراً من الأسماء البربرية الخاصة بالأرض المغربية، ومثال ذلك أسماء نباتات وحيوانات وأحجار وآلات وأواني ريفية (ruraux) وفي الغالب احتفظت هذه الأسماء في العربية بالأداة البربرية (أ) التي تجعلها ممتنعة عن قبول حرف التعريف العربي (أل). ومن جهة أخرى فمن الغريب (لكنه أمر مفهوم) أن نعثر في اللهجات الجبلية على ألفاظ عربية الأصل مقترنة بحرف التعريف البربري. ومن المحتمل أنها ألفاظ عربية اقتُبست وتبربرت في العصر الذي كان فيه «جبالة» ما يزالون بربريي اللسان، وقد احتفظوا بها هكذا في لهجتهم العربية بعد استعرابهم.

وتوجد ألفاظ بربرية حتى في اللغة الإدارية المغربية مثالها: أفراكَ (سياج من الجوخ ينصب حول معسكر السلطان)، أكَدال: (المرعى الخاص بحيوانات السلطان)، أزفل (السياط الذي به يجلد المجرمون بقصد العقاب)، مزوار (نقيب الأشراف).

أما اللهجات البدوية فهي طبعاً أقل بكثير تأثراً بالعناصر اللغوية البربرية من لهجات أهل الحواضر، وبالأخص من اللهجات

الجبلية. غير أن المعجم الريفي في اللهجات البدوية قد اقتبس كثيراً من الأسماء الفنية التي كان يستعملها قدماء الفلاحين البرابر في السهول المغربية.

وضمن دائرة العربية نجد أن اللهجات الجبلية واللهجات الحضرية قد اقتبست عدداً من الألفاظ الخاصة بالحركة الريفية لأهل البادية. وبصفة عامة يستدل على تلك الألفاظ بنطق الكاف كَافا معقودة. وتقتبس اللهجات البدوية بدورها من اللهجات الحضرية أسماء الحضارة والمدنية. ولكنها تعطيها أكثر مما تأخذ منها، وذلك لأسباب اقتصادية وسياسية وفنية (esthétiques) إلى حد ما.

وتوجد ألفاظ مستعملة في اللهجات الحضرية والجبلية كما هي مستعملة في اللهجات البدوية. ولكنها مجهولة في اللهجة الإسبانية والمالطية. وربما كان أصل تلك الألفاظ من لهجة عرب بني هلال. ومن أشهرها: عَوْد (فرس) حلّوف (خنزير بري) وشَاف يْشُوف (رأى)[1].

وزيادة على العناصر البربرية والعربية فإن المعجم المغربي يتضمن مادة أعجمية مهمة. وهذه عبارة عن ألفاظ حضارة ومدنية، وهي خاصة بالنبات والفلاحة والتغذية واللباس والأثاث والفراش والسكنى وأعضاء الجسم نفسها. وهي مقتبسات يونانية

(1) راجع معانيها في اللغة.

أو لاتينية[1]. دخلت في الزمان القديم، أو أُخذت في العصور الحديثة من اللهجات الإسبانية المتفرعة من اللاتينية. ولكن لا شيء في مدلولها ولا في نطقها (لفظها) يسمح دائماً بتعيين أصلها على التحقيق والعصر الذي دخلت فيه.

وهذه المقتبسات الأعجمية أكثر ما توجد طبعاً في شمال المغرب الذي هو عرضة للمؤثِّرات المنحدرة من خلال البحر المتوسط. وهذه المؤثرات قد نفذت بواسطة المهاجرين الأندلسيين إلى الجزء الشمالي من الأطلس المتوسط. أما اللهجات البدوية فتكاد تكون خِلْواً من هذه المؤثرات.

وبين اللهجات البدوية المحافظة واللهجات الجبلية الصميمة، وكلتاهما بمثابة غاية قصوى، تمتد سلسلة من اللهجات الأوسطية، وذلك في مناطق الانتقال. وهي تشتمل على اللهجات الجبلية الضعيفة الخصائص المستعملة فيما حاذى السهول من السفح الجنوبي لسلسلة «جبالة»، كما تشتمل على بعض اللهجات البدوية المستعملة في السهول الأطلانطيقية وخاصة في المدن التي ليست بحضرية، «ولكن مهما أدرك التداخل والتفاعل بين هذين الرهطين من السعة والقوة (العمق) فإنه لا يبطل ما بينهما من التباين الأساسي. (وليام مارسي)(*).

---

(1) قد نشر م. كولان في مجلة (Héspéris). سنة 1926، وسنة 1927 وسنة 1930 أبحاثاً حاول فيها بيان أصول عدد كبير من الكلمات المغربية ويذهب إلى أن كثيراً منها مشتق من كلمات لاتينية ويونانية، ولكن المسألة تحتاج إلى تحقيق وتمحيص لمعرفة الصواب من الخطأ فيما ذهب إليه الباحث.

(*) (تتمة) راجع الأصل، ص 146.

الآداب العربية الدارجة

إن الآداب العربية الدارجة بالمغرب هي كسائر الآداب الشعبية آدابٌ شعرية في جوهرها. أما النصوص النثرية الوحيدة المعروفة فهي التي جمعها حديثاً علماء اللهجات من الأوربيين.

وفي شعر العربية المغربية الدارجة يجب أن نميز بين عصرين: أما العصر الأول فيمتد إلى بدء قيام الدولة السعدية. وأول ما عرف من أشعار هذا العصر ما أثبته منها ابن خلدون في آخر مقدمته كأمثلة للشعر الحضري. ولا بدّ من أن نضيف إلى هذا طائفة غزيرة من المولديات التي توجد منها مجموعات خطية. وقد أشار الحسن بن محمد الوزان المسمى بليون الإفريقي إلى أن عدداً من الشعراء كانوا زمن بني مرين ينظمون الأشعار بالدارجة في المولد النبوي، وكذلك في المواضيع الغرامية. وكانت تنشد هذه الأشعار بمحضر السلطان الذي كان يجيز الفائزين من أصحابها. ولا يمكن أن نفصل عن هذه الطائفة الشعرية القصائد التي تتكون منها ألحان الموسيقى السلفية (التاريخية classique). المغربية، وهي الموسيقى الأندلسية التي نظم الكثير منها في المغرب. وقد جمعها ورتبها الحايك، وهو موسيقي أندلسي الأصل استوطن بتطوان. فجميع القصائد المنسوبة إلى هذا العصر الأول قد نظمت باللهجة العربية الأندلسية التي أصبحت، وذلك بسبب النجاح الفائق الذي أدركه ابن قزمان القرطبي، اللغة الفنية (classique) للمذهب الشعري الجديد المسمى بالزجل. وكان يتفق هذا النوع مع الموشح في استعمال بحور جديدة مثله وفي اتحاد الوزن الذي هو وزن الشعر

العربي الفصيح، غير أن الزجل كان يختلف عن الموشح من حيث إنه كان ينظم باللهجة الأندلسية لا باللغة العربية الفصيحة. هذه هي خصائص جميع الشعر العامي المغربي المنسوب إلى هذا العصر الأول، أي مراعاة مقدار كل صوت في الطول والقصر كما في اللاتينية، واستعمال اللهجة الأندلسية.

وأما العصر الثاني فيمتاز خلافاً لهذا بوزن قائم على عدد الأصوات في كل بيت (كما في صناعة الشعر الفرنسي) وباستعمال لغة خاصة تسمى بالملحون، وهو عربية مغربية دارجة، لكنها متأثرة خصوصاً باللهجات البدوية. ويلوح أن هذا الفن الشعري بدويّ الأصل وقد ظهر وازدهر في عهد الدولتين المتبديتين السعدية والعلوية.

وأولُ من عُرف من ناظمي قصائد الملحون هو أبو فارس عبد العزيز المغراوي الذي كان من شعراء السلطان السعدي المنصور الذهبي، ولا تزال شهرته اليوم عظيمة جداً. ويدل عليها المثل القائل: كل طويل خاوِي غِيرْ النخلةْ والمغراوي.

وفي عصره كذلك نظم الولي عبد الرحمان المجذوب الدكالي رباعيته في التصوف. لكن كثيراً من الأشعار المنسوبة إليه اليوم موضوعة. وبعد هذين النظامين السابقين (précurseurs). قدم شعراء من تلمسان التي كانت مركزاً مهماً لشعر المَلْحون. أولهم سعيد بن عبد الله المنداسي التلمساني ناظم «العقيقية» الشهيرة: وقد هاجر مسقط رأسه ليعيش في حاشية الملوك العلويين الأول، ثم محمد بن الشريف والرشيد. وقد ورد

كذلك إلى المغرب واستقر في بني سناسن تلميذ المنداسي وهو أحمد بن التريكي الذي أجلاه الأتراك عن تلمسان. ولكن في القرن الثامن عشر وفي القرن التاسع عشر بالأخص ظهرت جماعة ممتازة من شعراء الملحون، وذلك في فاس ومكناس ومراكش التي كانت ثلاثتها أهمَّ المراكز لهذا الفن. وأغراضه كثيرة متنوعة. فالقصائد غرامية، أو غزلية صوفية، أو هجوية (معايرة بين الحرة والخادم) أو سياسية (بمناسبة الاحتلال الفرنسي ونصب الحماية) أو علمية (صنع البارود، الرقابة، الصيد بالباز) أو مضحكة هجينة (خطب الطلبة في مواسمهم). وقد حل الشعر الملحون محل الشعر الأندلسي الدارج وبزه تماماً حتى أصبح هذا الفن غزير الحياة كثير الشيوع في جميع الطبقات الاجتماعية. وكثيراً ما نعثر على نظَّامين يكادون يعدون من الجهال، ولِهذا يذهب الشعب إلى أن مقدرتهم الفنية إنما هي أمر «موهوب». ومن جهة أخرى فإن السلاطين أنفسهم لم يستنكفوا عن ممارسة هذا الشعر العامي السوقي، حتى إن أحد الملوك العلويين الأخيرين وهو مولاي عبد الحفيظ نظم كثيراً من قصائد الملحون التي جمعت في ديوان مطبوع بفاس.

وإلى جنب هذا الشعر الذي نظمه الرجال يجب أن نضع أغاني النساء، وهي التي تُنشدها النسوة وقتما يُدِرْنَ الرَّحَى، أو يلتقطن السنابل بعد الحصاد، أو يَكُنَّ في الأفراح العائلية، أو يُحركن المهد بالصبيان، كما يجب أن نذكر إزاء كل ذلك أغاريد الأطفال، والأحاجي، والأمثال.

اللغات الأخرى

كل جدول لغوي للمغرب لا يكون تاماً إذا اقتصر على ذكر البربرية والعربية الدارجة. فلا بدّ من أن يحسب الباحث لعنصرين ثانويين آخريين كل حسباهما:

فأما العنصر الأول فالعربية الفصحى التي هي اللغة الرسمية والتي لا تستعمل إلا في الكتابة والخطابة الدينية والخطب والمحاضرات فهي لا تتخذ أبداً لغة للتخاطب. ولكن حيث إن العلوم الدينية والفقهية مزدهرة بالمدن وبفاس خاصة وكذلك في بلاد جبالة (العلوم القرآنية وبكيفية أخص علم القراءات). فقد تسربت كثير من الكلمات العربية الفصيحة إلى اللهجة العامية، وذلك بواسطة الأدباء والمثقفين، كما دخلت فيها كثير من العبارات القرآنية والاصطلاحات التفسيرية. ويلوح أن المغرب لقلة توغل العربية في أهله عاجز عن اقتباس قسم من المفردات اللغوية الفصيحة وعن تملكها وذلك بإفراغها في قوالب لهجتهِ الدارجة. فالمقتبسات التي يأخذها عن العربية الفصحى تكاد تكون اقتباسات مأخوذة عن لغة أجنبية. وأما العنصر الثاني فاللهجة المغربية الأندلسية[1] التي كانت اللغة الوحيدة التي كان يتكلم بها كثير من المسلمين الإسبانيين (الموريسك)[2] الذين هاجروا إلى المغرب من القرن الخامس عشر إلى أوائل القرن

(1) عاشت هذه اللهجة في إسبانيا إلى بداية القرن السادس عشر، وهي قريبة من المالطية.

(2) غزوات العرب ص 241.

السابع عشر، ونزلوا خصوصاً بتطوان ورباط الفتح. ويقول مويط (mouette) الذي نزل المغرب أسيراً في سنة 1670: أما الإسبانية فكانت إذاك منتشرة انتشار العربية. ولا شك أن ملاحظته هذه لا تصح إلا على المدينتين المذكورتين دون غيرهما. ثم إن سلالة هؤلاء الأندلسيين تعلموا العربية ونسوا الإسبانية، وذلك تحت تأثير الثقافة الإسلامية. لكن اليهود الإسباني الأصل الذين بعدوا عن نفوذ هذه الثقافة لا زالوا يتكلمون بإسبانية قديمة مزركشة بألفاظ عربية خاضعة لأحكام الإعراب في اللغة الرومانية.

ولا يزال اليوم بالقصر السلطاني نفسه كثير من الخدم السَود (العبيد البواخر) رجالاً ونساءً يستعملون لهجات سودانية ولكن يلوح أن هذه لم يكن لها تأثير في اللهجات العربية بالمغرب.

وقد لوحظ أنه يوجد في المغرب كلام سري مستعملاً خصوصاً بين المغنين المتجولين. وإزاء هذا الرهط من الكلام يمكن أن نضع الخطابات الاصطلاحية argot الخاصة ببعض الحرف كالجزارين أو ببعض الطبقات الاجتماعية كالطلبة. وينحصر أمر تلك الخطابات الغريبة في قلب ترتيب بعض الحروف من الكلمة الواحدة وإضافة حروف معيَّنة تتخللها.

المشكلة اللغوية بالمغرب

للغة العربية في المغرب مظهران: اللغة الفصيحة واللغة العامية.

أما العامية فلغة التخاطب، وأما الفصيحة التي يعرفها المثقفون

وحدهم فلغة الكتابة والتدوين لا غير. وبها نظم الشعر الجاهلي، ونزل القرآن، ودوِّن الحديث، وهي لغة الدين والفقه والعلوم والآداب. ولكن في استطاعتنا أن نقول من غير أن نشتم المثقفين المغاربة إننا إن استثنينا أفراداً قلائل لا نلفي أحداً يتكلم بها ولا في مكنته أن يتحدث بها بسهولة، فجميع الناس بالمغرب يتكلمون بالعربية الدارجة لا فرق في هذا بين السائل والحمال والسلطان والوزراء والقضاة وأشهر أساتذة كلية القرويين. غير أن جميع الكتب والرسوم الشرعية والمراسلات إنما تكتب بعربية فصيحة تناسب درجات المعارف التي لأصحابها المنشئين.

والجاهل إن أراد الكتابة لأهله وذويه فإنما يتوجه إلى كاتب عمومي يتولى الإفصاح عن عواطفه وأفكاره فيفرغها في قوالب ترسلية فصيحة لكنها جامدة جافة جوفاء. وكذلك الْعَدَلَةُ الشرعيون[1] إن تلقوا الشهادات صاغوها في قوالب حفظوها على ظهر لسانهم من الكتب القديمة.

فندرك من هذا جلياً ما يعوز كل الآداب المغربية الفصيحة من الحياة والابتكار (spontanaite). وذلك بسبب ذلك الازدواج اللغوي الذي لا تشعر به جمهرة المغاربة. وإذا أضفنا إلى هذا أن تلك الآداب خالية تماماً من آثار النسوة[2] بصفتهنّ كاتبات وشخصيات معاً علمنا ما حدى بعضهم على وسم الإنتاج الأدبي العربي بالمغرب بسمة آداب البجاخين وأدعياء المعرفة (littéra-

(1) والعدلة الأوربيون. ألا يستعملون الصيغ المقررة للعقود والرسوم والشهادات؟.

(2) قد تغير الأمر اليوم، فالبنات يتعلمن اليوم في المدارس، وفيهن من يكتبن ويخطبن بالعربية.

(ture de pévauts فعناصر المشكلة اللغوية بالمغرب هي إذاً الآتية:

لُغَةٌ فُصْحَى مَكْتُوبَةٌ كانت أداة جيدة للعلم والثقافة وفي إمكانها أن تسترجع هذه الميزة. غير أنها لا تحذقها في الوقت الراهن سوى نخبة قليلة من المثقفين.

2 ـ لغة دارجة جارية على الألسنة يفهمها جميع الناس ولكن تشعبها إلى كثير من اللهجات وفقر مصطلحاتها الفكرية والعلمية يجعلانها غير صالحة للاستعمال كأداة علمية ثقافية. ولا تعوز الحلول هذه الحالة الحرجة التي أثارت مشكلة تتجاوز دائرة علم اللغات البحت فتصير مشكلة رقي ومدنية. ولكن كل واحد من الحلول الثلاثة المقترحة لا يقبل التحقيق عاجلاً. وما دعاهُ بحقٍّ م. وليام مارسي «أزمة اللغة العربية» ما زال حتى الآن لم يقترب في المغرب من حله النهائي.

* * *

1 ـ فالمثقفون المغاربة ـ وخاصة منهم الجيل الحديث ـ يقترحون تعميم العربية الفصحى كي تصبح في النهاية اللغة الوحيدة المستعملة ويقضى بهذا على اللهجات العامية كما وقع البعض من هذا اليوم في المدن الكبرى بمصر والشام. فهذه هي حجتهم التي سرعان ما يُجيبون بها إن اعتُرض عليهم بصعوبة المحاولة وطول الأمد في إنجازها. ولكنهم يجهلون أو ينسون أن الحالة اللغوية بالمغرب هي غيرها في مدن المشرق.

فاللهجات العامية في القاهرة ودمشق وبيروت وبغداد ومكة هي بالنسبة قريبة جداً من اللغة الفصحى وذلك من حيث الإعراب

(morphologie) والتركيب (synthaxe) والاصطلاحات (vocabulaire). فكثرة السكان من العرب في تلك الأقطار، وانتشار التعليم بين شعوبها وغيرهما من العوامِل والأسباب قد جعلت اللهجات المحلية الشرقية تواصل اللغة الفصحى مع تحولات خفيفة الوقْع[1].

أما في المغرب فالأمر بخلاف إذ إن كثيراً من الناطقين بالعربية لا ينتسبون إلى أرومة عربية فهم برابرة أو إسبان مسلمون أو غيرهم من الأجناس. فشأن اللغة الفصحى واللغة العامية بالمغرب، وذلك من جميع الحيثيات، شأن لغتين مختلفتين اختلاف اللاتينية والفرنسية. وهذا الانفصال أشد وأعظم في نظر المغاربة منه في نظر المستعربين الذين يُسهِّل عليهم تخصصهم المقاربات والمجانسات. وإذا سلمنا بالموازاة (parallélisme). القائمة بين الفصحى والعامية، وذلك على النسق الذي عليه الفرنسية بالنسبة إلى اللاتينية، أدركنا الصعوبات التي يحدثها في الواقع بالمغرب إحلالُ العربية الفصيحة محل العربية الدارجة أو مجرد إطباق إحداهما على الأخرى في الوجود والاستعمال. وحتى في الأقطار التي كان فيها هذا الحل أيسر الإدراك منه في المغرب لم يوفق إليه إلا في فريق من سكان المدن. فالقضاة المصريون من أهل القاهرة إن عُينوا في محاكم الصعيد المصري

(1) لا شك أن اللهجات العربية الشرقية أقرب إلى الفصيحة من لهجتنا المغربية ولكن الحقيقة هي أن اللهجات العربية الشرقية ليست مثيلة في جميع الأقطار فالمصرية تختلف عن الشامية اختلافاً وفي كل من مصر وسوريا مثلاً لهجات محلية خاصة فيها الحضرية والريفية (الفلاحية والبدوية) كما هو الشأن في المغرب. ولعل لهجة القاهرة قريبة من لهجة دمشق.

لـجأوا كـثيراً إلى عـون الترجمـان لفهم الأهالي المتـرافعين لديهم[1].

2 ـ اقترح بعض علماء اللهجات من الأوربيين هجران اللغة الفصحى وإقامة العربية الدارجة التي تنطق بها وتفهمها جميع طبقات الشعب مقام لغة الثقافة في المستقبل. ولكن هذه العربية الدارجة عديمة الوجود بمعنى أن هذه العبارة كناية عن طائفة كثيرة من اللهجات قد توجد في الناحية الواحدة، وقد تكون هذه الناحية نفسها ضيقة الرقعة والمجال. فلا مناص إذاً من الاستبداد في اختيار إحدى هذه اللهجات وفرضها على جميع المغرب لتصبح لغة القومية العامة. وهكذا تكونت كثير من اللغات، فقد تغلبت لهجة الحجاز على غيرها فأصبحت هي العربية، وكذلك كان الأمر في جزيرة فرنسا (Ile de France) وقشتالة وطوسكان التي صارت لهجاتها هي الفرنسية والإسبانية والإيطالية الفصيحة مع هذا الفارق، وهو أن تلك اللهجات الأعجمية قد فرضت نفسها عن طريق النفوذ الذي كان لمنتجاتها الدينية أو الأدبية والذي رافقه نفوذ سياسي لا يستهان به. أما في العالم العربي الحاضر فلا توجد لهجة تتمتع بمثل ذلك النفوذ. فاللهجات في عين الأهالي إنما هي رطانات (joujous) شنيعـة غليظة لا تعرف لها أية قاعدة نحوية، وتسمو عليها لغة شريفة واحدة هي العربية الفصحى التي بها كلام الله المنزل.

فاختيار لهجة من اللهجات إنما يكون حتماً عملاً استبدادياً،

(1) هذا من أغرب ما يروى ويسمع، والعهدة فيه على راويه.

ولا يمكن فرضها إلا بواسطة الدولة الحَامية. ولكن حتى لو تمكنت من فرضها لا يمكن أن يحصل الإنسان إلا على أداة ثقافية حقيرة جداً، إذ هي عارية عن كل معجم علمي دقيق. وبسبب هذا النقصان تكون مضطرة إلى اقتباس الكثير من معجم اللغة الفصيحة أو من اللغات الأوربية نفسها. وهذا عين ما يكون إن ترامى الأمر إلى جعل إحدى اللهجات البربرية لغة الرقي والمدنية.

3 ـ حيث إنه لا يلوح أن العربية الفصيحة ولا العربية الدارجة تسمح بحل المشكلة اللغوية بالمغرب، فهناك طبعاً (كذا) حل ثالث هو بث الفرنسية واستعمالها بين المغاربة كَلُغَةِ علم وثقافة. وهذا الحل يثير جنس الصعوبات التي تعترض نشر العربية الفصحى. ويضاف إلى هذه العقبات أن الفرنسية لغة غير إسلامية، فمن البديهي أن ينظر إليها في المغرب كلغة منافسة أو عدوة للغة القرآن. وقد يبرر استبدال هذه بالفرنسية لو اضمحلت الثقافة العربية مع انصرام القرون الوسطى. ولكن ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر شاهدنا في سوريا ومصر نهضة طرأت على آداب العربية الفصحى، وذلك في الغالب بفعل المؤثرات الأوربية، ولا سبيل إلى أن يغفل المغاربة عن هذا ويبخسوه حقه من العناية والاعتبار. وستكون الكتب العلمية الحديثة المؤلفة بالمشرق في الحقب الأخيرة وسائل عملية تجعل الكثير منهم يتمرسون بالثقافة الغربية. ولمدة سنوات طويلة سيظل المغربي الذي يرغب في ثقافته مجبراً على أن يضيف إلى لهجته العامية

المحلية معرفة العربية الفصحى والفرنسية. وسيبين المستقبل هل إن تعدد الألسن هذا سيكون للمغربي سبب تأخر أو تقدم سريع في تطوره العام.

جورج كولان
مدير الدراسات اللغوية الإفريقية
بمعهد الدراسات العليا المغربية

تعقيـــب
على بحث ج. كولان حول:
العربية في ماضي المغرب وحاضره

نريد الآن أن نعقب على بعض المسائل من بحث م. كولان فنبدي ما عنَّ لنا فيها من الملاحظات والاعتراضات. أما الأقسام الأخرى التي لا نتعرض لها هنا فهي تاريخية معروفة أو فنية اجتهد الباحث في تقرير الصواب فيها، والعهدة عليه وحده في كل ما رآه في شأنها. وهي بعد عرضة لنقد الباحثين الأكفاء ليروا رأيهم فيها فيميزوا لنا جيدها من رديئها وعيوبها من محاسنها.

ورد في سياق كلام م. كولان أن العربية الفصحى تعد لغة ثانوية بعد البربرية والعربية العامية. ونحن لا نقـرُّه على هذا الرأي، لأن الثانوي هو كل حقير زائد وضيع الدرجة بحيث يمكن التهـاون به أو الاستغنـاء عنه. وبخـلافه الأصلي والأسـاسي والجوهري الذي هو الركن والعماد والمادة، والثانوي إنما هو تابع. وهذه المعاني لا نرى أنها تنطبق في المغرب على العربية الفصيحة بالنسبة إلى غيرها. فالعربية الدارجة وإن كانت لهجة التخاطب لقسم كبير من المغاربة بين حضر وبدو إلا أنها لا تستعمل في جميع أقاليمنا التي لهجة بعضها هي البربرية. ثم إن العربية الفصحى تستعمل بين جميع المغاربة النـاطقين منهم

بالعامية أو بالبربرية كلغة الدين والتدوين، والمراسلة والخطابة. هذا من حيث الاستعمال، أما من حيث المنزلة فهي في نفوس كافة المغاربة أعلى قدراً وأعظم جاهاً وأعز جانباً. وبعبارة هي اللغة المقدسة دون سواها. وتقرير الصواب في هذه المسألة أن العربية الدارجة والبربرية لهجتان فقط، والعربية الفصيحة لغة حية تنافس أعظم اللغات في العالم، وتتبوأ بينها منزلة رفيعة ثابتة. وكل لغة حية في حد ذاتها أفضل وأهم من مجرد اللهجة التي شأنها الاختلال والفقر والانحطاط. وأيضاً فالعربية الفصحى يعم استعمالها جميع الرقعة المغربية، وذلك في المواطن التي تختص بها وهي جميع المواطن غير التخاطب، بل إنها تستعمل حتى في مجال التخاطب وذلك باعتبارها لغة الخطابة، وشأنها عظيم في جميع أصقاع المغرب، ولغة التدريس والمحاضرات والإذاعات والخطابة على الإطلاق. فهذه مواطن تمتاز بها العربية الفصيحة كما تمتاز بكونها لغة القرآن والشريعة والمراسلة والتأليف والنشر، ولغة الدولة المغربية التي بها تصدر القوانين والأحكام وجميع أنواع الكتابات الرسمية.

أفيقال بعد هذا كله إن العربية الفصحى في المغرب لغة ثانوية بالنسبة إلى العربية الدارجة؟ وهذه إنما هي فرع مسيخ منها وبنتها المشوهة. ومتى كان الفرع المسيخ أجود من الأصل الكامل الخلق، والبنت القبيحة أبهى من الأم الحسناء؟.

ثم يلوح لم. كولان أن المغرب عاجز عن الاقتباس من العربية الفصحى وإفراغ مقتبساته في قوالبه العامية. فالمغرب في زعم الباحث يقتبس من العربية فيجيء ما أخذه عنها كأنه لابس حلة

أجنبية. ولعل الباحث يعتبر أن المثل الأعلى في ذلك الاقتباس هو مسخ الأشياء وتحريفها عن أصولها حتى تَنْزَعَ عنها الحلة الغريبة وتهجر الجنسية الأجنبية. ومعنى هذا «تمصير» الفصيح من معجم العربية الدارجة. ونسأل الباحث ما الفائدة في هذا كله؟ أو أي ضرر يترتب على حسن الاقتباس؟ إنَّ ما يعده هو عجزاً وقبحاً نعتبره نحن عكس ذلك كما هو في النظر والحقيقة.

ذهب م. كولان في تقصيه المسألة اللغوية بالمغرب إلى الاهتمام بأمر تلك الفئة القليلة العدد الضئيلة الشأن من العبيد المبعثرين في المغرب والذين نسميهم بكْناوة فأحصى لهجتهم السودانية من اللهجات المغربية وهو على شك من تأثير السودانية (الكْناوية) في العربية الدارجة، ولكن رغماً عن كونه لم يعثر على أي أثر للسود في المغربية لم يقطع ويجزم بخلو هذه من آثار الكْناوية، فترك الباب مفتوحاً لما.عسى أن... وهذه من تسويلات ووساوس كثير من العلماء الباحثين، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنّة الله تبديلا.

لا ندري ما بعث م. كولان على إدراج لهجة كْناوة ضمن لهجاتنا وإخراج هؤلاء من الغرباء وشذاذ الآفاق في هذه البلاد بل حشرهم في أمتنا حشراً استبدادياً، إذ ليسوا من أبناء المغرب، أو على الأقل لا نعلم أنهم يحملون في جيوبهم صك الجنسية المغربية. فليس شأنهم في بلادنا شأن طوائف «البُوروج» «Peau Rouges» - أي أصحاب الجلود الحمر وهم هنود أمريكا. فهؤلاء هم السكان الأصليون في أرض الولايات المتحدة، بحيث يصح اعتبار لهجتهم الغريبة من اللهجات الأمريكية. وقد لجأت إليها

الحكومة الأمريكية في هذه الحرب فاستعملتها في بعض مخابراتها عوضاً عن الحروف الاصطلاحية السرية (الشِّفْر - chiffre) وذلك لأنها لهجة عوصاء شديدة الخفاء عسيرة الإدراك على غير أهلها.

وماذا عليه أمر كُناوة من هذا في بلادنا حتى يزج بهم م. كولان في قومنا ويحسب لرطانتهم حسابها في أرضنا، وتحدثه نفسه بإمكان تأثيرها في ألسنتنا، مع أن التأثير لا يكون إلا للأعلى في الأدنى والأعظم في الأحقر وللأكثر في الأقل وللسيد في المسود وللمولى في العبد. وحيث إن كُناوة في هذه الأرض أدنياء حقراء قلائل مسودون عبيد لم يتسرب من رطانتهم في لهجتنا أي شيء، بل هم الذين تعربت ألسنتهم بقدر ما استطاعوا، شأن الناقص يأخذ عن الكامل والمنحط عن الراقي.

ولم يقتصر م. كولان في وضعه لجدول اللهجات المغربية على الكُناوية، بل اهتم أيضاً بالاصطلاحات التي يتخاطب بها بعض الناس أحياناً إخفاء لمقاصدهم التي تقلب فيها حروف الكلمات مع إضافة أخرى إليها على سبيل الاستسرار. وبديهي أن الباحث المذكور يُعنَى بتلك الاصطلاحات، لأن مَن يَأْبَهُ للكناوية لا بدّ ينساق بحكم الأشياء إلى المبالاة بأمر تلك الأساليب الكلامية المستعجمة. وربما انذعر الإنسان من كثرة اللهجات التي عدها م. كولان تعداداً. لكن الأمر أهون مما يتبادر إلى الذهن ويتوهم أحد. فلا بأس على قومنا من ذلك «الجدول اللغوي الذي مططه صاحبه تمطيطاً ورقى فيه المرمى القصيّ».

بعد هذا نخلص إلى ما سماه م. كولان بالمشكلة اللغوية في المغرب.

لا ننازع في أن جميع الناس يتحدثون عادة بالعربية الدارجة. ولكن من الخطأ القول بأن العربية الفصحى لا تستعمل بيننا إلا كلغة الكتابة مجرداً. وقد ناقض م. كولان نفسه بنفسه إذ اعترف قبل هذا أن الفصحى لغة الكتابة والخطب الوعظية والخطب غير الدينية والمحاضرات، ولاحظنا زيادة أنها لغة التدريس والإذاعات. وحيث إن الباحث تعرض للمثقفين المغاربة وتنقصهم زاعماً أنه لا يوجد فيهم من يستطيع أن يتكلم بالعربية الفصيحة، أو حتى إن وجدوا فهم يعدون على الأصابع. ونعترض على هذا الزعم بأن المثقفين بالعربية يستطيعون أن يتكلموا بها، ونستدل على هذا مثلاً بالدروس العلمية التي تلقى في جميع المغرب بالعربية الفصيحة، وفي مكنة كثير من المثقفين أن يخطبوا ويتخاطبوا بها. والذي يمنع من استعمالها خُصُوصاً في التخاطب هو الجهل المتفشي في شعبنا لا عجز المثقفين عن التكلم بها كما يتوهم م. كولان باطلاً. أما مسألة استثقال الكلام بها من الجمهور فيمكن التغلب عليها بالممارسة والاعتياد. ولا يعزب عن بال م. كولان أن لغة الأدباء المغاربة منقحة جداً كما هو الصواب، وأنهم في مجالسهم الخاصة يتحدثون بأساليب آخذة بحظ وافر من الكلام العربي الفصيح.

أما ما يعبر عنه بالمشكلة اللغوية أو «بأزمة اللغة العربية» فقد عرض علينا م. كولان في ذلك بياناً أتى فيه على عناصر «المشكلة» ومصادر «الأزمة». فالمسألة عبارة عن الازدواج اللغوي

الموجود في المغرب: فهناك لغة فصيحة هي لغة الكتابة والعلم بجميع مظاهرهما، ولغة عامية ينطق بها جميع الناس. وقد كنى م. كولان هذا الازدواج بكونه «حالة حرجة» تثير مشكلة رقي ومدنية لا مشكلة لغوية فحسب. ثم عرض ما اقترح من الحلول لتسوية المشلة وعلاج الحالة الحرجة. فرجال الثقافة من المغاربة ينصرون العربية الفصحى ويريدون تعميمها حتى تقضي تدريجاً على غيرها من اللهجات، وذلك أسوة بالمشارقة.

إن م. كولان لا ينكر توفيق إخواننا العرب بالمشرق في نهضتهم اللغوية، ولكن يدعي أن العربية في المغرب غيرها في المشرق، أي أن عاميتنا تختلف عن الفصيحة اختلاف اللاتينية عن الفرنسية. وهذه دعوى عريضة غير خاصة بمسيو كولان، بل كثيراً ما قرأناها تحت أقلام أوربية وسمعناها من أفواه أعجمية. وهي من قبيل الخطأ الشائع. والحقيقة هي أن الدارجة المغربية أقرب إلى الفصحى مما يتوهم الأوربيون ولو كانوا من المستعربين. وإنا لنعذرهم في الجملة على هذا الزلل في الرأي لأنه مهما بلغ علمهم في العربية فإنهم لا يتمكنون من إدراك حقيقة النسبة بين الفصحى والعامية، أو على أقل تقديرهم لا يستطيعون تصورها كما نتصورها نحن أهل العربية ثم نقارن بين الأصول ونظائرها المهذبة. ويمكن اتخاذ هذه وسيلة لمعرفة ذلك وهي أن نكتب بالعامية جملاً ثم نصلح ما فيها من اللحن والتحريف. فبهذه الطريقة نشخص الفرق وندرك مبلغه. وليس من شك في أن الاختلاف يظهر لنا أضعف مما يظن الظانون. **«إن يتّبعون إلا الظنَّ وإنَّ الظن لا يغني من الحقِّ شيئاً»**.

وهناك وسيلة أخرى وهي أن نقرأ جملاً من الكلام المأنوس على بعض العامة أو نخاطبهم بكلام من ذلك النوع، فلا شك أنهم يفهموننا حسب فطنتهم. وهكذا يمكن لأي واحد أن يحقق النسبة بين الفصحى والعامية. ولا نعني طبعاً بالفصحى لغة الطبقة العليا من أمثال الحريري والهمذاني ومن حذا حذوهم في الإنشاء، أو لغة الغريب الوحشي كالحيزبون والدردبس والطخا والنقاخ والعلطبيس، وإنما نعني بالكلام الفصيح ما كان بسيط التركيب، سهل الأخذ، سريع الإدراك. وأحسن ما نحتج به لقرب العربية من أفهام الجمهور المغربي الخطب الدينية ودروس الوعظ والإرشاد والسيرة، فالعامة تقبل عليها كثيراً وما ذلك إلاَّ لأنها تستفيد منها وتفهم فحواها مع أن تلك الخطب والدروس كثيراً ما تتضمن أفصح ما في العربية، وهو القرآن والحديث، وكذلك يقبل كثير من عوامنا على قراءة الصحف ويفهمون جل ما فيها، كما يقبلون على المسارح لمشاهدة التمثيل بالعربية ويشاركون في المحافل الأدبية العامة.

أما إن حاولنا نظير تلك التجربة كأن نقابل بين جمل فرنسية وترجمتها اللاتينية أو نقرأ هذه الترجمة على بعض الفرنسيين من عامة الشعب، فإنا نقف جلياً على شدة الفرق بين اللغتين المذكورتين، فكأن إحداهما أجنبية تماماً عن الأخرى. لهذا يستحيل على العامة من الفرنسيين بل وعلى جمهور المثقفين منهم أن يفهموا اللاتينية إن أُلقيت عليهم بها خطب ودروس أو حُدثوا بها من أحد. ومَن يا تُرى مثلاً يستطيع أن يخطب أو يدرس أو يتحدث بها؟ أليست لغة ميتة؟ وهل يحيي ما أماته الله وجعله

في الغابرين؟ فلو بقيت هذه اللغة صالحة للتخاطب لكانت محطة البابا بالفاتكان أولى من يذيع بها، إذ هي لغة الديانة النصرانية، ولكنها لا تستعملها قط، ولو حاولت ذلك لما استمع لها أحد ولا فهم عنها مخلوق. لأن الإنسان لا يُنصت إلا لما يعقل ويفهم. وهذا هو السبب في عدول محطة رومة البابوية عن اللاتينية إلى اللغات النصرانية الحية، وكذلك الأمر في الكنائس حيث تلقى المواعظ بلغة أهل البلاد خاصة.

فلا يصح مطلقاً بعدما أسلفناه من البيان أن يقال إن النسبة بين الفصحى والعامية شبيهة بالتي توجد بين اللاتينية والفرنسية. وأقرب مثال يتخذ فيما نظن لتوضيح النسبة بين العربية الفصحى والعربية الدارجة هو مثال الفرق بين الفصيحة التي تستعمل في التدريس والتأليف والكتابة الأدبية بصفة عامة وبين الفرنسية الجارية على ألسنة عامة الشعب والطبقات السفلى منه خاصة. فاللغة التي يكتب أو يتكلم بها المثقفون الفرنسيون أمثال علماء وأساتذة جامعة الصوربون وأعضاء المجامع العلمية (الأكاديميات) والكتاب والشعراء هي أبعد ما تكون عن اللهجة التي يستعملها مثلاً الحمالون والبائعات بالسوق البلدي العام في باريس (Les forts et les dames des Halles centrales de Paris). أو صعاليك باريس (Les gacroches de Paris). أو أوباش ولصوص باريس (Les apaches de Paris) أو غيرهم ممن يتكلمون بلهجة (argot). وبصفة عامة الفلاحون والعملة ومن على شاكلتهم.

وم. كولان الذي يأخذ بهذا الرأي - خطأً - يُقيم مِن بُعد العامية عن الفصحى حاجزاً يعترض نشر هذه اللغة وتعميمها

لتحل محل الأخرى في التخاطب كما يريد المثقفون المغاربة، وذلك علاجاً لأزمة اللغة العربية كما يقول م. وليام مارسي، أو حلاً للمشكلة اللغوية كما يسميها م. كولان. ونعلم الآن ما بقي قائماً من ذلك الحاجز الذي لم يثبت أمام الحقيقة الناصعة، وما قيمة الاعتراض الذي يحاول م. كولان الرد به على الأدباء المغاربة أنصار العربية الفصحى.

أما الحلّ الثاني الذي أورده م. كولان للمشكلة اللغوية بالمغرب حسب تعبيره فهو ما اقترحه بعض علماء اللهجات من المستشرقين الأوربيين. ونحن نوافق الباحث على ما ساقه من الاعتراضات القوية التي تحول بين اللهجة الدارجة وبين أن تتخذ بعمل استبدادي صرف لغة الثقافة في المستقبل. غير أننا لا نسايره في القول بأن اللهجة العربية المغربية لا توازي اللهجات الأجنبية التي تفرعت عنها بعض اللغات الحية الحاضرة كالعربية والفرنسية والإسبانية والإيطالية، وذلك من حيث قيمة الآثار الدينية والأدبية فيها، هذه القيمة التي أمكنتها من الفوز والغلبة على غيرها من اللهجات وفرضتها على جميع الألسنة في أوطانها شرقاً وغرباً. وهنا يجب أن نميز بين لهجة الحجاز التي صارت فيما بعد هي العربية وبين اللهجات القديمة الأوربية من فرنسية وإسبانية وإيطالية. فاللهجة الحجازية امتازت عن غيرها من اللهجات العربية الأخرى بما خصها الله به من إنزال القرآن العظيم بها، كما امتازت بكونها لغة الحديث الشريف وتدوين علوم الدين الإسلامي. ومثل هذا لم يوجد قط في اللهجات الأوربية التي استحالت لغات قومية لشعوبها. ونحن لا ندعي قط أن في العربية

المغربية آثاراً من ذاك القبيل ولا في درجتها حاشا وكلا، ولكن من الحق أن نذكر أن العربية المغربية لا تقل حياة وغنى عما كانت عليه تلك اللهجات يوم كانت لهجات فحسب. وعيب المغربية ـ إن كان هذا عيباً حقاً ـ أنها ما تزال مجهولة في كثير من آثارها الأدبية، وأن البحث العلمي لم يتناول من هذه إلا يسيراً منتشراً. ولو توفرت جهود الباحثين منا على جمع الآداب العامية ودرسها درساً تحليلياً حسب المناهج العلمية الحديثة لاستبان ما فيها من حياة غزيرة وما هي عليه من وفرة كبيرة. ونحن حينما نذكر هذا لا نروم في شيء تأييد الفكرة القائلة بجعل العربية الدارجة لغة العلم في الاستقبال. فمهما بلغت آثارها الأدبية من الكثرة والتنوع ورفعة الشأن في مجال الذوق الأدبي الحديث لا نغترّ بذلك كله فتزلق قدمنا وهي ثابتة نحو تلك الفكرة التي ليست منا ولسنا منها في شيء أبداً.

وكيف يجوز أن نجنح إلى تلك الفكرة «الأجنبية المغرضة» ولدينا العربية الفصحى التي كانت ولا تزال وستدوم لغة الأمم العربية شرقاً وغرباً، وذلك في حياتها الدينية والعلمية والسياسية وجميع مظاهر العمران والمدنية. وقد فطن م. كولان نفسه إلى هذا في مواطن من بحثه وخصوصاً حينما قال إن المغاربة يزدرون اللهجة الدارجة ويعطون المقام الأسمى والمنزلة العليا في نفوسهم للعربية الفصحى التي بها نزل كلام الله.

وإن ما يقال في أمر العربية الدارجة لينطبق أكثر وأشد على اللهجة البربرية التي إنما هي لهجة رعاة وقوم سذج لا لهجة

حضرٍ صقلهم العلم وهذبهم الرقي وطبعتهم المدنية كما هو شأن الناطقين بالعربية الدارجة في الحواضر والأقاليم المجاورة لها.

فإذا كانت العربية الدارجة لا تصلح لأن تكون لغة علم وثقافة فبالأحرى البربرية التي هي عالة على العربية الدارجة في كثير من الأشياء.

ونرى بهذه المناسبة من المفيد ولو على سبيل حب الاستطلاع أن نذكر ما وقع زمن المهدي بن تومرت الموحدي الذي وضع بالبربرية كتباً في التوحيد والفقه لأهل دعوته من المصامدة وذلك حباً في إقامة شرائع الله تعالى وسنّة نبيه عليه السلام[1]. قال ابن أبي زرع: علمهم التوحيد باللسان البربري وجعل لهم فيه الأعشار والأحزاب والسور وقال لهم من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بمؤمن... فصار هذا التوحيد عند قبائل المصامدة كالقرآن العزيز، لأنه وجد قوماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمر الدنيا ولا من أمر الدين. ويقال إنه لما توطد الملك لدولة الموحدين عمدوا إلى خطباء المساجد بفاس فعزلوا منهم من لا يعرفون اللسان البربري. غير أن البربرية لم تنجح في فرض نفسها على جميع المملكة، ولم تستطع أن تصير لغة قومية ورسمية للدولة. وهكذا فإن جميع تلك المحاولات قد بقيت عقيمة وآل أمرها إلى الحبوط والإخفاق، كما عقمت وفشلت قبل ذلك دعوة المتنبئين أمثال صالح بن طريف الذي ظهر في قبائل برغواطة، وحاميم الذي أعلن نبوءته في بلاد غمارة. وقد حاول هؤلاء المتنبئون الكذابون

(1) **القرطاس**، ص 122.

وضع ما يشبه القرآن بالبربرية، ولكن كل هذه الكتب قد اضمحلت كما اضمحلت كتب المهدي بالبربرية[1].

وفي زمن قريب من عهدنا قام بعض طلبة سوس فترجموا إلى لهجتهم البربرية كتباً مثل رسالة القيرواني، ومختصر خليل، وشروح بردة الشيخ البوصري. وهكذا فإن الجهود التي بذلت في سبيل العثور على وثائق بربرية قد كانت عبثاً وذهبت سدى، فلم يظفر الباحثون بشيء سوى جمل بربرية من لهجة ابن تومرت أثبتها البيدق في كتابه بحروف عربية[2] هذا ما قاله م. لاووست مدير الدراسات البربرية بمعهد الدراسات العليا المغربية. ولقول هذا الأستاذ المتبربر مغزى لا يعزب عن ذي فطنة.

وحيث لا يمكن لأية لهجة مغربية أن تكون لغة العلم والثقافة ولا العربية الفصحى كذلك في زعم م. كولان ومن نحى نحوه في هذا التفكير، فقد تعرض هذا الباحث للحل الثالث الذي يراه بعض الفرنسيين لما اصطلح عليه بالمشكلة اللغوية في المغرب، والذي هو بث الفرنسية وحمل المغاربة على اتخاذها لغة للثقافة. ولكن م. كولان يرى هذا الحل ضرباً من المستحيل ويعترض عليه بمثل ما اعترض به على العربية الفصحى، ويضيف إلى هذا صعوبات أخرى لا سبيل إلى التغلب عليها لأنها ترجع إلى مشاعر الأمة المغربية وعواطفها الدينية وتقاليدها القومية. وليست معنويات الأمة ومقدساتها الروحية وأخلاقها المألوفة بالأمر الهين.

---

(1) المصدر السابق، ص 129.

(2) Laoust, Initiations au Maroc, p. 155.

وإذاً هل تبقى المشكلة اللغوية في المغرب قائمة بدون حل مرض ونهائي؟.

إن م. كولان أبعد الحلول الثلاثة المقترحة كما رأينا، ولكن لم يأتنا بحل جديد، وإنما أقر الحل «المؤقت» الذي يجري به العمل الآن في المغرب، وهو استعمال العربية الدارجة في التخاطب، والفصحى مع إضافة الفرنسية إليها في مجال العلم والمعرفة. ويرى الباحث أنه لا غناء لمن أراد أن يتثقف تثقيفاً صحيحاً عن العربية الفصحى والفرنسية معاً.

وهذا هو الواقع ما دام التعليم العربي في بلادنا على ما هو عليه من النقص الكثير والفساد العظيم، سواء في البرامج أو في المناهج. ويتساءل م. كولان هل كثرة الألسنة (polyglotisme) هذه من شأنها أن تؤخر المغاربة في تطورهم ونهضتهم أو هي على عكس من هذا قادرة على أن تسير بهم سيراً حثيثاً في مضمار الرقي والنهوض. الجواب عن هذا التساؤل يتركه م. كولان للمستقبل... ولكن أي ضرر يكون في تعدد الألسنة التي يتكلم بها غير واحد من المغاربة؟ أليس تعلم اللغات مفيداً جداً لمن يروم توسيع دائرة ثقافته العقلية بالاطلاع على الثقافات الأجنبية الحية؟ ولو كان تعلم اللغات خطيراً على العقول لما قرره الأوربيون في مدارسهم الرسمية وأوجبوه وجوباً على ناشئتهم المتعلمة من البنين والبنات. فنحن المغاربة حين نقبل على تعلم الفرنسية مثلاً إنما نقتفي في هذا المنهاج الذي اختطه الأوربيون لأنفسهم في درس اللغات الميتة كاليونانية واللاتينية واللغات

الحية على اختلافها. فلماذا يكون تعلم اللغات شؤماً علينا نحن المغاربة في حين أنه يمن لغيرنا من أبناء الأمم والملل؟.

فالمستقبل لا يمكنه أن يجيب إلا بأن تعلم اللغات تقدم لا تأخر، ورقي لا جمود. وقد شهدت التجارب ونطقت الحقائق بهذا وكفى بها في هذا المجال شاهداً صدقاً وهادياً مرشداً. نعم هناك فرق بين تعلم لغة للاطلاع على ما فيها وعند الأمة الناطقة بها وبين تعلمها لاتخاذها أداة الثقافة والعرفان. والفرنسية التي نتعلمها نحن المغاربة إنما نقبل عليها في هذا الطور من نهضتنا بالصفة الثانية خاصة، وهكذا نتمكن من تلافي النقص الذي يعترينا في الثقافة العامة إن توسلنا إليها بالعربية مجرداً، لأن التعليم العربي كما قلنا ما زال عندنا ناقصاً مختلاً ويوم تأخذ العربية في وطننا المنزلة التي أخذتها مثلاً في المشرق وبالأخص في مصر ـ ونحن سائرون لا محالة إلى ذلك اليوم وجادون في تقريبه منا ـ لا نستغني عن تعلم اللغات الأجنبية تمام الاستغناء فإن أحداً لا يقول بهذا قط، ولكن نصبح أقل حاجة إليها وأضعف تعلقاً بها منا اليوم. إذ يصير شأنها في مدارسنا الرسمية ثانوياً لا أساسياً. أما في مدارسنا الشعبية الحرة فالعربية هي الآن العمدة فيها، وستدأب على خطتها في النمو والارتقاء حتى تدرك الشأو العظيم الذي أصبح لها في بلاد العروبة بالمشرق.

فنحن لا نقف عند «الحل المؤقت» للمشكلة اللغوية، بل نرى لزوماً أن يخرج المغرب من تلك الفوضى التي تقرن بالحل المؤقت، وأن لا تظل ناشئتنا العلمية فريقين فريق يتثقف بالعربية، وفريق آخر يتثقف بالعربية والفرنسية معاً. فهذه التفرقة

مضرة من حيث إنها لا تجعل الناشئة المغربية في العلم سواء. وبما أن الفرنسية إنما يدرسها شطر يسير من الشباب، وأن العربية هي اللغة التي يلقَّن بها أكثر الشباب أقسام العلم وأنواع الثقافة. فمن البديهي بل من الضروري أن تتجه الجهود إلى جعل الفصحى هي لغة الثقافة لجميع المغاربة كما هو الشأن في المشرق اليوم. وهذا طبعاً لا يتنافى مع تدريس اللغة الفرنسية وغيرها من اللغات الأوربية الحية.

فالحلُّ الوحيد للمشكلة اللغوية في المغرب ـ إن كانت ثمة مشكلة ـ هو جعل العربية الفصحى لغة الثقافة في جميع المدارس والمعاهد. وليس هذا من قبيل الابتداع المحض، بل هو الواقع الذي به العمل وعليه المعوّل في المدارس الشعبية الحرة التي عددها وتلاميذها أكثر جداً من عدد وتلاميذ المدارس الرسمية. وفي المدارس الرسمية ذاتها تدرس كثير من العلوم بالعربية. فهذه اللغة تكاد تكون هي لغة الثقافة للمغاربة كافة. وهذا ما يجعلنا نعتبر أن ليس في المغرب مشكلة لغوية، كما يتوهم بعض المستشرقين الذين يذهلون عن تلك الحقائق التي لا ترتفع بمجرد الإنكار ولغو القول وضلال التفكير. وحتى إن وُجدت مشكلة فما أيسر حلها ما دامت العربية الفصحى هي التي تحتل في الواقع المكان الأرفع وتشغل المجال الأكبر في تثقيف المغاربة وتهذيبهم العام. فهذه أعظم حجة نحتج بها للعربية الفصيحة. ونضيف إلى هذا حججاً وبراهين أخرى هي من القيمة والأهمية بمكان عظيم:

1 ـ العربية لغة القرآن العظيم والحديث الشريف والدين

الحنيف والشريعة السمحة. فهي بهذه الصفات كلها لغة الإسلام المقدسة.

2 ـ العربية لغة الكتابة، فبها تحرر جميع المراسلات وبها تدوّن الكتب في العلوم والفنون والآداب.

3 ـ العربية لغة التعليم في جميع مدارس الأمة وبها أيضاً تلقى كثير من العلوم في المدارس الرسمية.

4 ـ العربية هي اللغة الرسمية للدولة المغربية. فبها تصْدر القوانين والأحكام وجميع الكتابات الإدارية.

5 ـ العربية لغة الخطابة والمحاضرات والإذاعات والتمثيل المسرحي وجميع المظاهرات الأدبية العامة.

6 ـ العربية لغة النشر عامة والصحافة خاصة.

7 ـ العربية كانت لغة العلم والثقافة في طوال تاريخنا، وقد أصبحت في نهضة الأمم العربية هي لغة المعرفة والحضارة.

8 ـ الأمة المغربية على بكرة أبيها تمقت اللهجة الدارجة مقتاً وتأبى بقوة وإصرار أن تجعل لها ميزة وتخصها بحظوة، لأن في هذا خفضاً لشأن العربية الفصحى وحرباً صريحة أو مستترة للغة القرآن الكريم. ومن ناوأ لسانه العربي المبين فكأنما أراد به سوءاً والعياذ بالله تعالى من ذلك. ولم يقل باتخاذ الدارجة لغة للعلم والثقافة إلا فئة من المستشرقين الأوربيين الذين تُحركهم أغراض وتُنطقهم أهواء. ولم يقل بذلك أيضاً في بعض بلاد المشرق إلا

لفيف من المتفرنجين الذين يريدون الفساد باسم الإصلاح، ولكن ساء ظنهم وخاب سعيهم في كل مصر وعصر.

9 ـ العربية لغة الميراث الثقافي العظيم الـذي خلفه لنـا الأسلاف في جميع البلاد العربية شرقاً وغرباً. فاتخاذ الدارجة بدلاً من الفصيحة إتلاف لذلك الميراث الذي يعدّ من مفاخر الأمة العربية جمعاء.

10 ـ العربية هي عمدة الجامعة العربية التي نعتصم بحبلها المتين ونغار عليها ونحميها من أن تعبث بها يد العابثين.

11 ـ العربية تمكننا في نهضتنا العامة من الاستفادة من جهود الأمم العربية في جميع ميادين الرقي والمدنية. فاللغة تجعل في متناولنا بالأخص جميع ما تنتجه العقلية العربية وتخرجه المطابع العصـرية من تـآليف في شتى العلوم والفنون، كمـا تجعلنـا مستعدين لغةً لأخذ العلم الصحيح عن ذويه وبأنواعه، وذلك في جميع المدارس والمعاهد الراقية ببلاد الشرق العربي التي ما نزال محتاجين إلى التلمذة عليها والاقتباس منها بسبب تقلص شأن التعليم وفسادهِ في بلادنا. إن لغة تكون بهذه المثابة كلها لجديرة حقاً بأن يستمسك بعروتها الوثقى جميع الناطقين بها، وحرية أن ينصروها نصراً عزيزاً قوياً. والعربية الفصحى التي تلك حقيقتها عزيزة قوية بذاتها، كما هي عزيزة قوية بإرادة أمتها التي لا تغالبها الأهـواء والأباطيـل مهما كثـرت واشتدت واحتـالت وتنكرت. فالعربية لا تخشى أية سيطرة، وهي صاحبة السيطرة بفضل القرآن ونصر الأمة. ولينصرن الله من ينصره.

فهل بعدما رأينا من الحقائق وذكرنا من أسباب القوة والفوز يبقى أي مجال لادعاء أننا نعاني في المغرب مشكلة لغوية عسيرة الحل؟ إن هذا لا يزعمه إلا الأجانب الذين تخفى عنهم تلك الحقائق ولا ينظرون إلى المسألة إلا بعين كليلة أو على الأصح بعين أجنبية صرفة.

أما نحن أهل البلاد العربية فنرى المسألة نيرة واضحة ليس فيها ما يفزعنا مبدئياً ولا ما يورطنا فعلاً في أزمة مستحكمة وحرج كبير. فالمشكلة اللغوية أو أزمة اللغة العربية إنما هي خيال أكثر منها حقيقة، بل نعتبرها اسماً بغير مسمى ودعوى بلا قضية. فالعربية الفصحى في الواقع تكاد تكون في المغرب هي لغة العلم والثقافة لجميع طلاب العلم ورواد الثقافة. فأين مع هذا نجد عناصر ما يسمى بمشكلة أو أزمة؟ وحتى إن سلمنا جدلاً بأن هنا مشكلة فهي لا تتجاوز دائرة التعليم الرسمي الذي هو جزء يسير من التعليم العام. وهذه المشكلة نفسها التي حصرناها في دائرة المدارس الرسمية لا تعزى إلى العربية وعجزها عن أن تكون لغة العلم والثقافة، ولكن تعزى إلى برنامج التعليم الذي يجعل العربية ثانوية بالنسبة إلى الفرنسية في تدريس العلوم المقررة. وبعبارة أدق إن البرنامج الرسمي يوزع مواد التعليم بين اللغتين العربية والفرنسية فيجعل للأولى علوم العربية والديانة الإسلامية، ويترك للثانية ما عدا ذلك وهو أكثر المواد المقررة. بل إن هناك علوماً تنضاف بطبيعتها إلى العربية مع أنها تلقن بالفرنسية، من تاريخ المغرب والتاريخ الإسلامي. على أننا نعترف بأن كثيراً من العلوم التي تدرس بالفرنسية إنما أحوج إلى

تدريسها لهذه اللغة إعواز المدرسين والأساتذة القادرين على تلقينها بالعربية. ومهما يكن من الأمر فتدريس العلوم المذكورة بالفرنسية لا يُستدل به على عجز العربية، إذ كلنا نعلم أن جميع العلوم العصرية تعلم اليوم بالعربية في أقطار المشرق، وأن الكتب المؤلفة في تلك العلوم لا تقل جودة عن أخواتها باللغات الأوربية الحية. ومتى ضاقت العربية عن العلوم حتى ترمى اليوم بالعجز؟ ألم تكن لغة العلوم الرياضية والطب والفلسفة وغيرها في عصر كانت أوربا لا تعرف من العلم إلا اسمه، بل كان فيها من لا يعرف للعلم اسماً ولا حقيقة؟ ألم تكن العربية هي الواسطة التي انتقل بها علم المتقدمين من يونان وغيرهم إلى أوربا الحديثة؟ ألم تكن كتب العلماء والفلاسفة والأطباء من العرب والمسلمين هي العمدة في أوربا زمن نهضتها الأولى؟ فهذه حقائق تاريخية لا يجهلها أولئك الذين يريدون أن يقصوا العربية ويحلوا محلها لغة في مواطن العربية نفسها.

ونحن حينما حصرنا المشكلة اللغوية في المدارس الرسمية لم نرم إثارة الخصومة بين العربية والفرنسية. فمن الحق الذي لا يجادل فيه منصف ولا يكابر فيه عاقل أن يتعلم ويتثقف أبناء العربية بلغتهم، وذلك في جميع المواطن التي يمكن التعليم فيها بالعربية. ويوم يكون لنا من المدرسين والأساتذة من يستطيعون تدريس العلوم الحديثة بالعربية لن ينصب نفسه للاعتراض على هذا إلا مغرض أو معاند؟ إن وقف تدريس العلوم على لغة أجنبية يضيع قسطاً كبيراً من أعمار الشباب، لأن الزمان الذي ينفقه أحداثنا في تعلم اللغة الأجنبية يمكن استعماله فيما يفيدهم في

علمهم وحياتهم. ثم إن تعلم العلوم باللغة الأجنبية قد يكون عرقلة في سبيل إعداد المدرسين والأساتذة، لأن ليس كل من يتلقى العلوم باللغة الأجنبية قادراً على تلقينها بالعربية. زد على هذا كله أن العلوم ليست وقفاً خاصاً بلغة دون أخرى: فهذه الأسباب كلها تجعلنا ننصر تدريس العلوم الحديثة بالعربية في مدارسنا الرسمية نفسها، وذلك كلما استطعنا إلى هذا سبيلاً، وكلما تهيأ من يتولى ذلك من المعلمين الأكفاء. وبهذا تستوفي العربية حقها في مدارس الدولة المغربية ولا تظل كأنها غريبة في بعض مواطنها وبين طوائف من الناطقين بها. وهكذا تصبح العربية في جميع المدارس المغربية لغة العلم والثقافة كما هو شأنها في البلاد العربية الراقية، وليس في هذا ما يغض من الفرنسية التي ستبقى لها الحظوة في مدارسنا بالنسبة إلى بقية اللغات الأوربية الأخرى. فلا ينكر أحد أن الفرنسية من أعظم اللغات الحية على الإطلاق، وأنها غنية بآدابها وبما تنتجه عقول أبنائها، وأنها أداة جيدة للرقي والمدنية، فهي بسبب هذا وغيره جديرة بأن يرغب الكثير من ناشئتنا في معرفتها والانتفاع بها في ثقافتهم الفكرية وحياتهم الخاصة. وفعلاً نشاهد أن كثيراً من مدارسنا العربية تعنى بالفرنسية فتجعلها من مواد الدراسة، وذلك جرياً على قاعدة المدارس العصرية الأجنبية التي تعلم اللغات الحية بالإضافة إلى لغة البلاد الأصلية، ونظراً لحاجة الناشئة المغربية في هذا الطور إلى معرفة الفرنسية للاستفادة منها في مجالات العلم والعمل فليس في المغرب أية معضلة لغوية ولا ما يمكن أن يسمى بالمشكلة مجرداً. فالحقيقة التي يراها ويعلمها

غير واحد من الناس هي أن العربية والفرنسية كلتاهما لغة العلم والثقافة، وأن مجال الأولى في المغرب جميع المدارس والمعاهد العربية وشطر من المدارس الرسمية، وأن مجال الثانية خاص بما لا تحتله العربية في هذه المدارس نفسها. وكل ما في الأمر وما يلوح من قبيل المشكلة، وهو في الحقيقة ليس منها في شيء، أن الفرنسية تختص في المدارس الرسمية بالعلوم العصرية فتظفر بالمنزلة الكبرى ويضيق نطاق العربية. لكن يوم يتيسر إصلاح التعليم الإصلاح المنشود ويتهيأ أساتذة العلوم الحديثة بالعربية تسترجع هذه اللغة منزلتها الكاملة وتصبح كما هي اليوم في مصر لغة العلوم والثقافات لكافة المغاربة.

الأندلس بين ملوك الطوائف ودولة المرابطين

(حول نكبة الأمير الشاعر المعتمد بن عباد الأشبيلي)

نشأة ملوك الطوائف:

كانت دولة الأمويين بالأندلس دولة قوية موفقة في كثير من شؤونها. أدركت الأندلس في عهد هذه الدولة الزاهر على يد ملوكها العظام ورجالها الأفذاذ غاية بعيدة في أنظمة السياسة، وخطط الحرب، ووسائل العلم والمدنية. حتى إن هذه الدولة لو قورنت بدولة الأمويين في المشرق لبذَّتها بذّاً في كثير من الحيثيات خصوصاً من الوجهة الأخلاقية. فقد كان ملوكها بصفة عامة أكثر تحلياً بلباس التقوى وأشد استمساكاً في سلوكهم وأعمالهم بالعروة الوثقى.

لكن تَغيَّرَ شأنُ الدولة الأموية الأندلسية فدبَّ الضعف في جسمها، وتسرب الخلل في نظامها وتغلغل الانحلال في كيانها زمن ولاية أبي الوليد هشام المؤيد بن الحكم المستنصر. فقد ولي العرش وله من السن عشرة أعوام وبضعة أشهر فظل منزوياً بين جدران القصر لا يستطيع لصغره أن يعنى بشيء من أشياء المملكة وليس له من الملك إلا الاسم دون المسمى. فقد حجب له أول الأمر أبو عامر محمد بن عبدالله بن أبي عامر فاستأثر بتدبير

المملكة دون صاحبها وسيطر على الأمير الشاب سيطرة جعلته بمثابة الشبح من الحقيقة. «تلقب هو بالمنصور فأقام الهيبة فدانت له أقطار الأندلس كلها وأمنت به ولم يضطرب عليه شيء منها أيام حياته لعظم هيبته وفرط سياسته... غزا في أيام مملكته نيفاً وخمسين غزوة... وفتح فتوحاً كثيرة ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله وملأ الأندلس غنائم وسبياً... وكان كلما انصرف من قتال العدو إلى سرادقه فيأمر بأن ينفض غبار ثيابه التي حضر فيها معمعة القتال وأن يجمع ويتحفظ به فلما حضرته المنية أمر بما اجتمع من ذلك أن ينثر على كفنه إذا وضع في قبره[1].

بقي المنصور مستبداً بتدبير المملكة سبعة وعشرين عاماً ثم خلفه في الوزارة والحجابة لهشام المؤيد ابنه أبو مروان عبد الملك بـن أبي عامر المقلب بالمظفر. فاقتفى سيرة أبيه المنصور في الغلبة على الملك والانفراد بتسيير دواليب الدولة وتزعم حركة الغزو والجهاد. وقد سعِدت الأندلس في عهده الذي لم يتجاوز سبع سنوات. فولي بعده أخوه عبد الرحمان الملقب بالناصر، لكنه أساء التصرف وحاق به الحبوط من كل جهة فكان هذا فاتحة عصر تداولت فيه مُلْكَ الأندلس أيدٍ مختلفة بسبب ما تطرق إلى الدولة من أسباب الوهن والفساد وطرأ عليها من مطامع السادة التي لم تُطق لها دفعاً وعصف بأركانها من الفتنة التي تشعبت رجالها فجعلتهم طرائق قِدداً.

---

(1) المعجب، ص 17.

لقد استبد العامريون بالمملكة دون الملك الأموي هشام بن الحكم الذي ظلّ «في طول مدته متغلَّباً عليه لا ينفذ له أمر»[2]، فكان لهذا الاستبداد حسنات ومساوىء. كانت له حسنات تجلت في تدبير المملكة بيد قوية وإعزاز جانبها بغزو الأعداء وضبط أمور الرعية بالهيبة والأمان، وتشجيع العلوم والفنون بما حفلت به حواضر الأندلس من المجالس والمنتديات والآثار. وكانت مساوئه عين ما يلزم الاستبداد المقيت في كل مكان وزمان. فقد كان خيراً يخالطه شر، وقد ابتدأ هناءً وسلاماً فانقلب شقوة وساء مصيراً. ذلك أن استبداد العامريين لم يرق بني أمية أصلاً ولا طاب العرب عنه نفساً. فأخذوا كلهم يتربصون بخصومهم الدوائر. ولم يكن العامريون ليفوتهم حنق الأمويين والعرب عليهم وطمعهم في إعادة الحق إلى نصابه فعملوا لصيانة استبدادهم بالقوة وحياطته بالكيد والشغب.

كان المنصور والمظفر العامريان قويي الشخصية بحيث لم تكن تلك الألقاب التي تحليا بها ألقاب مملكة في غير موضعها «على حد تعبير بعضهم»، بل كانت ألقاباً مستحقة تبررها قوة النفس وشدّة الشكيمة وعلو الهمة ودهاء العقل وتشهد بها ما أتاه أصحابها من جلائل الأعمال في الحرب والسياسة.

إن رجالاً صلاباً شداداً دهاة من هذا الطراز لا يقعد لهم أي شيء عن عمل ما يقتضيه بعد النظر وتتطلبه الحيطة والحذر. فكل اعتبار يضؤل شأنه ويضمحل، وكل مصلحة تتلاشى وتتبدد أمام

---

(2) **معجب**، ص 23.

القاعدة التي هي ديدن الطغاة والجبابرة: الغاية تبرر الوسيلة. لهذا فإن العامريين لما أوجسوا خيفة من تلك الشحناء التي كانت تلتهب في نفوس الأمويين وأصبحوا يحسبون حساباً لتلك النقمة التي كانت تضطرب بها أفئدة العرب الذين كانوا يحرقون عليهم الأرم لجأوا إلى وسيلة ظنّوها تدفع عنهم عادية الخصوم وتحمي سلطتهم من كل عبث وتحرز إمارتهم من كل دبار ودثور.

تلك الوسيلة هي التشغيب بين العرب والبربر بإثارة الأحقاد العنصرية وإهاجة المطامع النفسية وإلهاب الحزازات الشخصية. فكانت فتن إن عرف أولها لم يعلم آخرها وكانت ثورات أهلكت الحرث والنسل فغدت الأندلس مسرحاً فسيحاً للشقاق والشقاء: شقاق بين العرب والبربر وشقاء يفتك بالمتخاذلين الذين كانوا في تطاحنهم مضللين أتباع هوىً.

انشق المسلمون في الأندلس على أنفسهم وثارت فيهم النعرة العنصرية وأحمتهم حَمِيَّةُ الجاهلية وظلوا هكذا أُلعوبة في يد لاعب ماهر هو المنصور بن أبي عامر وكل من سار سيره من أبنائه وأعوانه، عمل العامريون بمهارة لاستغلال المنافسات بين العرب والبربر فألهبوا نار الفتنة ما استطاعوا وأشبعوها ضراماً ووقوداً فكانوا ـ في النهاية ـ كمن سعى في حتفه بظلفه.

«وقعت الفتنة بحسد بعضهم لبعض وابتغاء الخلافة من غير وجهها الذي رتبت عليه فاستبدت ملوك المَمَالِكِ الأندلسية ببلادها وسموا بملوك الطوائف وصاروا يتباهون في أحوال الملك حتى في الألقاب فآل أمرهم إلى أن تلقبوا بنعوت الخلفاء وترفعوا إلى

طبقات السلطة العظمى ولأجل توثبهم على النعوت العالية قال ابن رشيق القيرواني:

مما يزهدني في أرض أندلس
تلقيب معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة في غير موضعها
كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد

ومنذ وقعت الفتنة بالأندلس اعتاد أهل الممالك المتفرقة الاستبداد على إمام الجماعة وصار في كل جهة مملكة مستقلة يتوارث أعيانها الرياسة كما يتوارث ملوكها الملك ومرنوا على ذلك فصعب ضبطهم إلى نظام واحد وتمكن العدو منهم بالتفرق وعداوة بعضهم لبعض بقبيح المنافسة والطمع. (المقري: نفح الطيب).

أمور يضحك السفهاء منها ويبكي من عواقبها الحليم

فآل ذلك إلى تلف القواعد العظيمة وتملك الأمصار الجليلة وخروجها من يد الإسلام. والضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس في السلطان أنهم إذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان أو جواداً يبرع الأجواد تهافتوا في نصرته ونصبوه ملكاً من غير تدبير في عاقبة الأمر إلام يؤول؟ وبعد أن يكون الملك في مملكة تووارثت وتدوولت ويكون في تلك المملكة قائد من قوادها قد شهرت عنه وقائع في العدو وظهر منه كرم نفس للأجناد ومراعاة قدموه ملكاً في حصن من الحصون وربطوا عيالهم وأولادهم إن كان لهم ذلك بكرسي الملك ولم يزالوا في جهاد وتلاف أنفس

حتى يظفر صاحبهم بطلبته. وأهل المشرق أصوب رأياً منهم في مراعاة نظام الملك والمحافظة على نصابه لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وجل الأوضاع ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه. (المقري، نفح الطيب).

تلك هي حالة الأندلس ابتداءً من سنة 399 هـ وفيها خرج محمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي على هشام بن الحكم فخلعه وأسلمت الجيوش للقتال وصلب عبد الرحمان الناصر الذي خلف أخاه أبا مروان عبد الملك المظفر في منصب الوزارة والحجابة، فكانت تلك الثورة بدء الفتنة التي لعبت بالأندلس كما تلعب هوج الرياح بالشجر والتي تمخض ليلها عن صباح سوء بتصدع المملكة وتشعب الأمة على عهد ملوك الطوائف.

استنجاد الأندلس بدولة المغرب:

نزل التخاذل بأهل الأندلس فتمزقت وحدتهم وتخضدت شوكتهم باختلاف أهوائهم وتعدد ملوكهم فساء حظهم من حيث حسن حظ أعدائهم الذين كانوا لهم بالمرصاد. انتهز العدو الفرصة فأغار على المسلمين في عقر دارهم وغزاهم غزواً شديداً متواصلاً حتى استولى على كثير من الأصقاع. وقد ساعده في حربه وبطشه ما كان بين ملوك الطوائف من التنافس العظيم والتدابر الفظيع. فأخذ يضرب بعضهم ببعض ويوغر صدورهم فيما بينهم بجميع ضروب الاحتيال والمكيدة. وهكذا أعمل فيهم سيف الحرب والخديعة معاً. وكان ملوك الطوائف كلهم للطاغية مصانعة ومداراة عجزاً منهم وذلة وفزعاً ورهبة. فكانوا كما قال

المثل: حرة تحت قرة. ولكن هذا لم يغنهم فتيلاً. وكانوا زيادة يؤدون الجزية عن يد وهم صاغرون. ولكن لم تكن المصانعة ولا الجزية لتوقف الشر بعيداً عن المسلمين، بل كان الأعداء يوالون غاراتهم وينقضون عهودهم وينكثون مواثيقهم لأنهم كانوا يطمعون في نسف الإسلام من الأندلس نسفاً بعد أن خسفوا المسلمين ملوكاً ورعية خسفاً وأرهقوا عباد الله قتراً وذلة. وما زال الأدفونش يجوب البلاد غازياً مخرباً حتى ضاق المسلمون بأمره ذرعاً واستولى عليهم الفزع في الدور والمعاقل وأيقنوا أن لا قدرة لهم على عدوهم إلا باستمداد العون من الله ومن دولة المغرب القوية. ويظهر أن المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية كان أول من كاتب يوسف بن تاشفين بما آلت إليه أحوال الأندلس من السوء والفساد بسبب عبث الأعداء المتزايد ثم سأله النصر والإعانة فأجابه ابن تاشفين أولاً بأنه لا يمكنه ذلك إلا إذا ملك طنجة وسبتة وثانياً بأنه إذا فتح الله عليه سبتة اتصل بهم وبذل جهده في سبيل جهاد العدو. ويروى أن الأدفونش كان وقتئذٍ يقطع الأندلس غازياً فكلما نزل بأرض أفسد وخرب وقتل وسبى إلى أن حلّ بجزيرة طريف فأدخل قوائم فرسه في البحر وقال: هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته.

وكلما استفحل أمر الأدفونش واشتدت وطأته ازداد المسلمون اهتماماً باستنجاد ملك المغرب يوسف بن تاشفين الذي كان مرهوب الجانب لدى الفرنج، إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم لنفاذ أمره ونقله دولة زناتة وملك المغرب إليه في أسرع وقت مع ما ظهر لأبطال الملثمين ومشايخ صنهاجة في المعارك من ضربات

السيوف التي تقد الفارس والطعنات التي تنظم الكلى فكان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتدبين لقتالهم.

ويتلخص من روايات المؤرخين أن رؤساء الأندلس ومشايخها لم يروا بـدأً من استقدام ابن تاشفين بقصد الجهاد فـأخذوا يتناظرون في الأمر ويرومون الاتصال بملك المغرب. غير أن ملوك الطوائف أو أكثرهم كانوا مترددين بين مسايرة رأي الأمة والإحجام عن الأخذ به خوفاً على ملكهم من الضياع والتلف. فهم كانوا يجنحون خفية أو صراحة إلى ملاينة العدو ومحاولة صرفه بإظهار الخضوع وإعطاء الأتاوة وبذل الهدايا والتحف وما إلى هذا من سياسة الصغار والاستخذاء. وكانوا يفضلون هذه التبعيـة المخزيـة لملك الإسبانيـول على المخـاطـرة بملكهم والتعرض به للزوال على يد أمير المسلمين يوسف بـن تاشفين. ويظهر أنهم لما تحققوا عزم ابن تاشفين على العبور إلى الأندلس برسم الغزو والجهاد ائتمروا فيما بينهم وكأوا إلى مشورة المعتمد ابن عباد بصفته أعظمهم ملكاً وأبرزهم نجدة وأشدهم بأساً. وطالما تظاهروا بالولاء لابن تاشفين وعملوا لتحذيره من الشخوص إلى بلادهم. وقد أسفر ذلك الائتمار عن مكاتبة ابن تاشفين وترغيبه في الإعراض عنهم إعراضه عمن أطاعه من أهل المغرب فأجابهم ابن تاشفين إلى رغبتهم عملاً بالحكمة السياسية القائلة: من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد. وكل مـا اشترطه ابن تاشفين «أن يستديموا وفاءه بوفائهم ويستصلحوا إخاءه بإصلاح إخائهم».

وقع هذا الجواب السياسي الحكيم من ملوك الطوائف خاصة

موقعاً حسناً ولم يتظاهروا بالفيء إلى ظل ابن تاشفين إلا اضطراراً لأنهم كانوا في حاجة إلى صرفه عن ممالكهم بالمجاملة والمداهنة وإلى الاعتداد به إخافة لعدوهم وإرهاباً لكل من يروم أن ينقض على ملكهم الذي جعلوه أعز عليهم من كل شيء في الحياة.

ويلوح من نتائج هذه «الحماية» التي أسبغها ابن تاشفين على هؤلاء الملوك المستضعفين أن قويت نفوسهم واستأسدت ذئابهم فأخذوا يغيرون من سلوكهم المعهود مع الأدفونش ويجترئون عليه بما لم يصدر منهم قبل هذا. وعلى سبيل الإشارة الدالة على ما ذكر نثبت هنا ما كان من أمر المعتمد بن عباد مع الأدفونش يوم أرسل إليه الأتاوة السنوية فردها متوعداً متهدداً طالباً بامتلاك الجبل وترك السهل للمسلمين وقد فتك المعتمد برسول الأدفونش وبالجند الذي رافقه إلى المعتمد على سبيل الخفر والوعيد. وهناك حكاية أخرى نلخصها عن ابن عبد المنعم الحميري في كتابه: الروض المعطار. فإن المعتمد أخر دفع ضريبته عن وقتها المعلوم فلما أرسلها استشاط الأدفونش غيظاً وطالب ببعض الحصون زيادة عليها. وأمعن في التجني حتى طلب أن تلد زوجته في الجامع الأعظم بقرطبة لأن جانبه كان في الأصل كنيسة وقد أشار الأطباء والقساوسة بأن تسكن المرأة بمدينة الزهراء وتتردد إلى محل ولادتها بالجامع المذكور «حتى تكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة» فجرت مفاوضة في هذا بين المعتمد ورسول الأدفونش ولما أغلظ له في القول الرسول الذي كان يهودياً ضربه بمحبرة على رأسه فمات وصلب منكوساً. ولما

علم الخبر الأدفونش قصد إشبيلية يريد الزحف عليها ثم كاتب المعتمد يطلب منه أن يتحفه بمروحة يروح بها على نفسه ويطرد بها الذباب عن وجهه. فأجابه ابن عباد بأنه سينظر له في مراوح من جلود اللمط تروح منه لا عليه. فلما قرىء الجواب على ملك الإسبانيول أطرق إطراقة كان لها معناها في نفسه وأثرها فيمن حوله. لأنه لم يتعود مثل هذا القول ونظير هذه المعاملة من ملك يؤدي له الإتاوة ذلاً وصغاراً.

ذهب المعتمد هذا المذهب الجديد في معاملة الأدفونش وتورط في السوء معه أكثر من كل ملك غيره، ولم تحمله على ذلك إلا تلك الروح المعنوية التي اكتسبها من الاعتزاز بابن تاشفين الذي من ورائه محيط. ولعل هذا التوتر الطارىء على علاقة المعتمد بالأدفونش لم يكن ليسوء ملوك الطوائف الذين بقوا على مصانعتهم لملك الإسبانيول والذين كانوا يتضايقون من ملك قوي البأس عزيز الجنب كالمعتمد بن عباد. فما أحلى على كبدهم أن يشتد الأمر بين ابن عباد والأدفونش ويؤول ذلك إلى تمزيق شمل المعتمد على يد عدوهم المشترك أو على يدهم أنفسهم فيستريحوا من منافس ومزاحم أو يظفروا من مملكته بما يزيد في ملكهم. وهل كانوا إلا طلاب ملك ولو قام على ذل وخنوع ونهب واغتصاب؟ لذلك نراهم كلما قوي عزم المعتمد على الاستنجاد بابن تاشفين في حرب الأدفونش والانتقام منه ساورتهم المخاوف وهمهم شأنهم قبل شأن الإسلام والمسلمين في الأندلس وجدوا واجتهدوا بالمكاتبة والمشافهة في تحذيره عاقبة الأمر وقالوا له: الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في

غمد، ولكن المعتمد لم ينخدع لهذه النصيحة ولم تنطل عليه حيلة هؤلاء الملوك الأذلاء لذلك رد قولهم بما دل على سمو الهمة وشرف النفس فقال لهم: رعي الجمال خير من رعي الخنازير، أي أنه يفضل أن يكون أسيراً يرعى جمال ابن تاشفين على أن يكون أسيراً يتولى رعي خنازير الأدفونش. وبعبارة فإن كان لا بد من أن يتعرض للشر فليتعرض له باختيار جانب المسلمين فالأسر في بلاد الإسلام خير منه في أرض الفرنج. وفي هذا ارتكاب أخف الضررين، وقد أصر المعتمد على رأيه هذا إصراراً حتى إنه كان يحيي معارضيه قائلاً: إني من أمري على حالتين حالة يقين وحالة شك. ولا بد لي من إحداهما. أما حالة الشك فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأدفونش فمن الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه ويمكن أن لا يفعل فهذه حالة شك وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فإني أرضي الله وإن استندت إلى الأدفونش أسخطت الله فإذا كانت حالة الشك فيهما عارضة فلأي شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يسخطه؟ فأفحم بهذا الجواب كل من كان يحاول رده عن عزمه ثم بدأ يجهز الوفد إلى ابن تاشفين. وقد ركبه من قاضيي بطليوس وغَرْناطة وقاضي الجماعة بقرطبة وأضاف إليه وزيره أبا بكر بن زيدون. ومن تركيب الوفد ندرك أنه كان مطوقاً بمهمتين إحداهما دينية والأخرى سياسية. فالأولى عهد بها إلى الأعضاء الدينيين وهم القضاة وأناط بالثانية الوزير ابن زيدون. وتنحصر مهمة القضاة في التأثير على ابن تاشفين باسم الدين وذلك بما يقتضيه المقام من «وعظ وترغيب في الجهاد». أما الجانب

السياسي الذي اختص به ابن زيدون فهو كل ما يرجع إلى إبرام العقود السلطانية وقد كانت لهذا الوفد صبغة رسمية لأنه كان يمثل المعتمد في شخص الوزير ابن زيدون وقاضي الجماعة بقرطبة وينوب عن المتوكل على الله عمر ابن الأفطس وعبدالله بن حبوس الصنهاجي بواسطة قاضيي بطليموس وغرناطة. فهو إذا ينطق باسم ثلاثة ملوك من ملوك الطوائف.

ولم يكن هذا الوفد هو كل ما قدم على ابن تاشفين، بل كانت تفد عليه وفود متوالية من مختلف الثغور الأندلسية «مستعطفين مجهشين بالبكاء ناشدين بالله والإسلام مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته فيسمع إليهم ويصغي لقولهم وترق نفسه لهم. (ابن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار). وهذه الوفود كانت شعبية حرة تتكلم باسم عامة المسلمين الذين داخلهم الرعب من جراء استيلاء العدو على ثغور الإسلام والتهامه إياها شيئاً فشيئاً، وإعنات أهلها بكل ما قدر عليه من أساليب المكر والبطش والتخريب. وإن الشعب الأندلسي لم يفكر في إيفاد الوفود طلباً للنجدة إلا عندما تباطأ ملوكه عن معالجة الموقف الحرج بكل ما يقتضيه من الحزم والتدبير وأيقن هو أنهم غير فاعلين خوفاً على أنفسهم من عاقبة تدخل ملك المغرب في شؤون الأندلس وعجزاً منهم عن حماية الأراضي الإسلامية التي أصبحت مسرحاً لخيل العدو ورجله. ولعل بعض ملوك الطوائف لم يخابروا في النهاية ابن تاشفين إلا اضطراراً وانقياداً لتيار الرأي العام الذي لم تزده الأيام إلا إيماناً بأن خلاص الأندلس من عدوها لا يمكن أن يكون إلا على يد دولة قوية هي دولة المغرب لا على يد دويلات الأندلس الممزقة الشمل المتخاذلة أمام الأعداء.

وفي رواية ابن الأثير أن وجهاء القوم بقرطبة لما علموا ما وقع بين المعتمد والأدفونش من المشادة ووازنوا بين ما عليه الفرنج من الوحدة والقوة وبين ما عليه المسلمون الأندلسيون من الفرقة وموالاة بعض ملوكهم للأعداء حتى إنه كان فيهم من يستظهر بالفرنج على غيره، لما شاهدوا كل هذه المخازي والخسائس المنكرة أخذوا في التفاوض وتقليب الأمر ظهراً لبطن وقالوا: «هذه بلاد الأندلس قد غلب عليها الفرنج ولم يبق منها إلا القليل. وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت نصرانية كما كانت»، ثم فاتحوا القاضي ابن أدهم في رأي رأوه وهو الاستعانة بعرب إفريقية فأجابهم: «أخاف إذا وصلوا إلينا أن يخربوا بلادنا كما فعلوا بإفريقية ويتركوا الفرنج ويبدأوا بنا والمرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا». وقد أذعنوا لرأيه وهو الاستغاثة بيوسف بـن تاشفين الذي اتجهت إليه سائر الأنظار وأصبح مناط كل الآمال.

دخول ابن تاشفين إلى الأندلس:

ربما توهم البعض أن ابن تاشفين تثاقل في أول الأمر عن تلبية نداء الأندلس رغبة عن نجدتهم واستصعاباً لأمـر خلاصهم. والحقيقة غير هذا فابن تاشفين لم يسرع إلى الجزيرة لأول ما دعي إلى الجهاد بها لأنه كان يرى أن أول شرط للقيام بحركة الجهاد في الأندلس هو دخول المغرب من أقصاه إلى أقصاه في طاعة الدولة المرابطية وامتلاك ساحل البحر المتوسط الذي فيه طنجة وسبتة فليس من المعقول ولا من المصلحة في شيء أن يشتغل ابن تاشفين بمحاربة الفرنج ويهمل أمر المغرب فيترك في شماله مثلاً من لا ينتظم بدولته. ومن مصلحة الجيش الذي يتوجه إلى

الأندلس أن تأمن البلاد التي يستظهرها وتضمن طرق المواصلة بحراً وبراً بينه وبين قواعده الأصلية في المغرب لأنه منها يأتيه المدد وكل ما يحتاج إليه في حربه خارج البلاد. وقد قدر الأندلسيون وعلى رأسهم ابن عباد هذه المصلحة حق قدرها فاقترح المعتمد على ابن تاشفين أن يرسل قطائعه في البحر للاشتراك مع جيش المرابطين في منازلة طنجة واقتحام سبتة. وتحدثنا رواية أنه لما سقطت سبتة بعد طنجة سنة 447 هـ. رحل المعتمد إلى المغرب بقصد استنفار ابن تاشفين وقد لقيه بين سبتة وطنجة.

لما حلّت جيوش يوسف بن تاشفين بأرض الأندلس احتفى بها الناس وملوكهم أيما احتفاء وكان أبرزهم في مظاهر الحفاوة المعتمد بن عباد وقد كان له التقديم في ذلك كله لأنه هو الذي عمل لإجازة المرابطين إلى الجزيرة وهو أكبر ملوك الطوائف وأشدهم رغبة في جهاد الأعداء. ولما وصل المعتمد إلى محلة المرابطين خرج يوسف بن تاشفين «والتقيا منفردين وتصافحا وتعانقا وأظهر كل منهما لصاحبه المودة والخلوص وشكرا نعم الله وتواصيا بالصبر والرحمة وبشرا أنفسهما بما استقبلاه من غزو أهل الكفر وتضرعا إلى الله في أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه مقرباً إليه «ابن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار».

وفي أثناء مسير جيش المرابطين رأى الأندلسيون من مظاهر القوة، وأبصروا من مشاهد العزة ما أنعش النفوس بعد ذبولها وشد العزائم بعد انحلالها وأفسح المجال لآمال المؤمنين أصبح المرابطون محط الرجاء ومبعث الحياة في ربوع الأندلس فما

شاهدهم أو سمع بهم أحد من الأندلسيين إلا وهبّ يركض نحوهم راغباً في أن يكون من بين طلاب الشهادة في سبيل الله. ولم يكن ملوك الطوائف الذين عانوا من ذل الفرنج ومهانتهم ألواناً ليتخلفوا عن الدخول فيما دخل فيه أقوامهم وقد سر ابن تاشفين عندما رأى الأمراء يسرعون على رأس جيوشهم التحاقاً بمعسكر المجاهدين.

وقبل التقاء الجمعين أمر ابن تاشفين أمراء الأندلس أن ينضموا إلى ابن عباد ليتألف من الجميع جيش الأندلس لأنه لا يمكن استقبال العدو بجيوش مختلفة لها قيادات متعددة. فكل الفوارق المحلية والاعتبارات الشخصية التي ألفها ملوك هذه الأندلس الممزقة شر ممزق يجب أن تضمحل اضمحلالاً في خطرة القتال وساحات النزال بحيث لا يجد الفرنج أمامهم إلا جيش الأندلس المجاهدة في صفوف متراصة بدل تلك الفلول التي ألفوا الانقضاض عليها ومحقها قتلاً وأسراً وتشتيتاً.

ولما ائتلفت جيوش ملوك الطوائف في جيش واحد تقدمهم المعتمد بن عباد وقد كانت حقبة سعيدة ذاق فيها الأندلسيون لذة الوحدة بعد أن تجرعوا مرارة الاختلاف والخذلان. كان ابن تاشفين يريد بهذه الألفة الجديدة التي فرضها على الجيوش الأندلسية أن يشعر الفرنج بأن أندلس اليوم غير أندلس الأمس وأنه حدث حادث عظيم قلب الأوضاع من فساد إلى صلاح وأن المسلمين أصبحوا إخوة متماسكين متناصرين كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً «وهم يد واحدة على من بغى عليهم وناوأهم»

كما كان يريد ابن تاشفين أن يروض الأندلسيين من جديد على الاتحاد ويجعلهم يلمسون نعمته العظيمة ويؤمنون بنتائجه الحميدة. ولعل الله يحدث بعد العسر يسرا ويوفق مسلمي الأندلسيين إلى جمع الشمل ورأب الصدع بعد أن يخوضوا جميعاً غمار الحرب جنباً لجنب ويصدقوا في جهاد العدو المشترك وينقلبوا من ساحة الوغى مظفرين أعزاء.

وقد تجلت هذه الغاية المنشاطة التي رمى إليها ابن تاشفين، فيما نعتقده في توحيد صفوف الأندلسيين أولاً كما أسلفنا، وفي توكيد هذه الوحدة بتقديم جيش الأندلس في المسير إلى الأعداء. فكان هذا الجيش كأنه مستقل عن جيش المرابطين وكان بمثابة الدليل في اختراق البلاد والطليعة أمام الأعداء.

ولما دنا جيش الإسلام من الفرنج وحان وقت المعركة الحاسمة التي يصول فيها الحق على الباطل صولته القاضية سادت نفوس المسلمين المجاهدين روح معنوية جبارة نفخها فيهم حضور المرابطين الصناديد واتحاد السيوف المعدة لنحور الأعداء وتكاتف الجموع الزاحفة إلى الأمام تنشد الحياة في عز أو الممات في عز! وقد ازدادت تلك الروح المعنوية السائدة شدة وهيمنة وجلالا لما قام الفقهاء والصالحون في الناس مقام الوعظ وحضوهم على الصبر والثبات وحذروهم من الفشل والفرار. وحين ذاع في الجيش نبأ الرؤيا التي رآها الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي الذي رأى النبي ﷺ في النوم فبشره بالفتح والموت على الشهادة في صبيحة تلك الليلة. (ابن أبي زرع).

ويلوح أن الفقهاء كانوا دائماً من أنصار الجهاد لا يرضون عما كان عليه ملوك الطوائف من مهادنة الفرنج وبذل الجزية لهم سنوياً بعد أن كانت للمسلمين أيام العز والغلبة ومما يدل على هذا فتوى الفقيه محمد بن الطلاع. فلما استفتى المعتمد الفقهاء على حكم ما فعله باليهودي رسول الأدفونش وهو الذي ضربه لوقاحته بالمحبرة على رأسه فأرداه أفتاه الفقيه المذكور وينسب إليه أن قال: إنما بادرت بالفتوى خوفاً أن يكسل الرجل (القطر وراءه) عسكر ابن تاشفين بجيشه في موضع يسمى بالزلاقة ورابط جيش المعتمد في محل آخر تفصله عن الزلاقة ربوة وكان بين المسلمين والفرنج نهر بطليوس. ولعل الذي حمل القيادة الحربية الإسلامية على فصل الجيش الأندلسي والمرابطي وتقديم الأول أمام جبهة الفرنج هو المحافظة على وحدة الجيش الأندلسي وكيان استقلاله والاستفادة من خبرته بالبلاد وإظهار قوته للأعداء الذين طالما حسبوا الأندلسيين أحزاباً متخاذلة وطوائف مهانة. وليس ببعيد أن يكون ابن تاشفين قد رمى بذلك أيضاً إلى أن يشعر الأندلسيين بأنه يجب أن يعتمدوا على أنفسهم في الدفاع عن أرضهم وأن لا يخلدوا إلى التواكل فيوجهوا صريخهم إلى المرابطين كلما همهم أمر العدو وحاق بهم سوء الدهر. فجيش الأندلس هو المقدم في الجهاد والمعول عليه في هزيمة الأعداء وإنما جيش المرابطين له ردء ونصير.

توقع الأندلسيون غدر العدو ثم انكشف لهم أنه قد فطن إلى أن جيشهم طليعة جيوش المسلمين وعمدتها في المسير إلى القتال وأنه لذلك يحاول الحملة عليه غِرّةً ليفله ثم بعد هذا

يهون عليه أمر المرابطين الذين لا معرفة لهم بالبلاد. وفعلاً اهتبل العدو الغِـرَّةَ «فصدم ابن عباد صدمة قطعت آماله ومال الأدفونش عليه بجموعـه وأحاطوا به من كل جهة فهاجت الحرب وحمي الوطيس واستحر القتل في أصحاب ابن عباد وصبر صبراً لم يعهد مثله وعضته الحرب واشتد عليه وعلى أصحابه البلاء وساءت الظنون وأثخن هو جراحات في رأسه وبدنه وعقرت تحته في ذلك اليوم ثلاثة أفراس كلما هلك واحد قدم له آخر» «ابن أبي زرع».

ولكن جيش المرابطين تدارك جيش الأندلس «فاستنشق الناس ريح الظفر وتباشروا بالنصر ثم صدقوا جميعاً الحملة فزلزلت الأرض من حوافر الخيل وأظلم النهار بالعجاج وخاضت الخيل في الدماء وصبر الفريقان صبراً عظيماً ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف وحمل معه حملة جاء معها النصر فانكشف الطاغية وفر هارباً مهزوماً وقد طعن في إحدى ركبتيه طعنة بقي يخمع بها بقية عمره. وكان أمير المسلمين يوسف بـن تاشفين على فرس يومئذٍ أنثى يمر بين ساقـات المسلمين وصفوفهم يحـرضهم ويقوي نفوسهم على الجهاد ويحضهم على الصبر فقاتل الناس في ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت (ابن أبي زرع).
كتب ابن عباد إلى ابنه بإشبيلية يخبره بالظفر على العدو قال: «وقد أعز الله الدين ونصر المسلمين وفتح لهم الفتح المبين» وفي هذا الكتاب يقول ابن عباد: اتخذ المسلمون من هاماتهم (أي الأعداء) صوامع يؤذنون عليها. ويروى أن ابن تاشفين أمر بقطع رؤوس القتلى حتى تراكمت بين يده أمثال الجبال فوزعها على حواضر الأندلس والمغرب وإفريقية «ليراها الناس فيشكروا الله

على ما منحهم من النصر والظفر العظيم».

بعد المعركة: ابن تاشفين وشعب الأندلس:

كان الأدفونش ملك الفرنج قبل لقاء المسلمين كله إعجاباً بالنفس وانقياداً للخيلاء، حتى حكي عنه أنه قال بعد أن استعرض خيار جنده الذين بهم سيخوض غمار القتال: بهؤلاء أقاتل الجن والأنس وملائكة السماء! واتفق له أن رأى في نومه أنه راكب على فيل وبين يديه طبل ينقر فيه، فقص الرؤيا على الرهبان فلم يستطيعوا تأويلها، فأحضر من المسلمين من عبرها له بقوله تعالى: ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ الخ... وقوله عزّ وجل: ﴿فإذا نُقِرَ في النَّاقُورِ فذلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ على الكافرين غيرُ يسير﴾. ولكن الأدفونش كان شديد الإعجاب بأمره مفرط الاعتزاز بجيشه لذلك التفت إلى معبر الرؤيا فقال له: بهذا الجيش ألقى إلآه محمد صاحب كتابكم!.

وقد كان هذا الإعجاب من أسباب ما كان ينتظر هذا الجيش من هلاك ودمار فهو خطأ في الفراسة والتقدير. والقائد مهما كان قوي النفس شديد الاعتداد بالجيش ينبغي له أن لا يكون متهاوناً بقوة الأعداء ولا ينقاد للغرور ولا يخلد إلى الاطمئنان. فمن البصر بالحرب أن يحسب للعدو حسابه ولا يذهل عما تستره الأقدار وتحجبه الغيوب. ومن شأن هذا أن لا يقعد بالقائد عن أن يأخذ للأمر عدته.

خابت ظنون الأدفونش وتحطمت خيلاؤه، فما اصطدم جيشه

العتيد بالمسلمين حتى أصبحت كثرة العدة والعدد لا تغنيه عن الأمر شيئاً فوقعت عليه الكسرة وعانى شر انهزام عاد معه الأدفونش المتكبر المختال في جيش هزيم وكتيبة فلى فتحققت رؤياه وصدق عليه قول الله الواحد القهار.

رجع هذا الجيش الفل المكسور فحزن الفرنج حزناً شديداً وتعالى البكاء وطال النواح ودام النكد في سائر البيوت والجهات فكان هذا عبرة لمن اعتبر ولكن قوم الأدفونش في ضلال.

أما جيش الإسلام فلم يبرح المعترك إلا بعد أيام ثم عاد مظفراً منصوراً فاهتزت الأندلس فرحاً واعتزازاً وهاج المغرب غبطة وحماساً وانتشت إفريقية طرباً وارتياحاً. عظمت المسرة في بلاد الإسلام كلها وطاب نفساً حتى ذوو القتلى من المسلمين لأن دمهم لم يذهب جباراً بل قضوا شهداء في سبيل الله فأصبحوا ممن سبقت لهم من الله الحسنى.

وبعد وقعة الزلاقة التي تعد من أعظم المعارك الحاسمة في تاريخ الإسلام على الإطلاق حق لابن تاشفين أن يطمح إلى إمارة الإسلام وفعلاً تسمى في يوم الفتح يوم الجمعة الحادي عشر لرجب سنة 479 هـ بأمير المسلمين بلا منازع. وبسبب ما فتح الله على المسلمين «اجتمعت كلمة الإسلام وأخرج الناس الصدقات وأعتقوا الرقاب شكراً لله تعالى. (ابن أبي زرع). أما ابن عباد فما عاد إلى أشبيلية حتى توافدت عليه الناس يهنئونه بالفوز وانبرى الشعراء يمجدونه ويتغنون بمآثره في ساحة الجهاد.

ولقد حق للأندلس أن تبتهج قبل غيرها وأكثر من سواها لأنها خرجت من ذل الغلب إلى عزّ الظفر وودعت عصراً كله آلام وشرور واستقبلت عهداً يبشرها الله فيه بحياة لا تقوم إلا على المجد والرفعة.

«سر أهل الأندلس وأظهروا اليمن بأمير المسلمين والتبرك به وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر وانتشر له الثناء بجزيرة الأندلس وذلك أن الأندلس كانت قبله بصدد التلاف من استيلاء النصارى عليها وأخذهم الأتاوة من ملوكها قاطبة، فلما قهر الله العدو وهزمه على يد أمير المسلمين أظهر الناس إعظامه ونشأ له الود في الصدور (المعجب ص 79).

ابن تاشفين وملوك الطوائف:

كان ملوك الأندلس يصانعون ابن تاشفين ويظهرون له الولاء حيطة منهم على ملكهم وحذراً منه على أنفسهم، وطالما ضجروا من نفوذه الذي أخذ يسري في القلوب ويهيمن على الأفكار، وطالما مانعوه عن طريق الختل والمداهنة تنفيذ ما اعتزم عليه من الشخص بجيشه إلى بلادهم بقصد الجهاد، فكلما سمعوا بذلك فزعوا وانزعوا واستنجد بعضهم ببعض في تدبير الوسائل التي يحولون بها بين ابن تاشفين والإقدام على الجهاد بأرضهم. ويروي بعض المؤرخين أنه لما علم ملوك الأندلس بتجهز ابن تاشفين للجواز إلى الأندلس كرهوا إلحاقه بجزيرتهم وأعدوا له العدة والعدد إلا أنهم استهولوا جمعه واستصعبوا مدافعته وكرهوا أن يصبحوا بين عدو بين الفرنج عن شمالهم والملثمين عن

جنوبهم». فاتفقوا مرة على مكاتبته وإقناعه بظاهر ولائهم كفاً له عنهم فقبل منهم ظاهرهم وسالمهم مطمئناً إياهم بقوله: إنكم مما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة مخصوصون منا بإكرام إيثار وسماحة.

ولما توترت العلائق بين المعتمد والأدفونش ووطد ابن عباد العزم على الاستصراخ بابن تاشفين قلق ملوك الطوائف قلقاً شديداً فمنهم من كاتبه ومنهم من شافهه وكلهم أرادوا صرفه عن رأيه وتحذيره عاقبة إدخال ابن تاشفين في شؤون الجزيرة. ولكن المعتمد بقي مصمماً لكثرة خشيته من الفرنج الذين أصبحوا يعتقدون أنه عدوهم الألد ومناوئهم الأكبر وأنهم لا يستطيعون تحقيق أطماعهم في الجزيرة إلا بالقضاء عليه شر قضاء. ومن جهة أخرى فإن تيار الرأي العام المطالب بنجدة ابن تاشفين قد أخذ يقوى ويجرف كل تردد وتمنع واعتراض في هذا السبيل وقد أصبح ملوك الطوائف أمام الأمر الواقع لما توالت وفود الأندلسيين على ابن تاشفين راغبة ملحة في الجهاد بالأندلس ضد عدوها المتكالب على ثغورها يلتهمها واحداً بعد آخر ويذيق مسلميها من صنوف العذاب والنكال ما لا قبل لهم باحتماله. ولما أكره ملوك الطوائف على متابعة ابن عباد ومجاراة الرأي العام لم يقدم على مخابرة ابن تاشفين منهم إلا ثلاثة هم ابن عباد الذي كان زعيم الفكرة القائلة باستنجاد يوسف بن تاشفين وصاحب بطليوس المتوكل على الله عمر بن الأفطس وصاحب غرناطة عبدالله بن حبوس الصنهاجي، فهؤلاء الملوك هم الذين مثلهم الوفد المؤلف من قاضي بطليوس وغرناطة وقاضي الجماعة

بقرطبة والوزير بكر بن زيدون وهذان الأخيران كانا ينوبان عن المعتمد.

ولما نزل المرابطون بالأندلس يقودهم ابن تاشفين كان ابن عباد أسبق ملوكها وأظهرهم في الحفاوة بالجيوش المغربية وقد شارك شعب الأندلس في مظاهر الاحتفاء بما لا مزيد عليه، فما حل ابن تاشفين بالجزيرة الخضراء حتى خرج إليه أهلها بما عندهم من الأقوات والضيافات وأقاموا له سوقاً جلبوا إليه ما عندهم من سائر المرافق وأذنوا للغزاة في دخول البلد والتصرف فيها فامتلأت المساجد والرحاب بالمطوّعة وتواصوا لهم خيراً «الروض المعطار» وما سمع الأندلسيون بمقدم ابن تاشفين حتى هرعوا أرسالاً أرسالاً ينضوون تحت لواء المعتمد للجهاد في سبيل الله.

فلما أصبح ملوك الطوائف أمام هذه المشاهد والحقائق لم يبق لهم إلا أن يدخلوا فيما دخل فيهم كبيرهم ابن عباد وأهل الأندلس كافة، وهو التجهز للقتال والالتحاق بجيوش المسلمين والالتفاف حول ابن تاشفين.

وبفضل ابن تاشفين وبالرغم عن أنف ملوك الطوائف حاشا ابن عباد التأم شمل المسلمين بالأندلس في ساحة القتال وأصبحوا يكونون وحدة قوية مرهوبة الجانب. وقد أبلى المعتمد في المعركة بلاءً حسناً وضرب خير مثال في التضحية والاستبسال حتى حق له بعد الزلاقة أن يهنأ بالفتح من الناس أجمعين. ويروى أنه بعد انهزام الفرنج أقبل ابن عباد على السلطان يوسف

وصافحه وهنأه وشكره وأثنى عليه، وشكر يوسف صبر ابن عباد ومقامه وحسن بلائه (الروض المعطار) فبقدر ما تباطأ ملوك الطوائف في استدعاء ابن تاشفين إلى الأندلس، بقدر ما توانوا في الاستظهار به على عدوهم الذي ارتضوا موالاته وبذلوا له الجزية طاعة ومذلة، وبقدر ما كادوا واحتالوا لإحباط المساعي المبذولة من أجل الاستنجاد بالمرابطين، خف المعتمد إلى إنجاز ما رآه سداداً وحقاً وواجباً وهو حمل ابن تاشفين على نصرة الأندلس بالجهاد فيها ضد الأعداء. وتجمع روايات المؤرخين على أن المعتمد كان بطل الفكرة كما كان بطل الأندلس في ساحة الوغى. فتارة يحدثنا المؤرخون بأنه كان أول من كاتب ابن تاشفين استنصاراً به على الفرنج، وأنه عبر البحر إلى المغرب لاستنفار يوسف إلى الجهاد فاجتمع به بين سبتة وطنجة، ويذهب ابن خلدون إلى أنه لقيه بفاس وأنه نزل له عن الجزيرة الخضراء لتكون رباطاً لجهاده، وتارة يصورون لنا المعتمد في صورة الملك الذي يفزع إليه الملوك للنظر في أمر يوسف كلما خافوا على ملكهم من تدخله أو يلجأ إليه سراة الأندلس كلما خشوا على الأندلس أن تعود نصرانية كما كانت فيكاشفونه بخشيتهم ويرغبون في مراسلة ابن تاشفين في العبور إليهم بجيشه المظفر. ومرة أخرى نجد المعتمد في حوار شديد مع ملوك الطوائف الذين يحسبون ألف حساب في نزول ابن تاشفين بالجزيرة فيحاورهم المعتمد في تصميم واعتزاز صارخاً في وجههم: رعي الجمال خير من رعي الخنازير! ثم يبادر إلى تأليف الوفد الذي يتوجه إلى المغرب بقصد استصراخ ابن تاشفين. أما بعد نزول

ابن تاشفين في أرض الأندلس فيضطلع المعتمد بمهمة الحفاوة به ومرافقته وتدبير خطط المعركة معه ثم نراه في الميدان شهماً مجاهداً وبطلاً مِغواراً.

وما كان كل هذا ليعزب عن بال ابن تاشفين الذي عرف للمعتمد حقه وفضله فبوأه المكان الخليق به في الإمارة على جيوش الأندلس الزاحفة إلى العدو في شرف السبق إلى الجهاد في طليعة المسلمين. وفي كتاب الفتح الذي أرسله ابن تاشفين إلى المغرب أثنى على المعتمد ثناء حسناً فقال: ولم يثبت منهم (أي من أمراء الأندلس المنهزمين) إلا زعيم الرؤساء والقواد أبو القاسم المعتمد بن عباد فأتى أمير المسلمين وهو مريض الجناح مريض عناء وجراح فهنأه بالفتح الجميل والصنع الجليل». ويحدثنا عبد الواحد المراكشي في المعجب أن ابن تاشفين لما جال في ربوع الأندلس بعد العودة من معركة الزلاقة كان «يظهر إعظام المعتمد وإجلاله ويقول مصرحاً: إنما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت أمره وواقفون عندما يحده».

ويحدثنا كذلك هذا المؤرخ أن من أول ما قام به ابن تاشفين بعد حلوله بأرض الأندلس هو الإصلاح بين المعتمد وبين ابن رشيق الذي تغلب على مرسية على أن يتنازل هذا عن فريسة لابن عباد الذي يعوضه عن ذلك مَالاً ويقلده أضخم ولاية في إقليم إشبيلية.

كيف انقلب ملوك الطوائف على ابن تاشفين:

بعد معركة الزلاقة التي بها «قطع الله طمع الأدفونش عن الجزيرة بعد أن كان يقدر أنها في ملكه وأن رؤساءها خدم له» (معجب 79) لم يرد ابن تاشفين أن يخلد جيش المسلمين إلى الراحة ويلزم السكينة تاركاً للعدو المنهزم الفرصة التي تمكنه من جبر كسره وحشد قوته وإعادة الكرة على المسلمين انتقاماً منهم ومحواً لما لحقه قبل من عار الهزيمة والفرار. وبهذه المناسبة نذكر ما أسر به الأدفونش قبل المعركة إلى بطانته وأهل مشورته فقال لهم: إني رأيت أني إن أمكنتهم من الدخول إلى بلادي فناجزوني فيها وبين جدرها وربما كانت الدائرة علي يستحكمون البلاد ويحصدون من فيها غداة واحدة. ولكني أجعل يومهم معي في حوز بلادهم فإن كانت علي اكتفوا بما نالوه ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلا بعد أهبة أخرى فيكون في ذلك صون لبلادي وجبر لمكاسري وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خفت أن يكون فيّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها».

هذه خطة الفرنج التي ساروا عليها لما بادروا بالغارة على المسلمين في أرضهم. وفي كتابه لابن عباد قبل القتال زعم الأدفونش عجباً منه وخدعة ومواراة: أن يوسف بن تاشفين قد تعنى بالمجيء من بلاده وخوض البحر وهو يكفيه العناء فيما بقي ولا يكلف المسلمين تعباً لذلك سيمضي إليهم ويلقاهم في بلادهم رفقاً بهم وتوفيراً عليهم. وقد توهم أن المسلمين من الغفلة بحيث يستطيع أن يخدعهم بمثل هذا القول السخيف

ويدالسهم حتى يغتروا ويقعوا في الأشراك التي نصبها لهم. ولكن المسلمين أعقل من أن يحسنوا الظن بالعدو ويحسبوه صادقاً وهو كاذب ميان وقد جرب الأدفونش على حسابه وحساب جيشه ما اعتمده من المكر والخديعة للإيقاع بالمسلمين الذين لم يفز عليهم لا بمكيدة ولا بسلاح.

ولئن تمكن الفرنج من حمل الحرب إلى أرض المسلمين فقد دارت عليهم الدائرة ولكن لم يكن ما أرادوا وهو أن يكتفي المسلمون بما نالوه من الغلب والظفر. فإن ابن تاشفين كما قلنا أراد بعد الانتصار على الأدفونش أن يبعد الحرب عن أراضي المسلمين ويوالي الغزو والجهاد في أرض الفرنج ولعله قد رمى بذلك إلى غايات هي تعزيز النصر بمتابعة الهجوم، والحرص على قطع طمع الفرنج عن بلاد الإسلام بموالاة الغزو الذي يضعف من شأنهم ويكسر شوكتهم، والعمل على استرجاع ما ضاع من المعاقل والثغور، والدئوب في إشغال المسلمين وملوكهم بحرب الأعداء عن حرب بعضهم بعضاً إذ بهذا يمارسون من جديد حياة الخشونة والرجولة ويلازمون وحدة الصفوف التي بها نالوا العزة وأحيوا للأندلس مجدها الغابر. ومهما كان فإن مواصلة الجهاد كانت من ابن تاشفين رأياً صائباً وتدبيراً محكماً وحزماً موفقاً خابت معه ظنون الأدفونش ـ وأكثر الظنون كما يقال ـ وفشلت خطته التي رامها بالمضي إلى المسلمين في أرضهم. شاء الله أن لا يقنع المسلمون من عدوهم بالفل والغنائم والإياب عوداً على بدء. بل أبى ابن تاشفين إلا أن يستمر الجهاد في أرض العدو وأن يخوض غماره الأندلسيون الذين هم أحق به في بلادهم من سواهم.

وكأن ابن تاشفين حين اعتزم ندب جيش من جيوشه للدأب في الغزو والقتال خاطب الأندلسيين بما خاطب به علي بن أبي طالب جماعة القاعدين حثاً لهم على الجهاد فقال: «قد تواكلتم وتخاذلتم حتى شنت الغارات عليكم وملكت عليكم الأوطان. والله يميت القلب ويجلب إليهم اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم. فقبحاً لكم وترحاً حين صرتم غرضاً يرمى يغار عليكم ولا تغيرون وتغزون ولا تغزون ويعصى الله وترضون. ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً وسراً وإعلاناً وقلت لكم اغزوهم قبل أن يغزوكم. فوالله ما غزا قوم في عقر دارهم إلا ذلوا». فيظهر من روايات بعض المؤرخين أن ابن تاشفين خلف وراءه جيشاً أناط به القيام بشن الغارات على أرض العدو فسار هذا الجيش وفق الخطة المرسومة يفتح المعاقل والحصون ويتوغل في أرض الأعداء ـ ويتحمل هكذا وحده تبعات الحرب ويعاني دون أهل الأندلس شدائد الحياة وكريهة الجهاد وقد استاء القائد المرابطي من تقاعد الأندلسيين وتخلف الأمراء عن المساهمة في حرب العدو كما هو الواجب عليهم كافة. فكاتب ابن تاشفين «يعرفه أن الجيوش بالثغور مقيمة على مكابرة العدو وملازمة الحرب والقتال في أضيق عيش وأنكده وملوك الأندلس في بلادهم وأهليهم في أرغد عيش وأطيبه». وقد شق على ابن تاشفين أن يعود الأندلسيون إلى ما كانوا عليه من رخاوة العيش وانحلال العزائم والتواكل والتخاذل وعزّ عليه أن يؤول أمر الأندلس إلى هذه الحالة التعسة بعد أن تحسنت الأحوال وتجددت الآمال. ولكن ابن تاشفين لم يكن بالرجل الذي يتهاون

بأمور الحرب ويريث عما أخذ فيه من الجهاد. فبمجرد ما علم من قائده ما جعله يستريب بملوك الأندلس أمره بترحيلهم إلى المغرب ليريح منهم الأندلس ومن امتنع منهم ينازله حتى يقضي عليه قضاءً مبرماً. ومما يدل على أن ابن تاشفين لم يرد بهذا اغتنام الفرصة فيهم قصد الاستيلاء على ممالكهم أنه أشار على قائده بتنفيذ الخطة أولاً على الأمراء الممتنعين الذين يوالون أرض العدو كما أمره بتحري ابن عباد وجعله آخر من يلجأ معه إلى العنف والقوة. وبهذه الخطة الحازمة مع ملوك الطوائف المتخلفين عن القتال المنهمكين في ملاذ الحياة وقتما يكابد جيش المسلمين المرابطين المكاره والأهوال في سبيل الله رمى ابن تاشفين إلى ضمان نتيجة المعركة الفاصلة التي تحطمت فيها مع جيوشه مطامع الأدفونش في امتلاك الأندلس وإبادة الإسلام منها وإعادتها نصرانية كما كانت من قبل. وإن هذه لغاية يهون أمامها كل شيء: التضحية بالحياة وتطريد ملوك الطوائف الذين جنوا على أنفسهم بالجناية على الأندلس وأهلها فحق عليهم أن تأخذهم صاعقة العذاب الهون.

وتحدثنا رواية أخرى أن يوسف بن تاشفين اضطر عقب وقعة الزلاقة إلى الرحيل عن الأندلس بسبب وفاة ابنه وأنه جاز إليها مرة ثانية سنة إحدى وثمانين وأربعمائة بطلب من المعتمد بن عباد، وقد أتى إلى المغرب مستنفراً أمير المسلمين ومستنجداً به على الأدفونش الذي أخذ يغير ويقتل ويأسر في كل يوم في أطراف مملكة ابن عباد حتى بلغ استياؤه من ذلك أشده وضاق بأمر الفرنج ذرعاً. فلما حلّ ابن تاشفين بالجزيرة الخضراء كاتب أمراء

الأندلس على العادة ليشاركوا في الجهاد بما استطاعوا وواعدهم الحصن الذي كانت تشن منه الغارات على أرض المسلمين لكنهم توقفوا عن إجابة دعوة ابن تاشفين ولعلهم اعتبروا هذا الجهاد يخص ابن عباد دونهم لأن مملكته هي التي كانت عرضة الغارات النازلة من ذلك الحصن. وهذا الخذلان هو الذي كان ديدن ملوك الطوائف وهو الذي أطمع فيهم الأعداء وذاقوا من جرائه الوبال والنكال.

نازل ابن تاشفين الحصن ولم ينضم إليه من ملوك الأندلس إلاّ ابن عباد وأمير مرسية ابن عبد العزيز. أما غيرهما فقعدوا في قصورهم يتلذذون بالنعم ويستطيبون الراحة وقد ألقوا بمصلحة الإسلام والمسلمين وراء ظهورهم كأن لم يَعْنِهِم منها ما عنى ابن تاشفين ومن لف لفه. وأثناء الحصار حدث خلاف بين ابن عباد وابن عبد العزيز فاعتقل أمير المسلمين صاحب مرسية وأسلمه إلى ابن عباد فاختلت أحوال الجيوش بسبب اضطراب جيش ابن عبد العزيز وفراره. وقد نتج عن هذا أن ابن تاشفين لم يستمر في الحصار بل عاد إلى المغرب مستاء مما حدث وساخطاً على ملوك الأندلس الذين استغواهم الشيطان فأضلهم لذلك أحجموا عن تلبية النداء وإجابة الدعوة إلى الجهاد.

ويخبرنا ابن خلدون أن أمراء الطوائف إنما تثاقلوا عن الانضمام إلى جيوش ابن تاشفين بعد جوازه الثاني (لما أحسوا من نكيره عليهم لما يسومون به رعاياهم من الظلامات والمكوس وتلاحق المغارم فوجد عليهم وعهد برفع المكوس وتحري العدلة، ويقول ابن خلدون أيضاً إن فقهاء الأندلس هم الذين سعوا لدى يوسف

ابن تاشفين طالبين منه العمل لرفع المكوس والظلامات التي كان يعانيها المسلمون ويشكون ضررها عليهم، فتقدم بذلك إلى ملوك الطوائف الذين كانوا يخسفون رعاياهم ويحملونهم ما لا يطيقون جلباً للأموال التي يصرفونها في سبيل العيش الرفيه ويبذرونها في غير صالح الرعية وفي غير ما يرضي الله. وقد امتثل ملوك الطوائف ما أشار به عليهم ابن تاشفين في سبيل المسلمين حتى إذا عاد إلى المغرب عادوا لديدنهم في جبوة الأموال بغير حقها وإعنات الرعية شأن البغاة والمسيطرين.

وفي سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة جاز ابن تاشفين جوازه الثالث إلى الأندلس فحاصر طليطلة التي كان بها الأدفونش ووالى الغارات على بلاد الفرنج وفي هذه المرة أيضاً لم يأته أحد من ملوك الأندلس كأن الجهاد لا يعنيهم أصلاً أو لأنهم يكلون ذلك إلى ابن تاشفين الذي يكفيهم شر عدوهم وهم عاكفون على التمتع بالعيش الهنيء وإضاعة الحياة تفنناً في اللذائذ واشتغالاً بالسفاسف وإقامة على المخزيات. كيف بعد هذا لا يشوط الغضب بابن تاشفين وكيف يبقى مسالماً لهؤلاء الملوك الأرذلين؟ إن هذا الموقف منهم لم يكن مجرد إعراض بل كان خذلاناً وكان عداء. وقد أدرك ابن تاشفين أن الواجب يقضي عليه بالنظر في أمر هؤلاء الخصوم الذين ملّ خبثهم وسئمهم المسلمون كافة. وحيث أنهم أقلعوا عن ظاهر ولائهم لأمير المسلمين ونكثوا عهد الوفاء الذي كان شرط مسالمتهم وظاهروا عليه العدو بالقعود والخذلان فلم يبق أي مجال للتريث في شأنهم بل تعين على ابن تاشفين وهو في دار الحرب بصدد الجهاد في سبيل الله أن يقطع

دابر شرهم صوناً للجيوش من آفاتهم وحفظاً لأغـراض الجهاد من فسادهم وإراحة للمسلمين من غوائلهم. ومن المستحيل على أمير المسلمين أن يستمر في حركة الجهاد بأرض الأندلس وهو محاط بهؤلاء الثعالب. وبعبارة أخرى لا يمكنه بحال أن يواجه أعداءه من الفرنج ويستظهر خصومه من أهل الأندلس إذ يكون بين نارين نار الحرب أمامه ونار الفتنة وراءه. فأول شرط في استئناف القتال هو تأمين حياة الجيوش الآخذة في الجهاد بضمان الأمن الداخلي في طول الأندلس وعرضها. ولا سبيـل إلى توطيـد الأمن داخل الأندلس المسلمة إلا بالقضاء على أسباب الفتنة ورؤساء الضلال الذين لا يستنكفون ـ عند الحاجة ـ من ممالأة الأعداء والاستظهار بهم على المسلمين.

يقـول ابن خلدون إنه لما انقبض ملوك الطوائف عن ابن تاشفين وتوافقوا على قطع المدد عن عساكره ومجالاته ساء نظره وأفتاه الفقهاء وأهـل الشورى من المغـرب والأندلس بخلعهم وانتزاع الأمر من أيديهم وصارت إليه بذلك فتاوى أهل المشرق الأعلام مثل الغزالي والطرطوشي وغيرهما.

كل هذه الأسباب الخطيرة وهذه الاعتبارات المهمة جعلت ابن تاشفين يبادر إلى تطهير الأندلس من ملوك الطوائف لأنهم أفظع شر نزل بالإسلام في تلك البلاد وهم سبب ما آل إليـه أمر المسلمين هناك من الضعضعة وسوء المنقلب.

وكيف يتردد ابن تاشفين الذي طالما اعتزت به الأندلس على عدوها في استئصال شأفة الملوك الذين انقلبوا عليه حتى وجد

فيهم من صالح العدو المنهزم أمس واستعان به على أمير المسلمين كأمير غرناطة عبدالله بن بلكين بن باديس بن حبوس. وقد كان هذا الأمير الغادر الخئون أول من نازله ابن تاشفين بعد عودته من حصار طليطلة فلم يفده التحصن ولا عون الفرنج شيئاً، بل حوصر حتى اضطر إلى طلب الأمان من ابن تاشفين فأمنه واحتاز بلاده ثم رحله وأخاه تميم بن بلكين أمير مالقة وعائلتهما إلى مراكش فأنفق عليهما إلى أن توفيا بها.

ثم عاد ابن تاشفين إلى المغرب بعد أن ولى على الأندلس قائده سير بن أبي بكر وعهد إليه بتتميم الخطة التي بدأها مع ملوك الطوائف فتوجه إلى بطليوس وأخذ أميرها عمر بن الأفطس فقتله مع ابنه سنة 489 هـ لأنهم مالؤوا الأدفونش على أمير المسلمين ووعدوه بمدينة بطليوس ومن ملوك الأندلس الذين اعتصموا بالنصارى أمير سرقسطة المستعين بن هود «ولم يزل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يبعث جيوشه وقواده إلى الأندلس برسم الجهاد للروم وخلع أمرائها المستقلين عليها حتى ملك جميع بلاد الأندلس واستوسق له أمرها. وفي سنة 496 هـ أخذ أمير المسلمين البيعة لولده عليّ بقرطبة فبايعه جميع أمراء لمتونة وأشياخ البلاد وفقهاؤها (ابن أبي زرع).

إن الإنسان ليقضي العجب من أمر ملوك الطوائف. فقد كانوا قبل ابن تاشفين عرضة للفرنج يغزون أراضيهم كل يوم ويخربون جهات المسلمين ويبطشون بهم قتلاً وسبياً وعذاباً. وهؤلاء الملوك أمام العدو متنابذون متشاكسون متشاقون لا يستطيعون له رداً بل كانوا يراضونه رضاء فيجاملون ويصانعون

ويبذلون الهدايا والتحف من حين إلى آخر» ولم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الأتاوة وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من أن يحتفل لهم (معجب 79/78) وبعبارة فقد كانوا لا يجدون مغضة ولا ندلة في هذه التبعية التي ألفوها وكانوا يفضلونها على كل ولاء لأمير المسلمين يوسف بـن تاشفين الذي رام انتشالهم من مهواة الضعة والاستكانة وعمل لإخراجهم من ذلة الخضوع والمهانة إلى عزة الإسلام والإمارة الحقة.

لقد كانوا يخشون حقاً على ممالكهم. لكنهم كيف خشوا عليها من أمير المسلمين ولم يخشوا عليها من الفرنج الذين كانوا يغيرون عليهم كل يوم ويحاصرون معاقل المسلمين وحواضرهم في كل جهة ويفرضون على أولئك الملوك أنفسهم الجزية في كل سنة. فهل كان في هذا كله ما يعد صوناً لتلك الممالك وأمناً لأصحابها؟.

أما ابن تاشفين فلم يأت إلى الأندلس إلا بعد أن ضاقت ذرعاً بغارات الفرنج واعتسافاتهم المتزايدة وهب رؤساؤها لمطالبة المرابطين بالنجدة والإعانة. ولما حل بالأندلس لم يطمع في ملك أحد من الأمراء بل جاهد جهاد المستميت في سبيل تحطيم قوة الأعداء وتبديد جموعهم حتى لا يبقى من خطر يهدد بلاد المسلمين التي كان عليها ملوك الطوائف ولم يفرض ابن تاشفين أي ضريبة على هؤلاء الملوك وإنما حملهم بطلب من فقهاء الأندلس على أن يبروا رعاياهم ويعدلوا فيهم معدلة الإسلام (كل ذلك ابتغاء الأجر والثواب لا تدخلاً في شؤونهم بما لا يرضى الله عنه والمؤمنون).

ولو فرضنا أن ملوك الطوائف كانوا معرضين لزوال الملك عنهم على يد ابن تاشفين فخير لهم أن يسلموه إلى أمير المسلمين ذي الأيادي البيضاء على الأندلس وشعبها وأمرائها من أن يفقدوه على يد طاغية الفرنج الذي لم يروا منه إلا ما يخزيهم ويسخط الله عليهم في الدنيا والآخرة. كان ملوك الطوائف أعداء فيما بينهم وقد استهدفوا بتعاديهم لغزو الفرنج وسيطرتهم. ثم عادوا أمير المسلمين ابن تاشفين فأصبحوا في تطاحن بينهم وتحارب مع المسلمين والنصارى. وهكذا انطبقت عليهم رحى الحرب بفلقيها فسحقتهم سحقاً أراح منهم البلاد والعباد فأصبحت كلمة الله هي العليا.

المعتمد يقلب ظهر المجن لابن تاشفين:

قبل الكلام على انقلاب المعتمد على يوسف بن تاشفين ينبغي أن ننظر في موقف آل بني عباد من البربر. فقد كان المعتضد بالله العبادي والد المعتمد خصماً كبيراً للبربر المقيمين بجوار أشبيلية في قرمونة وما حولها... فلم يزل يصرف الحيلة تارة ويحفز الجيوش أخرى إلى أن استنزلهم ففرق كلمتهم وشتت منتظم أمرهم ونفاهم عن جميع البلاد وصفت له أموره (معجب 56).

وقد مدحه الشاعر ابن عمار في قصيدة يصف فيها وقعة أنزلها بالبربر فقال:

شقيت بسيفك أمة لم تعتقد
إلا اليهود وإن تسموا بربرا

أثمرت رمحك من رؤوس كماتهم
لما رأيت الغصن يعشق مثمرا
وخضبت سيفك من دماء نحورهم
لما عهدت الحسن يلبس أحمرا

ويحكى أن المعتضد لما سمع هذه القصيدة استحسنها وأجاز الشاعر بمال وثياب ومركب وألحقه بديوان الشعراء.

وقد لزم ابن عمار المعتمد منذ كان شاباً وقويت صحبتهما واشتدت علاقتهما «إلى أن صار ابن عمار ألزق بالمعتمد من شعرات قصه وأدنى من حبل وريده وكان المعتمد لا يستغني عنه ساعة من ليل ولا نهار (معجب 67) ومن هذا ندرك أن بني عباد كانوا يناوئون البربر وكانوا يضمرون لهم الكراهة ويزدرونهم بقدر ما كانوا معتدين بأنفسهم ومعتزين بشدة ملوكيتهم.

وإن ما انطوت عليه نفس المعتمد من التعاظم والخنزوانة وشدة الملوكية وكراهة البربر وازدرائهم لم يمنعه من الالتجاء إلى دولة المرابطين، والتودد ليوسف بن تاشفين، وإظهار التعلق والاعتزاز به، والجد في استهمامه بأمر الأندلس.

وقد حظى المعتمد عند ابن تاشفين حظوة لم يدركها غيره من ملوك الطوائف وعظمات الأندلس. ومواقف ابن عباد في الجهاد مع ابن تاشفين قد كانت كلها ممتازة جديرة بكل تقدير وإعجاب حتى إن أمير المسلمين أثنى على ثباته وصدق قتاله في كتاب الفتح الذي سماه فيه «زعيم الرؤساء والقواد».

ولما دخل ابن تاشفين إلى الأندلس احتفى به المعتمد احتفاء

بلغ المنتهى. وكان ابن تاشفين يصرح بأنه إنما هو وجيشه في ضيافة ابن عباد. وعندما حلّ بشرق الأندلس سعى في إصلاح ذات البين بين المعتمد وابن رشيق صاحب مرسية. وبفضل ابن تاشفين تنازل ابن رشيق عن مرسية للمعتمد الذي عوضه مالاً وقلده ولاية في جهة إشبيلية. ثم أن ابن تاشفين لما شكى إليه المعتمد ابْنَ عبد العزيز صاحب بلنسية أمر بالقبض عليه وإسلامه إلى ابن عباد. وباختصار فقد كانت للمعتمد معاظم وحقوق دأب ابن تاشفين على رعيها إلى أن فسدت العلائق بين صاحب إشبيلية وأمير المسلمين.

وقد بدأ المعتمد يقلب ظهر المجن لابن تاشفين منذ الجواز الثالث إلى الأندلس وذلك في سنة 483 هـ. فقد انضم عباد إلى ملوك الطوائف في انقباضهم عن أمير المسلمين الذي أتى برسم الجهاد وحصار الأدفونش في طليطلة. ولمَّا استنزل ابن تاشفين بعض ملوك الطوائف الذين قاطعوه وتحزبوا مع النصارى عليه مثل صاحب غرناطة عبدالله بن بلكين ازداد المعتمد انقباضاً عن أمير المسلمين واشتد سوء ظنه به وأصبح يخشى على نفسه وملكه ما لقيه غيره من ملوك الطوائف الذين عادوه وصالحوا الفرنج واستنصروهم عليه. ويقال إن السبب في خروج المعتمد على ابن تاشفين هو أنه كان يطمع في غرناطة فحاول أن يضمها إلى ملكه فأبى ابن تاشفين أن يملكه إياها.

ونرى أن السبب الحقيقي الذي حمل ملوك الطوائف على منابذة ابن تاشفين ومناوأته ولو بمآزرة الفرنج هو أن قلوب أهل الأندلس كانت قد أشربت حب يوسف وأصحابه الأمر الذي حول

الأنظار كلها إليه وجعل ذكره ينتشر في الآفاق ونفوذه يتوغل في النفوس. وقد خشى ملوك الطوائف من عاقبة تدخل ابن تاشفين في شؤون الأندلس وجهاده فيها جهاداً يزيد في قوته، ويعلي شأنه في كل الممالك، ويرفع أمره وإمارته فوق كل أمر وإمارة في تلك البلاد. وحيث كان المعتمد أعظم ملوك الأندلس على الإطلاق فقد أصبح أكثرهم خشية وأشدهم خصومة لأمير المسلمين يوسف ابن تاشفين. وليس ببعيد ـ فيما نظن ـ أن يكون ابن عباد قد رمى بترغيب ابن تاشفين في جهاد العدو بالأندلس، وبما أظهره له من الحفاوة والإكرام، وبما خصه به من المصاحبة في الحل والترحال، إلى غاية بعيدة هي أن يولى سلطان المغرب من الجميل ما يكسبه عطفه وثقته ويجلب مطامعه في نيل السيادة على الأندلس كلها. وقد كان للمعتمد، من الطموح وعلو الهمة وشدة الملوكية، ومن العزم والحزم وضخامة الملك ما يغريه على الطمع في إمارة الأندلس. أما ابن تاشفين فلم يكن ليجاري المعتمد في نواياه ويساعده على نيل مبتغاه، لأنه لم يعبر إلى الأندلس إلا بقصد الجهاد وإعزاز ملّة الإسلام وإعلاء كلمة الله. ومن الوهم أن يعتقد المعتمد أن ابن تاشفين سيخوض بجيوشه المعارك ويغامر برجاله في الحروب والفتن لتوطيد ملك وتغليب أمير على غيره من أمراء الأندلس. ولا عذر للمعتمد في جهل أو تجاهل مقاصد أمير المسلمين فيوم ركب البحر بجيوش المرابطين مولياً وجهه شطر الأندلس رفع يديه وهو على ظهر السفينة فقال: اللّهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا صلاحاً للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا

نعبره. ومنذ وطىء أرض الأندلس وهو لا يفكر إلا في الجهاد حتى إن ابن عباد لما طلب منه دخول إشبيلية دار ملكه ليستريح فيها أياماً حتى تزول عنه وعثاء السفر ثم يقصد قصده أبى عليه وقال: إنما جئت ناوياً جهاد العدو فحيث ما كان العدو توجهت وجهه (معجب 76) ومرة أخرى قال للمعتمد وكأنه استبطأ يوم اللقاء: هلمّ إلى ما جئنا له من الجهاد وقصد العدو (معجب 77). ولما جمعت الغنائم التي غنمها المسلمون في وقعة الزلاقة واستؤذن فيها ابن تاشفين عفّ عنها وآثر بها ملوك الأندلس وعرفهم أن مقصوده الجهاد والأجر العظيم وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم (الاستقصا ج 1 ص 118) وحكى ابن خلكان أن أمير المسلمين عند مجيئه إلى الأندلس وقصده ملاقاة الأدفونش قد تحرى المسير بالعراء من غير أن يمر بمدينة أورستاق حتى نزل الزلاقة تجاه الأدفونش ولما فرغ من الوقعة رجع عوده على بدئه كل ذلك تورع منه وتكرم وتخفيف عن الرعايا. فهذا كله يبرهن على أن ابن تاشفين لم يتحرك إلى الأندلس إلا بقصد الجهاد في سبيل الله ولم يشأ أن يجني من هذا إلا الأجر والثواب أما الحطام فقد آثر به ملوك الأندلس الذين كانوا كلهم تهافتاً على الدنيا وحرصاً على لذائذ الحياة.

تلك مطامع المعتمد وهذه مقاصد ابن تاشفين ويوم اصطكت تلك المطامع بهذه المقاصد، واصطدمت أغراض ابن عباد بنوايا ابن تاشفين تطاير شرّ الخلاف، وأعضل سوء التفاهم، وتغير الموقفان، وانفتح باب العراك على مصراعيه، وختمت المأساة بنكبة المعتمد وترحيله إلى المغرب.

وقد ساق المؤرخون حديث هذه النكبة مساقين مختلفين. فابن أبي زرع في «القرطاس» يذهب إلى أن ابن تاشفين قبل عودته من جوازه الثالث إلى المغرب كان قد ازداد تغيراً على المعتمد بسبب سعايات دبرها خصوم هذا الأمير. فلما استقر ابن تاشفين بمراكش قلد قائده يسير بن أبي بكر اللمتوني ولاية الأندلس العامة وأطلق له التصرف في أمورها بدون استثناء ولا قيد ولا شرط. ويفهم من سياق الحديث أن يسير بن أبي بكر الذي تحقق خروج المعتمد على أمير المسلمين وتغير قلب هذا عليه بما بلغه عنه من سيء الأخبار لما فوض إليه سلطان المغرب أمر الأندلس دون أن «يأمره في ابن عباد بشيء» لم يعزب عنه مغزى هذا «التفويض» وهذا «السكوت» فعمد إلى «تصفية الحساب» مع المعتمد وكأنه قبل استعمال القوة وحسم «القضية» بحد السيف ووسيلة القهر أراد أن يمكن المعتمد من فرصة الرجوع عن زيغه والإقلاع عن نكوصه أو يقيم عليه الحجة النهائية تبريراً لما اعتزم عليه من الخطط التي بها ينزل عقابه على ابن عباد المتمرد الأنكب. لذلك كان أول ما عمله سير بن أبي بكر في هذا الصدد أن قصد إشبيلية ظناً أن يلقى به جيوش المرابطين من الاستقبال والاحتفاء والضيافات. ولكن ابن عباد أصر على إعراضه وتمادى في تجافيه وتعمد «الإضراب والمقاطعة». فاعتبر القائد المرابطي كل هذا تعظماً وتحدياً وعده على المعتمد اجتراماً يَسْتَحِقُّ العذاب. ثم أراد سير بن أبي بكر عندما انصرف عنه ابن عباد وتحصن أن يزيد في توفير الحجج عليه ويبالغ في اكتناه «الموقف» و «استنطاق» الأحوال، فراسل المعتمد طالباً منه التخلي عن البلاد والدخول

في طاعة أمير المسلمين فأبى ابن عباد وعند ذلك لم يبق أي مجال «للتفاوض» بل تحتم تحكيم القوة وإعمال الحسام. ولم يمض شهر ونصف على إشهار الحرب على ابن عباد حتى فتحت جميع مملكته إلا قاعدة مملكة إشبيلية ولما تعاظمه أمر المرابطين وأعياه الحصار أقدم على ما هو أفظع وأخزى من كل ما أسلفه من القبائح والمحفظات ذلك خيانة الإسلام والمسلمين بموالاة الأعداء والاستغاثة بهم على جيش المرابطين وفي مقابل هذا وعد الأدفونش «بإعطاء البلاد وندل الطارف والتلاد إن هو كشف منه ما هو فيه من الحصار (ابن أبي زرع) ولكن المدد الذي توارد عليه من الفرنج لم ينسف جند الله عن مخنقه فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً هلك فيه خلق كبير من المعسكرين ثم ولى الفرنج مدبرين وهزموا شر هزيمة فاقتحم المرابطون إشبيلية وأوثقوا المعتمد وذويه في القيود وأركبوهم سفينة حملتهم في نهر إشبيلية إلى المغرب حيث قضى المعتمد بقية عمره في سجن أمير المسلمين بأغمات. هذه قصة المعتمد الذي جنى على نفسه بتحدي قوة المرابطين ثم بالاستنجاد عليهم بالنصارى الذين أراد أن يسلم إليهم بلاد الإسلام وحاضرة من أكبر حواضر الأندلس فيفقد بهذا آخر ما بقي له من ملكه ويصبح عبداً ذليلاً وطريداً شريداً بينهم دون قومه من المسلمين. وبهذا استنزل عليه غضب الله ونال عذابه في الدنيا على يد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

وتذهب رواية عبد الواحد المراكشي لنكبة المعتمد مذهباً آخر وهو أن ابن تاشفين منذ وطىء بلاد الأندلس وعاين ما قابله به المعتمد من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية كان هذا أول ما

أوقع في نفس يوسف التشوف إلى مملكة جزيرة الأندلس، «وأنه أثناء مسيره إلى لقاء الفرنج واختراقه لممالك الأندلس التي على طريقه واجتماعه بأمرائها» جعل يظهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس ويتشوق إلى مراكش ويصغر قدر الأندلس ويقول في أكثر أوقاته: «كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن نراها فلما رأيناها وقعت دون الوصف وهو في ذلك كله يسر حسواً في ارتغاء» ويرى المراكشي أن المسرة العظيمة التي أعقبت وقعة الزلاقة في جميع بلاد الأندلس وما أخذ فيه المسلمون هناك من التيمن بأمير المسلمين والتبرك به وكثرة الدعاء له في المساجد وعلى المنابر وانتشار الثناء له في سائر الجهات كل ذلك «زاده طمعاً» في امتلاك الأندلس لأنه هو الذي أنقذها من الفرنج وهو الذي غدا حامي حوزتها دون أمرائها. ثم إن ابن تاشفين ـ حسب حديث المراكشي ـ لما أيقن أن حبه قد تمكن من الأندلسيين وتغلغل وده وإعظامه في أفئدة المسلمين أحب أن يجول في ربوع الأندلس على سبيل «التفرج والتنزه وهو يريد غير ذلك» ويفهم من سياق الكلام أن ابن تاشفين أراد أن ينفي عن «جولته» الشكوك، ويحفظها من الظنون، ويطمن المعتمد الذي ربما داخلته الريب وساورته الهواجس فعمد إلى إظهار الإعظام والإجلال لابن عباد مصرحاً بأنه إنما نزل الأندلس ضيفاً على هذا الأمير وأنه يرعى حقوق الضيافة بالوقوف عند أمره ونهيه. والشيء الذي اتفق فيه المراكشي مع غيره من المؤرخين هو أن خصوم المعتمد سعوا ضده لدى ابن تاشفين حتى غيَّروه عليه. ومن جملتهم بل أكبرهم المعتصم صاحب المرية فقد حظى عند ابن تاشفين حظوة كبيرة

بعدما لقيه «بهدايا فاخرة وتحف جليلة وتلطف في خدمته حتى قربه أمير المسلمين أشد تقريب» ومما ساعد على هذا التقريب ثناء المعتمد على المعتصم لدى أمير المسلمين. وهذان الأميران كانا شديدي المنافسة والحسد والخصومة لكنهما اصطلحا في الظاهر قبل عبور ابن تاشفين إلى الأندلس.

ويحدثنا المراكشي أن المعتصم لما أدرك الحظوة لدى ابن تاشفين أراد أن يستغلها ضد خصمه الكبير «فكان من جملة ما ألقى إلى أمير المسلمين أن جعل يقرر عنده عجب المعتمد بنفسه وفرط كبره، وأنه لا يرى أحداً كفؤاً له، وزعم أنه قال له في بعض الأيام وقد قاله له المعتصم: طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة (يعني أمير المسلمين): لو عوجت له إصبعي ما أقام بها ليلة واحدة هو ولا أصحابه وكأنك تخاف غائلته وأي شيء هذا المِسكين وأصحابه؟ إنما هم قوم كانوا في بلادهم في جهد من العيش وغلاء من السعر جئنا بهم إلى هذه البلاد نطعمهم حسبة وائتجاراً فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم، إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم وأعانه على ذلك قوم من وجوه الأندلس إلى أن بلغوا ما أرادوه من تغير قلب يوسف أمير المسلمين على المعتمد «ولا يبعد أن يكون المعتمد قد أفضى بهذا إلى المعتصم لأننا نعلم أن آل بني عباد كانوا أعداء للبربر وكان شعراؤهم يمدحون مآثرهم في محاربة البربر وتحقيرهم.

وينسب المراكشي إلى ابن تاشفين أنه بعد عودته إلى المغرب تحدث إلى خاصة الجزيرة فقال لهم: كنت أظن أني قد

ملكت شيئاً فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي فكيف الحيلة في تحصيلها؟.

فنرى من سياق المراكشي لقصة المعتمد مع ابن تاشفين أنه لم يكن للمرابطين من سبب في تملك الأندلس إلا الطمع الدنيوي أولاً والانتقام الشخصي ثانياً. ونحن لا ننزه ابن تاشفين عن أن يكون قد طمح إلى الاستيلاء على الأندلس والانتقام من خصومه الذين ناصبوه العداوة وحاربوا في شخصه وجيشه الإسلام وجماعة المسلمين. فقد حق لابن تاشفين أن يطمح إلى أخذ الجزيرة ويعمل لعقاب مناوئيه وخصوم دولته فيها. لأن الأندلس كانت قبله بصدد التلاف من استيلاء النصارى عليها وأخذهم الأتاوة من ملوكها قاطبة (معجب 79) فلما قهر الفرنج وخضد شوكتهم أنقذ الأندلس من شر كان يتهددها من سائر الجهات ثم ثبت على الجهاد فيها حفظاً لها وكفاً للعدو عنها. وإن انعقاد سائر القلوب على محبته وإفتاء الفقهاء غرباً وشرقاً بخلع ملوك الطوائف المتخاذلين الموالين للنصارى قد كانا سببين قويين من شأنهما ترغيب ابن تاشفين في ضم الأندلس إلى دولته القوية التي أصبحت تتزعم نصر الإسلام وحماية المسلمين في المغرب والأندلس. ولعل ابن تاشفين قد اعتبر ميل القلوب إلى دعوته واعتصام الفقهاء في المغرب والمشرق بأمره اقتراعاً إسلامياً عاماً وإقراراً شرعياً له بصفته أمير المسلمين. ومما يجعلنا ننفي الطمع الدنيوي عن ابن تاشفين أسلوب حياته وورع نفسه وعفته عن الغنائم التي غنمها من الفرنج وسمح بها كلها لملوك الأندلس على سبيل الإيثار. وقد صرح مراراً أنه لا يريد من جهاده إلا

الأجر والثواب حتى إنه لما ركب البحر إلى الأندلس دعا الله أن يصعب عليه الجواز إن علم أن فيه غير صلاح المسلمين. ومما يجعلنا نبرىء ابن تاشفين من حب السيطرة والاستيلاء أنه بالرغم من قوة دولته وبعده عن المشرق» خاطب الخليفة لعهده ببغداد وهو أبو العباس أحمد المستظهر بالله العباسي وبعث إليه وفداً تلطف في القول وأحسن في الإبلاغ وطلب من الخليفة أن يعقد لأمير المسلمين بالمغرب والأندلس فعقد له وتضمن ذلك مكتوب من الخليفة (لابن خلدون) فهذا التأدب مع الخليفة لا يمكن أن يصدر إلا من رجل قوي الإيمان صحيح الدين عظيم التقوى، «وإنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة المستظهر بالله مع أنه كان بعيداً عنه وأقوى شوكة منه لتكون ولايته مستندة إلى الشرع وهذا من ورعه رحمه الله. وإنما تسمى بأمير المسلمين دون أمير المؤمنين أدباً مع الخليفة حتى لا يشاركه في لقبه لأن أمير المؤمنين خاص بالخليفة والخليفة من قريش كما في الحديث «الاستقصا ج 1 ص 122».

ولنرجع إلى بقية حديث المراكشي عن نكبة المعتمد. فقد قال إن ابن تاشفين لما استهوته الأندلس وعزم على أخذها اتفق مع رجال دولته على تدبير مكيدة وهي أن يراسلوا المعتمد استئذاناً له في إرسال جماعة من الصلحاء بقصد المرابطة والجهاد وطلب الشهادة وإنما كانت غاية ابن تاشفين أن يبث جماعة من شيعته وأنصار دعوته بالأندلس فإذا هم بالاستيلاء على هذه البلاد وجد فيها قوماً يظاهرونه ويترأسون حركة الدعوة إلى دولته. وفعلاً توجه هذا الفوج من رجال المرابطين وزيادة في التكتم وإحكام التدبير

أظهروا للمعتمد الانقياد والوقوف عند أمره ونهيه وقد أنزلهم بالحصون التي عينها لهم. فلما نشبت الفتنة بغتة بطرف من مملكة المعتمد وأعلن المرابطون فيها دعوتهم ثار أشياعهم المنبثون في الأندلس وحاصروا قرطبة التي كان عليها ولد المعتمد المأمون ثم امتدت الثورة إلى إشبيلية وختمت الفجيعة بالقبض على المعتمد وعائلته ونقله إلى المغرب حيث حل «محل الذميين».

هكذا أساغ المراكشي نكبة ابن عباد المعتمد وإن اعتمدنا قوله ظهر لنا المعتمد في غير الصورة التي رسمها عنه المؤرخون وتجلى لنا بريئاً مما ارتكبه مع ابن تاشفين من الإعراض والتمرد والاستغاثة بالنصارى على جيوشه المجاهدة في سبيل الله.

فرواية المراكشي خالية من ذلك كله ومن فتوى الفقهاء بخلع ملوك الطوائف الذين خذلوا الإسلام وأساءوا إلى المسلمين ووالوا النصارى واعتصموا بهم فراراً من الدخول في طاعة ابن تاشفين والانضواء تحت راية دولته.

فالمعتمد ـ حسب المراكشي ـ بريء من كل ما ألصقه به المؤرخون شرقاً وغرباً وهو بريء من ذلك بقدر ما كان ابن تاشفين منقاداً للطمع في الملك والأخذ بالثأر. وبعبارة فالمراكشي يصور لنا المعتمد رجلاً كله جميل وإحسان ولطف وموادعة لابن تاشفين الذي جزاه جزاء سنمار أو جزاء مجير أم عامر فقابل الخير بالشر والمعروف بالإساءة والمسالمة بالعدوان حتى ذهب المعتمد ضحية الحيلة أولاً والبطش ثانياً. فهل افترى جميع المؤرخين على المعتمد كذباً ولم ينطق بالحق في أمره إلاّ المراكشي؟.

الحقيقة أن المراكشي بصفته أديباً كان يعطف على المعتمد الشاعر الأديب ذي الأيادي البيضاء على الأدب والأدباء، وقد خصص لنكبته فصلاً مهماً أخذ الأدب فيه حظاً وافراً، وتحرى فيه المراكشي كل ما يجلب العطف للمعتمد إذ يجعله من الضحايا الأبرياء ومن المضطهدين ظلماً وعدواناً. ومما يتهم في نظرنا المراكشي بالتحيز للمعتمد والتحامل على ابن تاشفين ضمناً لا صراحة أننا نجده في كثير من المواطن صريح الإعجاب بابن عباد كثير الإطراء له عظيم الثناء على سجاياه.

ونذكر على سبيل المثال أن المراكشي يصور لنا المعتمد في صورة الرجل المعصوم الكامل فهو لا يرد الإساءة بمثلها ولا تعرف نفسه الحسد والنفاسة والكيد لخصومه لأنه ـ فيما يزعم المراكشي ـ يمنعه من فعل مثل ذلك مروءته ونزاهة نفسه وطهارة سريرته وشدة ملوكيته «ولأنه ـ فيما يدعي أيضاً المراكشي ـ قد أعاذه الله من ذلك وصان خلقه الكريم عنه وعصمه بفضله منه» ولما ثارت الفتنة على المعتمد وعلم بأمر جماعة كانت تروم التشغيب عليه بإشبيلية وأغري بتمزيق شملها «أبى له ذلك مجده الأثيل ورأيه الأصيل ومذهبه الجميل وما حباه الله به من حسن اليقين وصحة العقل والدين».

فكل هذا يدل دلالة واضحة على أن المراكشي كان في سياق هذا الكلام أديباً أكثر منه مؤرخاً وقد استحق أن نقول لـه: «مرحى» بالنيابة عن ابن عباد.

أما نحن فلا نطمئن أصلاً إلى روايته التي يتجلى فيها التنميق

والتلفيق ومسخ الحقائق بإفراغها في قالب إن رضى عليه الأدب فلا يرضى عنه التاريخ أبداً.

والقول الفصل أن المعتمد لو كان من «حسن اليقين وصحة العقل والدين» ما زعمه المراكشي لأبى أن يعامل المرابطين تلك المعاملة الخبيثة التي كان من شأنها أن تعرقل خطط الجهاد في سبيل الله ولترفع عن الاستغاثة بالنصارى راضياً بأن يسلم إليهم البلاد «ويبذل لهم الطارف والتلاد» ولا يدخل فيما دخل فيه أهل الأندلس من الاعتصام بدولة المرابطين المسلمة المجاهدة والانتظام بطاعة أمير المسلمين الذي كلّلته ملة الإسلام شرقاً وغرباً بتاج مرصع بالجواهر اعترافاً له بالصنع الجميل وإكباراً لمآثره الجليلة في نصر الله وإعزاز المؤمنين.

كما يدين الفتى يُدان.

إننا فيما دوناه عن المعتمد لم نقصد التحامل عليه أصلاً ولكن هي الأمانة تحتم علينا أن لا نغفل عن حقائق التاريخ ولا نتحدث عن الرجال منقادين للعاطفة دون تحكيم العقل والنظر إلى الأشياء نظرة التجرد والنزاهة. وقد رمنا بانتقاد رواية المراكشي أن ننبه عليها ونحذر من الأخذ بها على علاتها والتقيد بصيغتها في معرفة الحقائق، ووزن الرجال، وقدر الأعمال.

فالمعتمد لم يكن ـ كما زعم المراكشي ـ رجل الفضيلة والكمال في حياته المحفوفة بكثير من الأحوال والظروف والعادات والتقاليد المنافية للفضيلة المضادة للكمال فهو كان واحداً من ملوك الطوائف الذين داسوا الفضيلة بالأقدام وقصرت همتهم عن نيل ما يجعلهم ـ ولو مع التسامح والتساهل ـ يتصفون بالكمال،

وقد كان أكثرهم دنيا وأشدهم تهافتاً على الحياة ومنافتة في سبل العيش الرغيد وتفنناً في الملاهي والملذات.

وبعبارة فالمعتمد كان رجلاً له محاسن ومساوىء. ومساويه في آخر عهده بالملك أربت على محاسنه وجلبت إليه من الخزي والعار ما جعلته عبرة في الغابرين.

ونحن لا نذهب قط إلى أن قصة المعتمد مع ابن تاشفين كقصة «الحمل مع الثعلب»، بل كان المعتمد ثعلباً من ثعالب الأندلس ثم أراد أن يستأسد ليغالب الأسد فانقض عليه ببراثنه واختطفه إلى عرينه.

وإن ما لقيه المعتمد على يد ابن تاشفين لدون ما ارتكبه المعتمد مع الوزير أبي بكر محمد بن عمار مثلاً. فقد كان شاعراً مجيداً وقد تعلق بالمعتمد وهو ما يزال في عهد الشباب وقويت وشائج الود وتأكدت أواصر الحب بينهما إلى أن صار ابن عمار ألصَق به من ظله وصار المعتمد لا يستغني عنه لا في النهار ولا في الليل. ولما تقلد المعتمد ولاية شلب في عهد والده المعتضد بالله استوز له ابن عمار وألقى على غاربه حبل جميع أموره حتى خشي من ذلك المعتمد وفرق بينهما وأخرج ابن عمار عن مملكته فبقي طريداً شريداً في آفاق الأندلس إلى أن توفي المعتضد فأدناه المعتمد «وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه (معجب 68) وفي الأخبار المأثورة عنهما أن المعتمد أحضر ابن عمار في مجلس أنسه على عادته في كل ليلة وأظهر له من المسرة والبر والإكرام ما لم يحظ به ابن عمار في الأيام السابقة ولما حانت ساعة النوم «أقسم

المعتمد عليه لتضعن رأساً معي على وساد واحد» فسمع ابن عمار في النوم هاتفاً حذره من الاغترار بهذا التخفي من المعتمد وأعلمه أنَّه قاتله بعد حين فاستيقظ مذعوراً ثم رأى ذلك الهاتف مرتين أخريين في نفس الليلة فاختفى في حصر كانت بدهليز القصر ينتظر الصباح للفرار بنفسه إلى جبال المغرب حيث يستخفي إلى أن يدركه الموت. ولكن المعتمد افتقده في ذلك الليل ثم عثر عليه ملتفاً في الحصر بالدهليز فلما رآه عرياناً ذرفت عيناه الدموع، وسأل ابن عمار الذي أخبره بحديث الهاتف في المنام فأكد له أنها أضغاث أحلام وأن ذلك من أثر الخمار «ثم طمنه قائلاً: «وكيف أقتلك؟ أرأيت أحداً يقتل نفسه؟ وهل أنت عندي إلا كنفسي؟ ولما خلف المعتمد أباه في الملك قلد ابن عمار ولاية شلب التي كان هو والياً عليها في حياة المعتضد. ولما «اشتد شوق المعتمد إليه وضعف من احتمال الصبر عنه» استقدمه واستوزره ليبقى ملازماً له وقد استمر أمره في ارتقاء ونال من علو المنزلة وعظيم الجاه ما نشر شهرته في جميع بلاد الأندلس وجعل الناس يعدونه «رجل الجزيرة». ومما خدم به ابن عمار المعتمد أنه استطاع مرة أن يدرأ عنه خطر الأدفونش الذي كان يريد حصار قرطبة وأشبيلية وذلك أنه لاعبه في الشطرنج بعد أن اشترط عليه إن غلبه أن يكون له حكمه فلما غلب ابن عمار الأدفونش طلب منه الإقلاع عن بلاد المعتمد التي كان تجهز لفتحها. وهكذا «كف الله بأسه ودفعه بجولة وحسن دفاعه عن المسلمين ورجع ابن عمار إلى أشبيلية وقد امتلأت نفس المعتمد سروراً به» ثم أراد المعتمد أن يستولي على مرسية فجهز إليها ابن عمار الذي تغلب

عليها وأراد الاستقلال بنفسه فيها ولما خشي على أمره من المعتمد التحق ببني هود بسرقسطة ولكنهم لم يطمئنوا إليه نظراً لمسابقته مع ولي نعمته المعتمد فطردوه وقد ظل يتردد على ملوك الأندلس حتى نزل بحصن شقورة فأكرمه صاحبه أولاً ثم سجنه فاقترح عليه ابن عمار أن يكاتب في شأنه ملوك الأندلس ليفدوه فأصبح كما قال «في السوق ينادى على رأسه بأنواع من المال» فرغب فيه المعتمد وأرسل من أتاه به مقيداً فدخل قرطبة على أسوإ حال أي «على بغل بين عدلي تبن وقيوده ظاهرة للناس» ثم أمر المعتمد بتوجيهه إلى إشبيلية التي دخلها كما دخل قرطبة ولما مثل بين يدي المعتمد وهو يرسف في القيود أخذ يعدد عليه نعمه السالفة ثم سجنه في نحفة على باب القصر. وبعد مدة طويلة استطاع ابن عمار أن يظفر برأفة المعتمد وأن يحصل منه على وعد بالعفو والصفح ولما رأى بعض حساده أنه كاد يتخلص من نكبته دبروا له الدسائس حتى انقلب عليه المعتمد وحنق عليه حنقاً شديداً وقصده في سجنه وفي يده الطبرزين فأخذ يضربه به حتى قتله.

هذه نكبة ابن عمار على يد المعتمد «بعد العزة القعساء والملك الشامخ والرياسة الفارعة» وقد كانت لأسباب شخصية تافهة بالنسبة إلى الأسباب التي جلبت للمعتمد نكبته على يد ابن تاشفين فقد نكب ابن عمار انتقاماً منه لمحاولة الاستبداد بأمره في مرسية وحنقاً عليه لما حاكه حوله خصومه من الدسائس والمكايد. أما نكبة المعتمد نفسه فكانت لتمرده على أمير المسلمين وخيانته للإسلام باستنصار الفرنج على المسلمين ومحاولته تمليكهم بلاد

الأندلس دون أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. وبالرغم عن ذلك فإن المعتمد لم يقتل صبراً كما قتل هو ابن عمار وقتل معه نفسه إذ كان يعده جزءاً منها.

أما هذا البطش الذي ارتكبه المعتمد مع ابن عمار فلم يكن وليد الظروف ولا من قبيل العوارض والصدف بل كان موروثاً ومتأصلاً في طبيعة آل بني عباد. فالمراكشي نفسه الذي لخصنا عنه قصدا قصة ابن عمار مع المعتمد يحدثنا مثلاً أن والد المعتمد وهو المعتضد بالله العبادي لما دوخ الممالك ودانت له الملوك من جميع أقطار الأندلس اتخذ خشباً في ساحة قصره جللها برؤوس الملوك والرؤساء عوضاً عن الأشجار التي تكون في القصور وكان يقول: في مثل هذا البستان فليتنزه. ومما يحكيه عنه المراكشي أيضاً أنه قتل أكبر أبنائه المرشح لولاية عهده صبراً، كما أنه عمل في قطع وزرائه واحداً واحداً، فمنهم من قتله صبراً ومنهم من نفاه عن البلاد ومنهم من أماته خمولاً وفقراً إلى أن تم له ما أراده من الاستبداد بالأمر. (معجب ص 54).

هكذا كان المعتضد فتاكاً بالناس، سفاكاً للدماء بطاشاً بالأرواح. وقد قلده ابنه المعتمد ففتك بأخص الناس به وأحبهم إلى قلبه، وكم أعلت علاه من حضيض، وكم حطت ظباه من أمير (معجب ص 92) قتل صبراً على أشنع حال وسفح الدم نعمة وحنقاً، ثم دارت عليه الدائرة فنكبه الدهر كما نكب غيره على يده، وفي المثل: كما يدين الفتى يدان.

نحوس كي في عقبي سحود «كذاك تدور أقدار القدير» (معجب ص 93).

دعوة وافقت المقدار:

حكى المراكشي أن المعتضد كانت له ملحة يرى فيها أن قوماً من البربر سيحلون بساحة مـراكش وأنهم سيخلعونـه أو ولده ويطردونه عن ملكه فكان دائماً يستطلع أخبار المغرب ويتجسس نبأ هؤلاء البربر. فلما سمع بنزولهم مراكش التي اتخذوها قاعدة ملكهم جمع أولاده «وجعل ينظر إليهم مصعداً ومصوباً ويقول: يا ليت شعري من تناله معرة هؤلاء القوم أنا أو أنتم؟ فأجابه أبو القاسم الذي تسمى بعد بالمعتمد: جعلني الله فداك وأنزل بي كل مكروه يريد أن ينزل بك». فكانت كما قال المراكشي ـ دعوة وافقت المقدار. وحكى أيضاً صاحب المعجب أن بعضهم رأى في المنام قبل نكبة المعتمد بأشهر أن رجلاً رقى المنبر وأنشد الناس بصوت مرتفع:

رب ركب قد أناخوا عيسهم في ذرى مجدهم حين بسق
سكت الدهر زماناً عنهم ثم أبكاهم دماً حين نطق

فكانت بعد أشهر نكبة المعتمد التي طوت ملك بني عباد وطوحتهم في أرض المغرب حيث ذبلتهم ذبول وغمرهم البؤس والشقاء إلى أن انقرضوا وأمسوا في الغابرين.

التاريخ ليس بسفسطة:

كنا رددنا فيما تقدم على رواية صاحب المعجب فيما يخص نكبة المعتمد وبينا ما فيها من إغفال وتغافل، وإجحاف وتحامل. إذ إن صاحبها انقاد فيها لهواه الذي كان مع المعتمد وضد ابن تاشفين. لم يتجاهر المراكشي بالتحيز لقضية المعتمد ولم يتظاهر

بالتعصب على ابن تاشفين، بل ساق أخبار المعتمد مع ابن تاشفين مساقاً ملفقاً أغفل فيه أشياء وتغافل عن أشياء تسوء المعتمد وتشنعه، ثم أجحف بحق ابن تاشفين وتحامل عليه فجعله، في سياق الحديث، رجلاً تستهويه محاسن الدنيا وتخلبه لذائذ الحياة فتزين له نفسه الطمع في ثل العروش وصرع الملوك وتسول له استصفاء الأموال واستلاب الذخائر وابتزاز الكنوز والاحتكام في الممالك والرعايا وكل هذا حسداً ونفاسة وغشماً وعدواناً. ولكن المراكشي خدع نفسه من حيث أراد أن يخدع الناس فقد أثبت في حديثه عن ابن تاشفين مواقف ووقائع وحوادث وأعمالاً تشهد لابن تاشفين بكثير من الفضل عند الله وعند المؤمنين كما تحدث في ترجمته للمعتمد عن أخبار وأفعال تناقض كل ما أراد أن ينسبه له من مكارم الأخلاق ومحامد الخصال ومحاسن الشيم وتعاكس كل ما أحب أن يكيل له من المدح والإطراء، وباختصار فإن ما ارتكبه المعتمد مثلاً من الوحشية والفظاعة في قتل ابن عمار الذي كان عنده بمثابة نفسه لا يمكن أن يصدر إلّا من رجل همج يكفي لأن يجعله مشناء في أعين الناس كافة.

نقرر هذا وقصدنا أن نحق الحق ونبطل الباطل على ضوء حقائق التاريخ التي بإهمالها أو التغاضي عنها لا يكون تحقيق وتمحيص ولا إنصاف وبخوع. وبعبارة فالتاريخ الحق ليس بسفسطة يقصد بها مسخ الحقائق وتمويه الحوادث والتلبيس على العقول إخفاء لأشياء وإظهاراً لأخرى.

ومن قبيل السفسطة ورمي الكلام على عواهنه ما كتبه

المراكشي عن نكبة المعتمد على يد ابن تاشفين ومن هذا القبيل أيضاً ما دونه الأستاذ العلامة محمد فريد وجدي في «دائرة المعارف». فقد كتب في نكبة المعتمد ما نصه: «ما أهلك المسلمين إلاّ هذه الخصال من التحاسد والتناهب. يحسد أمير أميراً على ما بيده فبدل أن يسير سيره في عمارة البلاد وإصلاح حال الفساد يغير عليه كما يفعل اللصوص لا لينصر حزباً إصلاحياً ولا ليؤيد أصلاً دينياً ولكن ليتمتع دونه بالرياض والقصور والمآكل والحور وهذا في الوقت الذي كان فيه أعداؤهم يتربصون بهم المقاتل ويتحينون لإهلاكهم الفرص فبئس أولئك الملوك وبئست المذاهب. ج 6 ص 74».

وكتب أيضاً أن نكبة ابن عباد «هي من أعجب ما حدث للملوك في ذلك العصر المظلم حين انقسم المسلمون على أنفسهم وصار ملوكهم وقادتهم أشباه المتلصصين يترصد بعضهم ببعض فمتى لاحت لأحدهم فرصة أغار على جاره وما زال به حتى يثل عرشه ثم لا يعامله معاملة تليق بمثله بل معاملة البهائم والوحوش فيثقله بالقيود ويمزق شمل أسرته كل ممزق ويقتر عليه حتى يضطره هو وأهله للتسول. ولا ندري من أين سرت إلى أمراء المسلمين هذه الخصلة الشنيعة والإسلام يأمر بالاجتماع وينفر من الفرقة، ويوجب الإحسان إلى الأسير ومعاملة كل بما هو أهله؟ ج 6 ص 79».

ورداً لمزاعم الأستاذ وجدي ودحضاً لترهاته نقول: إن كلامه الأول لا ينطبق إلاّ على ملوك الطوائف بالأندلس الذي كان كبشهم المعتمد بن عباد فقد كانوا كلهم متحاسدين متباغضين

أذلة أمام الأدفونش ملك الفرنج. فلم يكن منهم أحد إلاّ يؤدي إليه الأتاوة وهم كانوا أحقر في عينه وأقل من يحتفل بهم (معجب ص 77).

ولم يحدثنا التاريخ أن هؤلاء كانوا منصرفين إلى عمارة البلاد ومشتغلين بما يصلح العباد بل ما عرفهم لنا التاريخ إلاّ سادة مسيطرين يتحكمون في رقاب المسلمين بما يشاءون وكيف يشاءون ومتى يشاءون ويرهقونهم بالضرائب والتكاليف والظلامات توفيراً للأحوال التي بها يستطيعون المباهاة والمفاخرة فيما بينهم وينهمكون في زينة الحياة ويتهافتون على اللذائذ والشهوات. فملوك الطوائف كانوا أبعد أهل زمنهم عن الأخذ بالفضيلة في حياتهم ما بطن منها وما ظهر وأشدهم تفنناً في التكالب على لذة العيش «والتمتع بالرياض والقصور والمآكل والحور» وهذا ما نقمه عليهم رعاياهم من المسلمين وما شدد النكير عليه الفقهاء والعلماء في الأندلس والمغرب والمشرق حتى أفتوا بخلعهم كافة ومن الباطل والافتراء أن يدعي الأستاذ وجدي أن يوسف بن تاشفين إنما نازع ملوك الطوائف ملكهم حسداً لهم ونهباً لما في أيديهم لا نصراً لحزب إصلاح وتأييداً لأصل من أصول الذين. ففريد وجدي يبلغ به الغرور والزيغ والطيش إلى التصريح بأن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إنما فعل فعل اللصوص للتمتع دون ملوك الطوائف بما لهم من حدائق وقصور ونعيم وحور، وفي حقه قال: بئست الملوك وبئست المذاهب بمثل هذه المخزيات لا ندري ما غره بابن تاشفين حتى اجترأ عليه بمثل هذه المخزيات. ولم نسمع قط من أي مؤرخ أن ابن تاشفين كان على

نسق ملوك الطوائف في التربية والسلوك والحياة حتى يطمع في مجاراتهم والاقتداء بهم والاستمتاع بمالهم دونهم. وبعبارة لم يحدثنا التاريخ أن ابن تاشفين بعدما تغلب على ممالك الأندلس أسرع إليها فسكن قصورها وتنزه في رياضها وتنعم بالحياة في ربوعها كما كان شأن الملوك المخلوعين. وهذا وحده يكفي لدحض ما ينسب إلى ابن تاشفين مع الطمع في الأندلس حباً في جمالها واستئثاراً بخيراتها. فبئس الملوك ملوك الطوائف وبئس المذاهب مذاهبهم في الملك والحياة.

وأما ما ادعاه فريد وجدي من أن ابن تاشفين إنما عامل المعتمد معاملة البهائم والوحوش فهو تحامل مفرط. فالمعتمد قد عومل معاملة دون ما كان يستحق سوء سلوكه وذميم فعله. فهو لم يقتصر على معارضة جيوش المسلمين المرابطة للجهاد في سبيل الله بثغور الأندلس بل عمل لإحباطها وخذلانها فظاهر الأعداء عليها واستنصر بهم على أمير المسلمين. فهو بهذا قد كان خارجاً متمرداً، ومارقاً ضليلاً، وخائناً محارباً. فعقاب أمثاله في عصرنا ـ عصر النور والمدنية ـ هو الإعدام ومصادرة كل ما يملك من مال وعقار وغيرهما.

أما في ذلك العصر المظلم «فلم يعاقبه أمير المسلمين إلّا بالترحيل إلى المغرب والاعتقال في إحدى قراه إلى أن مات حتف أنفه. حقيقة أن الإسلام يأمر بالإحسان إلى الأسير، لكن ليس كل أسير مثل المعتمد ولا أن المعتمد كان مثال الأسير الذي يستحق المعاملة بالرفق والمعروف والحسنى. ومتى أحسن المعتمد يوم عزه وسؤدده إلى الأسارى؟ ألم يقل لابن عمار:

كيف أقتلك؟ أرأيت أحداً يقتل نفسه؟ وهل أنت عندي إلاّ كنفسي؟ ثم ألم يدخله يوم نكبته قرطبة وإشبيلية «أشنع دخول وأسوأه على بغل بين عدلي تبن وقيوده ظاهرة للناس» وذلك بعد أن أمر المعتمد بإخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا إليه على تلك الحال وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤسائهم فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام وغيرهم لا يصل إلاّ إلى تقبيل ركابه أو طرف ثوبه (معجب ص 72). ألم يطل سجن ابن عمار مثقلاً بالانكال والأصفاد في غرفة مظلمة بقصر المعتمد؟ ألم يقتله صبراً إذ علاه بالطبر الذي كان يمسكه ولم يزل يضربه به حتى قتله هذا القتل الفظيع الشنيع؟ أهكذا أمر الإسلام في معاملة الأسير؟ وهل في سفك الدماء وإزهاق الأرواح بهذا الشكل العنيف الوحشي ما يرضاه الله والعقل والإنسانية؟ وهل استحق ابن عمار القتل وهو لم يخن إسلاماً ولم يعارض جيشاً مجاهداً ولم يظاهر الفرنج ولم يستنصر بهم على أحد من المسلمين كما فعل قاتله ابن عباد؟.

إن ابن عباد لم يألف الرأفة بخصومه والرفق بأساراه بل كان يأخذهم ضغطة ويقسو في معاملتهم ويشتد في قهرهم ويتهاون بأرواحهم التي يتلفها لأوهى سبب تحت انفعال النفس وسورة الغضب. وقد كان ينكل بالقتيل كما فعل بابن عمار. والإسلام والإنسانية يحرمان التنكيل مطلقاً. فهل عامله ابن تاشفين بمثل ما عامل به هو أسيره ابن عمار؟ وهل كان يطمع المعتمد بعد خروجه على أمير المسلمين، والاستغاثة بالنصارى على جيوش

المجاهدين في الفوز برضى الله واستحقاق المعاملة بالحسنى من المؤمنين؟ إنه لم يصادف إلّا سوء ما قدم ولم يستحق إلّا الذل والخزي والعذاب يوم رماه الله بنكلة وجعله عبرة للأولين والآخرين.

إنا نفهم أن يقف الأدباء والشعراء الأقدمون من المعتمد في نكبته موقف الحنو والتعطف فينفوا عنه كل نقيصة ويعزوا له كل كمال. فالمعتمد كان أديباً شاعراً وكان كله للأدباء والشعراء بروراً وإحساناً.

وإن أدباء الأندلس خاصة لهم الذين ساعدوا أكثر من غيرهم على نشر محاسن المعتمد رغم ما أسلف يتمتع بالأثر الجميل والذكر الحسن. وكل من يطلع على نكبته في حديث الأدباء والشعراء لا يتمالك عن العطف عليه عطفه على كل مظلوم وبئيس. والمؤرخ الذي يمزج حديثه عن نكبة المعتمد بأقوال الأدباء والشعراء حول هذه النكبة ـ كما فعل المراكشي وفريد وجدي مثلاً ـ يكون كمن يطلي الحنظل عسلاً إتلافاً لمرارته. ولكن هذا الطلاء يحول الحنظل شهداً. وأكثر الشعراء الذين تغنوا بالمعتمد في نكبته هم أولئك الذين كانوا ملتفين حوله أيام عزه يتكسبون بشعرهم لديه طمعاً في أخذ جوائزه ونيل أسنى الرتب في مملكته والشعراء بطبيعتهم يتعلقون بالخيال دون الحقيقة وإن راموا الحقيقة في شعرهم موهوها وزوقوها وأخضعوها لاعتبارات الظروف والشروط والقيود. والمتاجرون منهم بالشعر إنما يكونون أتباع كل ناعق ورواد كل باب. فأين المال والنفع فثم

قلبهم ولسانهم. وما أشبههم بالمنافقين الذين يكون قلبهم من وراء لسانهم.

من هؤلاء أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللبانة فقد رضي الشعر بضاعة وتخيره مكسباً وأكثر منه وقصد به الملوك فأخذ جوائزهم ونال أسنى الرتب عندهم (معجب ص 87)، وقد زار المعتمد في سجنه بأغمات وقبل أن يطوى بساط الإقامة بعث إليه بعشرين مثقالاً وثوبين على عادته مع الشعراء وأرفق هذه الجائزة بشعر يعتذر فيه عن هذا النزر من كف الأسير «فرد ابن اللبانة جائزة المعتمد البئيس وأجابه بشعر يقول فيه:

رويدك سوف توسعني سروراً
إذا عاد ارتقاؤك للسرير
وسوف تحلني رتب المعالي
غداة تحل في تلك القصور
تزيد على ابن مروان عطاء
فليس الخسف ملتزم البدور

إنه حلم شاعر ومنية ضائعة تتعزى بها النفس في الخيبة وتتسلى بها الروح في الفجيعة.

وابن اللبانة هذا مثال الشاعر الذي لا ينظر إلى حقيقة الرجال والأشياء ولكن إلى ما يبذله له الناس من العطاء والنوال. فبهذا وحده يزن النفوس لا بما تتحلى به من الفضائل والخصال، فكل معطاء فاضل ولو كان أرذل الناس خلقاً وأخبثهم سريرة وأشنعهم سيرة.

وشعره المذكور يدل دلالة واضحة على أن ما خص به المعتمد في نكبته من العطف إنما أملاه الطمع المسيطر على أنفس المتكسبين من الأدباء والشعراء. فابن اللبانة مثلاً لم يقلع عن مطامعه في نيل الجوائز والرتب ولم ييأس من الدهر بالرغم عن نكباته وتصاريفه وأن الطمع ليعمي البصائر فلا تبقى تحسب للحقائق حساباً وتأبى إلا أن تتخذ من الأحلام والهواجس حقائق. ولكن هيهات هيهات.

إن فهمنا أن يعطف الأدباء والشعراء الأقدمون على المعتمد شريكهم في «الصناعة» ووليّ نعمتهم فلا نفهم أن يحذو حذوهم في هذا العصر رجل من عقلاء المسلمين ودعاة الإصلاح فيهم والمناضلين بالقلم واللسان عن الإسلام وتاريخه المجيد ومدنيته الرائعة. فلو طالع الأستاذ فريد وجدي كتب المؤرخين الذين تحروا تدوين تاريخ الدول والرجال بما فيه من حسنات وسيئات وصالح وطالح كما تفرضه الأمانة والإنصاف، ولو تحرى هو أن يكتب ما كتب باستلهام عقله الرصين وقلبه المؤمن لما خَبَطَ عشواء في حديثه عن ابن عباد وابن تاشفين وظاهر أنه طالع قصة المعتمد في كتاب المعجب أو في كتب من طرازه وعلى شاكلته في تنسيق الأخبار وتلفيق الحوادث. فلو لم يتأثر الأستاذ وجدي بما تأثر به المراكشي مثلاً لما سلك طريقته وأنحى باللوائم على ابن تاشفين الذي عده لصاً نهاباً وظالماً غشماً ومعتدياً على الإسلام في شخص ابن عباد كأن هذا والإسلام سِيان.

إن هذا الكلام ـ كما قال صاحب الاستقصاء ـ جدير بالرد وأصله من بعض أدباء الأندلس الذين كانوا ينادمون ملوكها

ويستظلون بظلهم ويغدون ويروحون في نعمتهم. فحتّى إذا فعل أمير المسلمين بسادتهم ورؤسائهم ما فعل أخذهم من ذلك ما يأخذ النفوس البشرية من الذب عن الصديق والمحاماة عن الغريب حتى باللسان وإلا فقد كان أمير المسلمين رحمه الله من الدين والورع على ما قد علمت ومن ركوب الجادة وتحري طريق الحق على الوصف الذي سمعت. وهذا ابن خلدون إمام الفن ومتحري الصدق قد نقل أن ملوك الأندلس كانوا يظلمون رعاياهم بضرب المكوس وغيرها ثم وصلوا أيديهم بالطاغية وبذلوا له الأموال في مظاهـرته إياهم على أمير المسلمين. ثم لم يقدم على قتالهم واستنزالهم عن سرير ملكهم حتى تعددت لديه فتاوى الأيمة الأعلام من أهل المشرق والمغرب بذلك ولو شئنا تبرير الخطة التي لزمها ابن تاشفين مع ملوك الطوائف الذين لقيت منهم الأندلس والمسلمون الأمرّيْن لوجدنا ذلك مسجلاً بقلم المراكشي نفسه. وقوله خير مقنع في الموضوع. فهو يعترف بأن أصحاب ابن تاشفين بعد القبض على ابن عباد وتدويخ ممالك الأندلس مملكة مملكة دانت لهم الجزيرة بأجمعها فأظهروا في أول إمرتهم من النكاية في العدو والدفاع عن المسلمين وحماية الثغور ما صدق بهم الظنون وأثلج الصدور وأقر العيون فزاد حب أهل الأندلس لهم واشتد خَوف ملوك الروم منهم ويوسف بـن تاشفين في ذلك كله يمدهم في كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش والخيل إثر الخيل». فهل رأت الأندلس في عهد ملوك الطوائف ما أدركته بعد انقراضهم في عهد المرابطين؟ ألا يستحق هذا العهد الجديد الذي فتحه المرابطون في الأندلس أن تثل من أجله عروش

وتحطم في سبيله تخوت؟ وهل يعبأ المؤمن بأنات شقي ونحيب مكروب ونعيق كل ناعق إن رضي الله عنه والمؤمنون أجمعون في المشارق والمغارب؟.

ويحدثنا المراكشي نفسه أن ابن تاشفين كان يقول في كل مجلس من مجالسه: إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها وغفلت ملوكهم وإهمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة وإنما همة أحدهم كأس يشربها وقينة تسمعه ولهو يقطع به أيامه. ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم (يعني الروم) خيلاً ورجالاً لا عهد لهم بالدعة ولا علم عندهم برخاء العيش. إنما هم أحدهم فرس، يروضه ويستفرهه أو سلاح يستجيده أو صريخ يلبي دعوته في أمثال لهذا القول. فيبلغ ذلك ملوك النصارى فيزداد فزعهم ويقوى مما بأيدي المسلمين بل مما بأيديهم يأسهم (معجب ص 97) بهذا القول أبطل ابن تاشفين دعوى من يقول إن الغرض الذي توخاه في أخذ الجزية هو مجرد الاستيلاء على ممالكها، وحب التنعم برفاهة الحياة في ربوعها، فالحقيقة التي دأب ابن تاشفين على خدمتها والتضحية بكل غال ونفيس في سبيلها هي انتشال أراضي الإسلام من أيدي الفرنج وحماية الثغور الإسلامية من أن يعتدي عليها الروم الذين استطالوا على المسلمين منذ تفرقت كلمتهم وتصدعت وحدتهم وتشعب أمرهم على يد أولئك الملوك المتخاذلين المتواكلين. وإن ما نقمه ابن تاشفين عليهم لهو عين ما نقمه عليهم رعاياهم المسلمون وعلى رأسهم فقهاء

الإسلام وعلماء الشريعة شرقاً وغرباً. فهذا ابن عباد الذي كان في الأندلس «كبش كتيبتها وعين أعيانها وواسطة نظمها (معجب ص 96)» لم يمنعه «الحياء وعزته اللخمية» التي أشاد بها أيما إشادة من أن يكون متماون الود مع أمير المسلمين ويقلب له ظهر المجن في أشد الظروف وأحرج المواقف فيتخذ الفرنج أعواناً له عليه وعلى جيوش المسلمين المرابطة في الأندلس للجهاد في سبيل الله.

كان هم ملوك الأندلس في كؤوس الشراب وألحان القيان وكانت حياتهم حياة لعب ولهو وزينة وتفاخر أما المرابطون فلم يكن همهم إلا في الجهاد والسلاح وإعداد ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل يرهبون به عدو الله وعدوهم. وقد هبوا خفافاً وثقالاً لنصرة الإسلام وإعزاز المسلمين باذلين في ذلك الأموال والأرواح وغير قانعين إلا بإحدى الحسنين: الفوز أو الشهادة. وقد نالوهما معاً جزاء وثواباً من الله فاستحقوا بذلك أن تتطأطأ أمامهم الرؤوس اعترافاً لهم بالفضل والجميل وتخلد صنائعهم في سجل التاريخ الذي ما زال يثني على بطولتهم وينشر مزاياهم ويشكر مآثرهم إلى يوم البعث والنشور.

المرأة المسلمة(*)

. . . الإسلام دين الهداية والعدالة. وهل تُعقل هداية بدون علم يُنير الفكر وتهذيب يربي النفس؟ وهل تُعقل عدالة بحرمان المرأة المسلمة من حق الاهتداء بهدي العلم والتهذيب؟

إننا ننزّه الهداية والعدالة الإسلاميتين عن مثل هذا الإجحاف بحق المرأة شريكة الرجل في الحياة الاجتماعية. بل نعتقد ما يجب أن يعتقدهُ كل مسلم خبير بتعاليم الإسلام غيور على مصلحة الملّة الإسلامية أن الله أمر المسلمين كافة بأن يكونوا في كل زمان ومكان أرقى الأُمم على الإطلاق وأن يحلّوا منها محل الرأس من الجسد والقلب من الصدر، فقال تعالى: ﴿ كنتم خيرَ أُمَّة أُخرِجت للناس تأمُرون بالمعروف وتَنْهَوْن عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾. هذه الآية الكريمة السامية هي التي يجب أن يعمر المسلمين بها أرواحهم وأفئدتهم ويدأبوا على تحقيقها طاعة منهم لأوامر الله وإعزازاً منهم لدين الله.

(*) هذا البحث حول المرأة المسلمة كتبه محمد حسن الوزاني في المنفى، وعُثر عليه أخيراً في المسودّة ناقصاً الصفحة الأولى. وربما صفحات من الآخر.

كيف يصحّ أن نؤمن بالله حقاً إن نَحن قصَّرنا سهواً أو عمداً عن استحقاق ذلك الامتياز الذي يريد الله أن يخصّنا به وهو أن نكون «شعب الله المختار»؟ فهذه الدرجة السامية ـ درجة شعب الله المختار ـ هي ما يرضاه الله لنا دنياً وآخرة. وكيف نعدّ أنفسنا خير أُمة أُخرجت إن لم نأمر بالمعروف ونَنْهَ عن المنكر؟ ومن الأمر بالمعروف الدعوة إلى العلم، ومن النهي عن المنكر الجهر بموت الجهل. ويوم خرج الناس من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام قضى الله عليهم بأن لا يتخذوا إلا العلم هادياً وقبساً منيراً.

إن الإسلام يأمرنا بالعلم كما يأمرنا بالإيمان بالله. لأن الله لا يُعرف إلا بالعلم، ولا يُطاع له أمر إلا بالعلم، ولا يرضى للمؤمنين عزّة إلا بالعلم[1].

وقد شرّف الله العلم فقال: «هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟ وقد أبان الرسول قيمة العلم في المجتمع» فقال: «العلماءُ ورثةُ الأنبياء»[2]. وقد أوضح المشرِّع الأكبر واجب المسلم فقال: طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة. كما أوصانا بأخذ العلم بدون شرط ولا قيد وطولَ الحياة فقال: «خذوا

---

(1) حديث: مَن ازداد علماً ولم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بُعداً. حديث: هل ينفع القرآن إلا بالعلم؟. حديث: مَثلُ ما بعثني الله عزّ وجلّ به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت مِنها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير إلخ. . . (إحياء ج 1 ص 10). حديث: الناس معادن. . . كمعادن الذهب والفضة فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقِهوا.

(2) قال تعالى: ﴿ شهد الله أنه لا إِلَهَ إِلاَّ هو والملائكةُ وأُولُوا العلم ﴾.

الحكمة ولا يضرُّكم مِن أيِ وعاءٍ خرجت». «الحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنَّى وجدها». «اطلبوا العلم ولو في الصين». «اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد».

ففي هذه الأحاديث كلها لا نجد ما يحمل على تخصيص الرجل بالعلم دون المرأة، بل الأمر عامٌّ يشمل المسلم رجلاً كان أو امرأة، بل يصرّح الرسول بأن العلم فرضٌ على المسلم والمسلمة. وفي القرآن تصريح بوجوب تعلّم المرأة. قال تعالى: ﴿ واذْكُرْنَ ما يُتلَى في بيوتكنَّ مِن آيات الله والحكمة ﴾.

ومما يدل على عناية الإسلام بالمرأة الحقوق التي فرضها الله لها والتي تجعل منها امرأة راقية كاملة والتي تغبطها عليها نسوة الأمم المتمدنة الحديثة. هذه الحقوق هي التي أشار إليها الرسول في خطبة الوداع ـ وهي لنا بمثابة دستور عام ـ لَمَّا أوصى المسلمين خيراً بالنساء. ومن الخير أن نضمن للمرأة حقوقها الشرعية ونكفل لها حقها في العلم الذي بدونه لا تكون مسلمة كاملة عارفة بحق الله وحق نفسها وحق ملّتها[1].

ولا نجد في الإسلام ولا عند الشّارع ما يصدُّ المرأة عن طلب العلم، بل نجد التصريح بوجوب تعليمها كما ذكرنا آنفاً سواء في ذلك الحرائر والإماء: قال رسول الله: «أيُّما رجل كانت عنده وليدة فعلَّمها فأحسن تعليمها وأدَّبها فأحسن تأديبها ثم أعتقها

(1) قال أنس: ما رأيت أحداً كان أرحمَ بالعيال من رسول الله ـ ﷺ ـ.
حديث: «خيرُكم خيركم لِنسَائه وأنا خيركم لنسائي».
حديث: «إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع المملوك حتى يدرك مدارك الملوك».

وتزوَّجها فله أجران» في هذا الحديث الشريف يتجلى بوضوح سموّ الروح الإسلامية، ومنه تفيض نبالة العاطفة المحمدية، فالرسول يُرغِّب المسلم في تحرير الولائد من ذل الجهل وذلك بحسن التعليم والتأديب، كما يرغبه في إعتاقهنّ من الوجهة الاجتماعية بتمليكهنّ من أنفسهنّ واتخاذهنّ أزواجاً.

وللمرأة المسلمة خير قدوة في بعض نساء الرسول. فقد كان بعضهنّ يكتبن كحفصة وأُم كلثوم. ومكان عائشة في العلم معروف حتى إن الرسول قال: «خذوا نصف دينكم عن هذه الحُميراء» هذا دليل صريح على أن الرسول جعل المرأة شريكة الرجل في العلم كما هي شريكته في الحياة الاجتماعية. فليس لها أن تتعلم العلم فحسب، بل لها كذلك أن تكون معلِّمة الرجل ومهذِّبة عقله بالعلوم والمعارف. ولا ينبغي للرجل الذي سمّاه الله قوَّاماً على المرأة أن يجد غضاضة في التلمذة لها في كل ما تُحسِنه، فالعلم مشاع بين الرجل والمرأة، فعلى العالم أن يعلّم الجاهل وعلى الجاهل أن يأخذ من العالم، وذلك بصرف النظر عن الجنس والسن. وفي الحديث: لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه. «مَنْ علِم علماً فكتمه أُلجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»، «ما آتى الله عالماً علماً إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبيِّنوه للناس ولا يكتموه» إنما بُعثْتُ معلِّماً. وقال تعالى: ﴿ وإذ أَخَذَ اللهُ ميثاقَ الذين أُوتوا الكتابَ لَتُبَيِّنُنَّه للناسِ ولا تكتمونه ﴾.

فهذا القرآن وهذا الحديث كلاهما يأمر العالم بِبَذْل علمه للجاهل والجاهل بالتعلّم من العالم. ولا نجد في كلام الله ولا

في حديث رسول الله ما يُفهَم منه تخصيص الرجال بذلك دون النساء. فهم جميعاً شركاء في الواجب وميثاق الله. ومثال عائشة زوجة الرسول خير مصداق لهذا. فقد أشار الرسول بالأخذ عنها كما تقدم، ومكانتها في كثرة رواية الحديث هي بعد أبي هريرة. وقد كان لها بين الصحابة منزلة عالية يستشيرونها في مسائل دينية وقضائية.

والشرع يطلب من الرجل أن يعلّم زوجته الضروري من العلم. قال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: على الزوج أن يعلّم زوجته أحكام الصلاة وما يقضى منها في الحيض وما لا يقضى، فإنه أمر بأن يقيها النار بقوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُم وأَهْلِيكُم ناراً﴾. فعليه أن يلقنها اعتقاد أهل السنّة ويُزيل عن قلبها كلّ بِدعة إن اسْتَمَعت إليها ويخوِّفها في الله إن تساهلت في أمر الدين ويعلِّمها من أحكام الحيض والاستحاضة ما تحتاج إليه... فإن كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء، وإن قصر علم الرجل ولكن نابَ في السؤال فليس لها الخروج، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك ويعصى الرجل بمنعها. ومهما تعلمت ما هو من الفرائض عليها فليس لها أن تخرج إلى مجلس ذِكْرٍ ولا إلى تعلّم فضل إلا برضاه. ومهما أهملت المرأة حكماً من الأحكام ولم يعلِّمها الرجل حرج الرجل معها وشاركها في الإثم.

يُستفاد من هذا أنه على المرأة أن تتعلم الضروري من علوم الدين مثل الرجل، وإن واجباً على الزوج أن يُعلّم زوجته هذه الحصة اللازمة من العلم. فإذا قصَّر الرجل فلها بل عليها أن

تطلب العلم الواجب في الخارج. ويعدّ من العصيان حيلولة الرجل دون امرأته وما يلزمها من العرفان. وسواء أخذت علمها الضروري عن زوجها أو عن غيره فليس لها أن تخرج لأجل العلم الكمالي إلا بإذنه ورضاه، وهو أمر معقول. وخلاصة القول أن المرأة مطالَبة شرعاً بالضروري من العلم مثل الرجل. أما المعارف الكمالية فلها أن ترغب عنها مثل الرجل ولها أن ترغب فيها فتتلقنها خارج البيت أي في مجالس العلم وهي المدارس لكن بوفاق الزوج الذي هو القيِّم عليها. وليس في هذا الشرط المعقول ما يجعله من الموانع التي لا تغلب. وما أشبه هذه المسألة بموقف الأولاد من الوالدين. وفي بيان هذا يقول الغزالي: وكذلك ليس لك أن تسافر في مباح أو نافلة إلا بإذنهما. والمبادرة إلى الحج الذي هو فرض الإسلام نفل لأنه على التأخير. والخروج لطلب العلم نفل إلا إذا كنت تطلب علم الفرض من الصلاة والصوم ولم يكن في بلدك مَن يعلِّمك وذلك كمن يسلم ابتداء في بلد ليس فيها مَن يعلِّمه شرع الإسلام فعليه الهجرة ولا يتقيد بحق الوالدين. إن «رضى الوالدين حتم» كما يقول الغزالي ولكن من غير إطلاق. والتقيد بإذن الوالدين لا يمنع حاجّاً من حجّه ولا متعلِّماً من علمه، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. كما أن شرط الإذن من الزوج لا يصدّ الزوجة عن تعلّم الفضل والكماليات. إن الشرع يجعل من حقوق الأبناء أن يؤدبهم أبوهم فيحسن تأديبهم. قال رسول الله: «مِن حق الولد على الوالد أن يُحسن أدبه». وليس في هذا الحديث الشريف ما يعرض هذا الحق للبنين دون البنات، فعبارة الولد تشمل الذَكَر

والأُنثى. وإذا عملنا بالحديث القائل: «سوُّوا بين أولادكم في العطية»، وكذلك بقوله عليه السلام: «نِعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمعها فتطوى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها»، بذلنا العلم للبنين وللبنات على السواء، لأن حقّهم علينا آكد من كل حق إذ هم أمسّ رحماً بنا، وهم «ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا، ونحن لهم أرض ذليلة وسماء ظليلة وبهم نصول على كل جليلة» (الأحنف بن قيس).

المرأة المسلمة في عصر الانحطاط:

هذا هو موقف الإسلام من مسألة المرأة والعلم. وقد انحطّ شأن المرأة المسلمة من الوِجهة العلمية في عصور الانحطاط التي مرّ بها المسلمون في المشارق والمغارب، فأصبح جهل المسلمة يُعدُّ في نظر الكثير زينة لها وفخراً ويُراد لها أمناً ولباس تقوى. ولئن عذرنا في هذا الرأي الباطل جهّال المسلمين، وهم كثير، فلا يمكن بحال أن نعذر فيه كل مَن أخذ به مِن أذكياء المسلمين وعلمائهم قديماً وحديثاً. وإن هؤلاء لم يذهبوا هذا المذهب الشنيع في حق المرأة المسلمة إلا جموداً منهم وتأثراً بعوامل التأخر التي كانت ولا تزال تسود في كثير من الأوساط الإسلامية الغريقة في بحر الجهالة المتشبثة بغير اللباب من تعاليم الإسلام القانعة بالدون كَأن أخذتها صاعقةُ العذابِ الْهُونِ.

وإن شئنا أن نضرب مثلاً على وضَاعَة المرأة المسلمة في زمن الانحطاط، ورذالة الآراء في شأنها حتى عُدَّت في عين الكثير من الخسائس والمحتقرات ذكرنا رأي الشاعر الفيلسوف أبي العلاء

المعرّي. فقد صوّر في شعره نظره ونظر معاصريه في المرأة بكيفية لا ينكرها الجاحدون من جهّال المسلمين وعلمائهم في عصرنا هذا.

فالمعرّي يسلب المرأة حق التعليم:

علِّموها النسيج والغزل والرد ن وخلُّوا كتابة وقراءه
فصلاةُ الفتاة بالحمد والإخـ ـلاق تُجزي عن يُونسٍ وبراءه

ثم يشير أبو العلاء على مَن يريد تعليم المرأة بأن لا يعهد بهذه المهمة إلا لمن أصبح له قدم في الدنيا وقدم في الآخرة من المعلمين والمعلمات:

لِيأخذن التلاوة عن عجوز من اللائي فغرن مهتمات
يُسبِّحْنَ المليك بكل جنح ويركعن الضحى متأثمات
فما عيب على الفتيات لحن إذا قلن المراد مترجمات
ولا يدنين من رجل ضرير يلقِّنهنّ آياً محكمات
سوى مَن كان مرتعشاً يداه ولِمَّتُه مِن المتثغمات

هذا رأي أبي العلاء وأضرابه، وهو نهاية في الجمود والخُرق والضلال. وليس هذا شأن المرأة في شريعة الإسلام. تعالت الحنيفية عمّا يظن الغاوون الذين هم في وادٍ يهيمون.

وفصل الخطاب ما أجدر المسلمين بأن يتدبروا قول العلاّمة المُصلِح الفذّ الأمير شكيب أرسلان: إن الدين لا يمكن أن يحمل أهله لا على الجهل ولا على الذل ولا على المُحال. وإن الله ورسوله لا يريدان بالناس إلاّ الخير. وإن اعتبار كل جديد بدعة

ولو كان فيه المصلحة أو كانت تقضي به الضرورة هو سوء فهم لحقيقة الدين ولقواعد الشرع الكلية. وإن العلماء النيِّرين قد أفتوا بالعمل بالمصالح المرسلة بالمذاهب الأربعة. وإن أحد كبار السادة الصوفية قال: «أينما تكون المصلحة فَثَمَّ دينُ الله».

وليتدبروا أكثر من هذا قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «يكون في آخر الزمان عباد جهّال وعلماء فسّاق»، وكذلك قوله عليه السلام: «هلاك أُمتي عالم فاجر وعابد جاهل».

فجهل العامة وفسوق الخاصة (إلاَّ مَن عصمه الله) داءان معضلان قد فتكا وما زالا يفتكان بالمجتمع الإسلامي شرقاً وغرباً. فإذا لم يتداركنا الله بلطفه ولم يقلع جاهلنا عن جهله ولم يتنكب عالِمنا عن غيِّه بقينا في مؤخرة الأمم بدل أن نكون في طليعتها وحقّ علينا ـ والعياذ بالله ـ قوله عزّ وجلّ: ﴿ فلمّا جاءهم مَا عرفوا كَفَروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾.

لماذا يجب تعليم المرأة المغربية؟

1 ـ تعليم المرأة واجب في الشريعة الإسلامية السَمحَة كما تقدم. فالمرأة مطالَبة شرعاً مثل الرجل بتعلّم الضروري من علوم الدين. قال تعالى: ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا في الدِّين ﴾، والتفقّه يشمل المسلم ذَكَراً وأُنثى ويقتضي البَصارة بعلوم العقائد والعبادات والأحكام وبعلوم اللسان التي هي الأداة لذلك وبها تدرك معاني القرآن الكريم والحديث الشريف والنصوص الشرعية عامة». فتقصِير المرأة في التفقّه في دينها عصيانٌ لأوامر الله ومَتْلفة

للشريعة التي حياتها بمعرفتها من المسلمين رجالاً ونساءً. وبديهي أن كثيراً من معالم الدين لم تُدرّس بيننا إلاَّ لأننا غدونا مع الجهل لا نتشبث من الإسلام إلا بالاسم. وما أكثر الأعمال التي نظنها من الإسلام وهو مِنْها براء! وما أجدرنا بالرحمة! ولكن الله لا يرحم مَن لا يرحم نفسه ولا يعمل ما به يستحق الرأفة.

2 ـ نهضة الأُمة برجالها ونسائها لا بفريق من أعضائها دون فريق. فكل نهضة تقوم على الرجل دون المرأة إنما هي نصف نهضة. وإنها لتكون ناقصة بَتْراء مختلفة عقيمة بقدر ما يكون في الأُمة من نساء جاهلات. فالرقي العام التي تنشده البلاد في طور النهضة، وتسعى له العناصر الحيّة النيِّرة من أبناء الأُمة، وتتطلبه حياة المجتمع الجديدة لا يدرك حقاً ولا يتيسر كاملاً إلاَّ إذا سار رقي البنات جنباً لجنب مع رقي البنين. ولا رقيَّ لهم جميعاً إلا بالعلم الصحيح الذي يناسب كل فريق من ناشئة الأُمة. فالعلم يجب أن يكون رائد المرأة والرجل معاً في سير النهضة المغربية، هذه النهضة التي نريد أن تصبح مثال الرشد والتوفيق والكمال. وفي المثل: الجهل مطيةٌ مَن ركبها ذلّ، ومَن صحبها ضلّ.

3 ـ تربية الأولاد منوطة بالنساء. والتربية الرشيدة الفاضلة مسألة عسيرة المنال إلاَّ على العارفات من الأُمهات. ولا سبيل إلى إدراك أسرارها عن طريق الفطرة والإلهام والعادة مجرداً. وبعبارة فالمرأة الجاهلة ليس من شأنها أن تتوفق في تربية الأولاد تربية ترضي العقل والدين والمصلحة، لأن التربية هي قبل كل شيء علم وخبرة ودراية. فإذا اعتبرنا المرأة «أُمّ الوطن» ـ وهي كذلك بصفة مصدر النسل والثمرة. وحاضنة الأولاد زمن تربيتهم، وقيِّمة

البيت ـ أدركنا أهمية الغاية بتعليمها وفظاعة الجرم الذي نقترفه بتركها مهملة لا علم يُنير عقلها ويهديها، ولا دراية تهذّب نفسها وتُعليها، ولا سلاح يسندها في القيام بوظيفها ويقوّيها. فالمرأة إذا صلحت بالعلم والتهذيب صلح الأبناء الذين هم عمدة الأمة في مستقبلها، وإذا أفسدها الجهل ساءت أحوال النشء وقامت الأُمة في ضلال وضعف وفوضى.

4 ـ حسن مستقبل الأُسرة مقيد بصلاح جميع أعضائها. والأُم التي تسمى عادة ربّة البيت وملكة المنزل هي الركن الثاني الذي تُشاد عليه الأُسرة. فجهل الأُم التي تلك مكانتها وذلك شأنها شرّ فساد تتضرر منه العائلة. وبما أن العائلة الجديرة بهذا الاسم عبارة عن جماعة محكمة الروابط متراصّة الأجزاء وأن لكلٍّ من أعضائها حقوقاً وواجبات، ففساد الأُم بالجهل له تأثير سيء ظاهر أو خفي في صفة الروابط العائلية وكيفية أداء تلك الحقوق والواجبات بين الأعضاء. وإذا سلّمنا أن كل عائلة إنما هي خلية في عميرة الأُمة، وحلقة من سلسلتها المُحكمة شخّصنا الداء العضال الذي تُصاب به الجماعة من جرّاء جهل النساء، وأيقنا بعظم المسؤولية التي تثقل كواهلنا بسبب ما نرتكبه غيّاً وجموداً من التقصير الشنيع في تعليمهنّ وتهذيبهنّ. فصلاح المجموع بصلاح القطعة وهي العائلة، وصلاح العائلة إنما هو بالعلم الذي يعمّ جميع أفرادها: الأب والأُم والأولاد ذُكوراً وإناثاً. فإذا عرى داء الجهل أحد هذه الأقانيم العائلية الثلاثة وهو الأُم تردّت العائلة في هَلَكة هَلْكاء وساءت مصيراً.

وحُسْن مصير الأُسرة بانتظام سيرها. فلكل عضو منها وظيفهُ

الخاص له ما يناسبه من الحقوق والواجبات. والمصلحة هي في أداء كل وظيف على أكمل صورة. وكيف يستطيع ذلك ناقص العقل قصير الباع وهو كل جاهل ذَكَراً كان أو أُنثى؟ وبإحكام النظام في العائلة هو في إحلال كل عضو في المحل الخليق به: فَالأَبُ بصفته الرئيس له السلطة والسيطرة على الجميع. والأُم تابعة له وهو قيِّم عليها من الوجهة القانونية الشرعية. لكنها شريكته في الحياة والوِلْدَة، وهي وإياه سواء من الوجهة المعنوية. فسلطة الزوج تزري بشأن المرأة لأنها سلطة ناشئة عن المسؤولية وليست قائمة على مجرد التسلّط والإذلال. فلكلٍّ منهما منزلته ولكلٍّ منهما حُرمته ولكلٍّ منهما مجال عمله. وازدياد الأولاد يزيد روابطهما إحكاماً وتثبيتاً. وخير العائلة في حُسن تناسق وضعيتي الأبوين. وهذا التناسق إنما يكون مضموناً في العائلة التي أفرادها عارفون وعالِمون بما لهم وعليهم من حق وواجب.

5 ـ مكافحة الأُميّة بين قومنا أول واجب على الأُمة شعباً ودولة. والأُميّة تفتك بالنساء أكثر من فتكها بالرجال، لأنها تحيق بجنس ضعيف حسّاً ومعنىً وويلها في الأُمة يشتد على قدر ما يوجد فيها من نسوة جاهلات وهنَّ جميع النسوة تقريباً. وإن أكبر ما يشين المرأة ولو كانت «ملكة جمال» لهو الجهل[1] فإليه يعزى كثير من فساد التربية واختلال كثير من شؤون العائلة. والمسؤول عن هذه الأسواء كلها الرجل قبل المرأة لأنه قوَّام عليها وله عليها السلطة والنفوذ. ورُبّ قائل يعترض علينا بوجوب تعليم الرجال

(1) ولا نقرّ المثل القائل: عقل المرأة في جمالها وجمال الرجل في عقله، فلا جمال للرجل وللمرأة إلا في العقل وحسن الخلق.

قبل النساء ظنّاً منه أن المصلحة العامة تتطلب تقديم البنين على البنات في العلم والتهذيب. وهذا من الحماقة والخور، وليس هو من المصلحة العامة في شيء.

إن الأُمة تتركب من رجال ونساء. فالاهتمام بجنس دون الآخر تفريط عظيم وتقصير فظيع. والأُمة لا ترقى إلا برقي جميع أعضائها رجالاً ونساءً، وصلاح الأولاد تابع لصلاح الأُمهات، لأنهنّ الحاملات المُرضِعات المربيات. وهنّ المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الأطفال مبادىء التربية الأولى. وهنّ الأقطاب اللائي تدور حولهنّ الحياة العائلية، وهنّ في البيئة المنزلية السماء الممطرة والشمس المشرقة والأرض الخصبة. فالمرأة غيث ونور وثمر. إن علمنا هذا حق العلم اقتنعنا بوجوب تعليم المرأة لأنها أساس تربية الأبناء والنهوض بالعائلة من خفض الوهاد وضمان مستقبل زاهر للبلاد.

الأُم مـدرسـة إذا أعـددتهـا ... أعددت شعباً طيب الأعـراق
الأُم أُستـاذُ الأساتـذةِ الأُولى ... شغلت مـآثرهم مـدى الآفاق
ليست نسـاءُكمُ أثـاثـاً يُقتنى ... في الدور بين مخادع وطباق
تتشكـل الأزمان في أدوارهـا ... دولاً وهنَّ على الجمود بواق
فتوسطوا في الحالتين وأنصِفوا ... فـالشر في التقييـد والإطلاق

(حافـظ).

الجهل لا تحيى عليه جماعة ... كيف الحياة على يَدَيْ عِزِّيلا؟
وإذا النسـاء نشـأْنَ في أُميّـة ... رضع الرجالُ جهالـةً وخمولا
ليس اليتيم مَن انتهى أبـواهُ مِن ... همِّ الحياة وخلَّفاه ذليـلا

فأصاب بالدنيا الحكيمة منهما وبحسن تربية الزمان بديلا
إن اليتيم هو الذي تلقى له أُمّاً تخلّت أو أباً مشغولا
(شوقي)..

6 ـ حُسْن الأُسوة بالملك في تعليم الفتاة المغربية واجب لا محيد عنه. فإذا كانت مشكلة تعليم المرأة المسلمة قد أثارت في المشرق زوابع من الكلام وأسالت جداول من المداد وشغلت حقباً من الزمان. فإنها ما كادت تظهر في فجر نهضتنا لحيّز الوجود وتفرض نفسها على حَمَلَة الأقلام من المغاربة المفكرين والمصلحين، وتروّج ذكرها في الصحف والأندية والمجالس حتى هبّ جلالة الملك ـ أعزّه الله ـ فأعلن في صراحة واعتزام بين العلماء وطلبة العلم بالقرويين: «هناك أمر آخر نهتم به كل الاهتمام وهو تعليم بناتنا وتثقيفهنّ لينشأن على سُنن الهدى ويهذبن بما ينبغي حتى يتصفن بما يتعين أن تتّصف به المرأة المسلمة حتى تكون على بيِّنة من الواجب عليها لله ولزوجها وبنيها وبيتها».

بهذا التصريح أنهى جلالة الملك موقفه الحاسم إزاء مشكلة تعليم المرأة المغربية المسلمة وصدع في الأُمة بوجوب ترقية الفتاة بالعلم الصحيح والتربية الفاضلة كي تصبح أهلاً لوظائفها في العائلة والمجتمع. تكلم جلالة الملك في وسط العلماء بالقرويين وفي هذا من المغزى ما لم يفت أحداً من أبناء الأُمة ولا غرب عن فطنة هؤلاء العلماء أنفسهم الذين هم أعرف الناس بمسألة الشريعة والمرأة الذين يلزم أن يكونوا أكثر الناس خفوفاً إلى تعليم البنات.

ما كدنا نسمع جلالته الشريفة يجهر بالواجب الآكد علينا للمرأة في مجال نهضتنا العامة حتى ردّدنا مع المثل: قطعت جهيزة قول كل خطيب! نعم بذلك القول أراد جلالة الملك أن يوفّر على الأُمة خصومة قلمية عريضة كالتي قامت في المشرق يوم وضعت مسألة المرأة على البساط أمام الرأي العام، لأن خصومة كهذه يجب أن لا تستفحل وتستحكم بيننا فتشغلنا بالكلام دون العمل، وتؤدي بنا إلى طول الجدال الذي لا نظفر معه بنتيجة إلا بعد أن تفنى أزمان وتضيع أعمار ونزداد شقاء على شقاء وضغثاً على إبَّالة.

الخصومة في شأن تعليم المرأة المغربية قد تطورت بعد أن قال فيها الملك كلمته التي هي فصل الخطاب في الموضوع. فلم تبقَ خصومة تموج فيها الأهواء، وتتضارب في شأنها الآراء وتتعارض في مجالها الخصوم والأنصار. بل انقلبت سريعاً معركة في سبيل تعليم المرأة المغربية المسلمة تخوض معمعتها الأُمة لا يشذّ عنها أحد بقولٍ ولا عمل. فكلُّ ما يقال ويكتب ويعمل يجب أن يكون وسيلة وسلاحاً في يد المجاهدين المتظافرين على غزو وجهالة المرأة المستميتين حتى يربحوا المعركة ويفوزوا فوزاً مبيناً.

قال الملك الإمام كلمته النهائية فأصبحت كمّاماً لكل خصم معاند ونبراساً لكل مَن ينهج سواء السبيل. ولم يتكلم جلالته إلا بعد أن عمل هو نفسه في الميدان ما رأى أن يكون خيراً وقدوة للأُمة جمعاء (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد).

لا نريد بعد أن نطق الملك بالحق وأفصح عمّا فيه صالح الأُمة أن يبقى بيننا صوت مخالف ينازع في تعليم المرأة بل نريد أن تتحد الآراء كلها وتتبارى الهِمم جميعها كي تُزاح غشاوة الجهل المقيت عن عقول بنات هذا الجيل الذي هو جند النهضة وعمدة المستقبل. وفي المثال الذي سار عليه جلالة الملك في تعليم كريماته الجليلات خير مبدِّد لمخاوف المضطربين، وهواجس المحافظين، ووساوس المتزمتين. فلو رأى جلالته أيّ مانع ديني أو آفة خلقية في تعليم بناته لأحجم عن ذلك بتاتاً، ولكن حاشا الدين أن يرضى للمرأة المسلمة جهلها، وحاشا الملك أن يعمل ما لا يوافق الدين الحنيف ولا يطابق المصلحة. ومتى كفل الجهل للمرأة الصون والعفاف، والحصَانة لا يضمنها الجهل حتماً ولا تحفظ بالعلم لزوماً. وإنما قوامها أخذ المرأة بمكارم الأخلاق ووفاؤها بعهد الله وميثاقه. وقد يتوفر هذا في الجاهلة لكن العالمة أجدر بأن تعرف ما لها وما عليها وتميّز الخبيث من الطيب والفضيلة من الرذيلة. وقد حمدنا كل ما عمل وقال جلالة الملك في شأن ترقية المرأة بالعلم والتربية، وتفاءلنا خيراً بتزعمه هذه الحركة الجليلة التي سار فيها كثير من قومنا خطوات مشكورة والتي نأمل أن ينضم الناس إليها أفواجاً أفواجاً أُسوةً بصاحب العرش العظيم. وقديماً قالوا: الناس على دين ملوكهم. فواجب على الأُمة أن تهبّ من غفلتها وتحذو في تعليم بناتها مثال الأميرات الجليلات، وتأتمر في إنجاز هذا الإصلاح الضروري الخطير بالأمر المولوي. وإن جلالة الملك لحارص حرص الرعية على أن يكون تعليم الفتاة المغربية موافقاً لتعاليم الإسلام. لذلك

أمر جلالته بأن يوضع برنامج التعليم تحت إشرافه لئلا يلحقه شطط أو تحريف ليضمن رقيّ الأُمة من كل الحيثيات ويحفظ من الإهمال كما يحفظ من الآفات، ويتسنى لها أن تسابق الأُمم من غير خروج على مبدإ دينها الأقوم، تتعلم ما ينفعها ويحييها وتجنب ما يؤخرها. مقصدُها العلم الحقيق النافع، ورائدها الرشد البيِّن، لا تحيد عن طريق الهدى ولا تلوي على مهاوي الردى. وديننا الزكي الطاهر يُسرٌ لا عُسر، ومنهجه القويم الظاهر سهل لا قسر. أفبعد هذا يبقى أيّ مجال للتردّد لحظة في اقتفاء الأثر واستنهاج السبيل والاندراج في الحركة؟ لينهض العلماء الذين أرادهم الله هُداة للملّة ولْيكونوا في هذا العمل الصالح خير مَن يؤازر جهود أمير المؤمنين ويهدي هديه في الدعوة إلى العلم والتقدّم بالمرأة إلى الأمام.

هل يُراد بتعليم المرأة تحريرها؟

إن المرأة المسلمة ليست رقيقاً فتحتاج إلى إعتاق وتحرير. قد يتوهم بعض الأجانب أن مركز المرأة في الإسلام ينبني على القهر والاستبداد والاستعباد، وأن ليس لها من الحق إلا الرضوخ والاستسلام لإرادة الرجل. ومما يدفعهم إلى هذا الظن أن حظ المرأة في الإرث نصف حظ الرجل وأن الزواج بأكثر من واحدة مُباح، وأن الطلاق بيد الزوج دون الزوجة، وأن للزوج سيطرة بصفته قوّاماً على زوجته. فكل هذا ـ في ظن الأجانب ـ يؤدي إلى هضم حقوق المرأة وجعلها في منزلة وضيعة بالنسبة للرجل. وقد فات أصحابَ هذا الظن ما في تلك المسائل من حكمة

ومصلحة ليس هنا مجال تبيانها. والحقيقة أن الإسلام خوَّل المرأة من الحقوق ما يكاد يماثل حقوق الرجل، وأنه لم يخصّ الرجل بشيء دون المرأة إلا رعياً لمصلحة العائلة والمجتمع، على أن الشريعة لم تترك المرأة أمام الرجل عَزْلاء من كل سلاح، بل عملت لصيانة حقوقها بما فرضته من الشروط والقيود التي تُعدُّ ضمانات كافية. أما دعوى استرقاق المرأة فباطلة، إذ إن الشرع لا يبيح أن يُستَرَقَّ مسلم أصلاً، ثم إنه لا يبيح بعد ذلك إلا استرقاق أسرى حرب شرعية لم تقم إلا على إعلاء كلمة الله تعالى. مراعى فيها أن تكون مسبوقة باعتداء غير المسلمين عليهم. أما استرقاق غير المحاربين ممّن لا كتاب لهم ولا شُبهة كعَبَدَة الأوثان فقال مالك والشافعي وأحمد في إحدى رواياته إن ذلك لا يجوز مطلقاً»[1] وإني لأستحيي أن أستعبد إنساناً يقول ربي الله. (علي بن أبي طالب).

أما ما آل إليه أمر المرأة المسلمة من الجهل والانزواء فلا يقرّه الإسلام السمح. وبصفة عامة يجب أن لا يستدل على الإسلام بما عليه المسلمون اليوم في كثير من أحوالهم. ذلك بأن الله لم يكُ مغيِّراً نعمة أنعمها على قوم حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم. فإذا كان لا بدّ من التحرير فلا يكون هذا باسم المدنية الحديثة ولكن باسم الإسلام، وذلك بتطبيق تعاليمه السامية الخاصة بالنساء. وإنها لتضمن لهنّ من الحقوق ما لا تتمتع به نسوة كثيرة من الأُمم المتحضِّرة اليوم، ومن الحرية ما يناسبهنّ في الحياة الاجتماعية الراقية. والحجاب الشرعي لا يحُول بين المرأة المسلمة وما

(1) عبد العزيز جاويشي: **الإسلام دين الفطرة**.

تبتغيه من رقيّ وصلاح. كما أن مجرد السفور لا يضمن للمرأة رفعة ولا يجلب لها منفعة، فقيمة المرأة إنما هي بكمال عقلها وحسن خلقها. وكمال العقل بالعلم الصحيح وحسن الخلق بالتربية الفاضلة. وكلاهما في متناول المرأة المتحجبة والمرأة السافرة معاً. فمسألة المرأة التي نُعنَى بها ليست مسألة حجاب أو سفور، ولكن مسألة جهل أو علم. فالمرأة المتعلمة لا يضرّها الحجاب، والمرأة السافرة إن بقيت جاهلة لا يجديها السفور نفعاً ولا فضلاً، وخير منها مهذبة العقل والنفس ولو ظلت من وراء حجاب. وتعجبني في الموضوع كلمة حكيمة قالها أحد أفذاذ العلم والإصلاح من المسلمين في هذا العصر، وهي: إذا طالبنا بوجوب تحرير المرأة فإنما نطالب بتحريرها من رقّ الجهل وسلطان الغباوة فلا تعود تستسلم للخرافات وتنقاد لسيء العادات. وليس المراد بتحريرها أن تنزع عنها برقع الحياء والحشمة وتركب رأسها فتتصرف في شؤونها حسبما تشاء وتريد. ولم تخلق المرأة مستعبدة لمثل تلك الحرية وهذا التصرّف ولا يمكن أن تصادف وسطاً يلائم أن تعيش فيه هذه المعيشة المحفوفة بالأسواء والمخاطرة».

حقيقة التعليم المطلوب للمرأة:

إن التعليم الذي نريده للمرأة المسلمة هو ما يمكِّنها من معرفة دينها ولغتها وحضارة ملّتها وما يكون في يدها سلاحاً يقويها ويعزِّز جانبها في معترك الحياة العصرية. ولا بدّ من أن يكون لهذا التعليم روح قوية قادرة على أن تثبت في نفس المرأة ملكة التربية

الصالحة والفضيلة الكاملة. وربما كان بقاء المرأة جاهلة خيراً من أن تتعلم تعليماً مختلاًّ وتتربى تربية طالحة. إذ فساد التعليم وسوء التربية إنما يكونان حجّة على علم البنات في نظر الجامدين الذين يتوهمون باطلاً أن مجرد العلم لهنّ ضرر عظيم وأن لا وزر لهنّ إلا في الجهل وما يلزمه من نقص في الدين والعقل ونقيصة في النفس والسلوك.

فالواجب يقضي بأن لا نتساهل قطُّ في تعليم الفتاة وتربيتها. ومن التساهل أن نعمد بها إلى مَن لا يصلح لأن يكون لها معلِّماً ومربياً. وما أحقّنا في عنفوان النهضة وبداية الحركة النسوية ـ والبدايات دائماً صعبة شديدة ـ بأن نحرص الحرص كله على انتقاء المعلّم الذي تتوفر فيه جميع الشروط المطلوبة علماً وتهذيباً. فبهذا نتمكن من تحقيق الرقيّ المنشود للمرأة المسلمة ونقيم الحجة بحسن النتيجة على كل مَن يماحك ويلاجُّ في تعليم الفتيات، ونخدم قضية الإصلاح خدمة رشيدة أكيدة تنجح المساعي وتقرب المقاصد. ولا نخطىء إن قلنا إن تعليم الفتاة المغربية ما يزال في طور التجربة، وإن علينا أن نعمل جهد الإمكان لنجاحها كل النجاح، إذ لو خابت هذه التجربة كلها أو بعضها وساءت النتائج ولو جزئياً لخشينا أن تنقلب وجهة الإصلاح المتوخى، ويضلّ سعي العاملين المخلصين. فإن كان هذا ـ لا قدّر الله ـ شمت بنا الجاهلون الجامدون وضحكوا وسخروا وصفقوا زهواً وفرحاً، فظن الأغرار والمغفلون أن العلم فساد وخير منه الجهل وفوضى التربية.

هذه هي المبادىء العامة التي يجب علينا أن نسير وفقها في

تعليم البنات المسلمات وأن لا نحيد عنها رفقاً بهنّ وحفظاً لشرفهنّ وإعلاء لشأنهنّ في الحياة.

أما التعليم المناسب للمرأة فهو الذي يلائم خلقتها الطبيعية ويوائم وظيفها في الحياة الاجتاعية وذلك بصفتها زوجاً وأُمّاً وربّة البيت. فنحن لا نريد أن نزجّ بالنسوة في الشوارع ونقذف بهنّ في مجال الرجال يتزاحمن معهم على أبواب الوظائف ويتبارين معهم في مزاولة المهن ويضايقنهم في الصنائع والأعمال. فنظام الكون قائم على توزيع العمل بين الرجل والمرأة فلكلٍّ منهما مجال يعمل فيه ولكلٍّ منهما حقوق وواجبات في معترك الحياة ومملكة المرأة هي المنزل فهي مدبرته القائمة المسؤولة عن الأُسرة. فإذا خرجت المرأة عن دائرتها وأعرضت عن مهمتها وألقت بنفسها في معركة الرجال اختلَّت نظم الأُسرة وجنى المجتمع من ذلك شروراً كبيرة وتخبط في أزمات شديدة كما هو الواقع اليوم في جميع الأُمم التي اختلطت فيها النساء بالرجال في الحِرَف والمشاريع. ويجب علينا أن لا نغترّ بالظواهر التي كثيراً ما تخفي الحقيقة المؤلمة وتبطن الأضرار الفظيعة. وعلماء الاجتماع أدرى بما وراء الأكَمَة. فبمنافسة المرأة للرجل في وظائفه قلبٌ لأوضاع العائلة وإخلال بنظام المجتمع اللذين مصلحتهما في انتساق المواقف الخاصة لكلٍّ من المرأة والرجل. ولا يمكن لنا بحال أن نقلِّد الأُمم الإفرنجية في تطور النساء من غير أن ننظر سابقاً إلى تغيير وجهة نظرنا في الأخلاق والحياة، وهذا ما لا يصحّ وهو عسير لأن لكل أُمة أخلاقها ومزاجها ومدنيتها. فلا تستطيع أن تبدل شيئاً من ذلك كله دون أن تقع في أزمة شديدة

الوطأة ربما كان فيها حتفها. وإنما مجد كل أمة بقوميتها من دين ولغة وحضارة. أما ما يقتبس بين الأمم فهي العلوم والفنون التي يحتاج إليها في سير التطور والارتقاء، وحُسْن الاقتباس ليس هو التقليد المطلق ولكن اتخاذ الصالح واجتناب الطالح كما تفعل الشعوب الغيورة على تراثها الرشيدة في خطتها الموفقة في تدبير مصيرها.

حالة تعليم البنات بالمغرب:

ما زال تعليم البنات عندنا يخطو خطوته الأولى وما زال تنظيمه لم يصر أمره إلى قرار. وقد دلّت نتائج امتحانات الشهادة الابتدائية في سنة 1943 على أن تعليم البنات المغربيات لم تتسع دائرته إلى اليوم وأن الإقبال عليه ضئيل جداً. ففي فاس لم ينجح سوى 10، وفي الرباط 5 سادستهم الأميرة الجليلة عائشة وفي البيضاء واحدة فقط. نعم من المنتظر أن يتزايد عدد الناجحات في الشهادة الابتدائية كل سنة ويمتد تعليم البنات إلى غير المدن المذكورة لأن الدعوة إلى ترقية الفتاة بالتعليم تعمل اليوم عملها المحمود في النفوس وتلقى مؤيداً كبيراً من نشاط كثير من العائلات في تثقيف بناتها، وبالأخص من المثال العظيم الذي قدّمه جلالة الملك المنصور إلى الأمة في شخص الأميرات الجليلات حفظهنّ الله. فالأمل قوي أن تدأب الرعية على احتذاء مثال سلطانها المؤيد بالله وامتثال ما أمر به في صالح المرأة المغربية المسلمة التي يريد ـ أعزّه الله ـ أن تفوز بكامل حقها في النهضة والحياة وفق تعاليم الإسلام وضمن القومية العربية المغربية.

لكن حركة تعليم البنات يجب أن يعدّ لها ما تحتاج إليه من المدارس المتوفرة فيها جميع الشروط المطلوبة المُشار إليها سابقاً. ولئن كانت المدارس الرسمية للبنات قليلة منتشرة في رقعة البلاد فإن المدارس الشعبية الحرّة الكثيرة العدّ قد أخذت بالنصيب الأوفر في تلك الحركة، وذلك بما أحدثته من صفوف خاصة بتعليم البنات. غير أن التعليم في المدارس المذكورة يتجه اتجاهاً متبايناً ففي المدارس الحرّة يقوم التعليم على الدين والعربية بينما هو مختلط في المدارس الرسمية بل أكثره يُلقى بغير العربية لغة الدين والأُمة.

وإن الأُمة لتنتظر بفارغ الصبر أن يبرز لحيّز الوجود البرنامج الذي يُعنى جلالة الملك الهمّام بتخطيطه حسب تعاليم الدين الحنيف. ونعلم من الآن أنه حارص على أن لا يحتوي هذا البرنامج على أيّ شطط أو تحريف، بحيث يكون «ضامناً لرقيّ الأُمة من كل الحيثيات، حافظاً من الإهمال عاصِماً من الآفات» يُيسّر للمرأة المسلمة مجاراة نسوة الأُمم الراقية «من غير خروج على مبدأ دينها الأقوم، تتعلم ما ينفعها ويحييها وتجتنب ما يؤخرها ويرديها، مقصدها العلم الحقيقي النافع».

إن هذا البرنامج إن طُبق تطبيقاً كاملاً صادقاً سيجعل بناتنا المتعلمات من حيث الأخلاق والتربية في حرز منيع وعصمة واقية، فلا تتجدد أمام الأنظار العامة تلك المناظر الشنيعة المنكرة التي تشخصها في الشوارع بعض البنات المتفرنجات المتهتكات. فهنّ بسيرتهنّ هذه إنما «يحِدنَ عن طريق الهدى ويلوين على مهاوي الردى» فلا يرضى عنهنّ دين الإسلام ولا

القومية المغربية ولا آداب الحشمة العامة. وهنّ شرّ دعاية تسير بين الناس على قدم ضد العلم والرقي والصالح العام. وأعظم المسؤولية في هذا على أولياء أمورهنّ الذين يغضّون أبصارهم عن سيىء الأحوال وقبيح العادات التي عليها ذلك الرهط من الفتيات. وإنهم ليفعلون ذلك إمّا عجزاً منهم وإمَّا وهماً بأن ذلك السلوك الدنيء من البنات هو مظهر العلم والرقيّ والسعادة. فما أجدرهم بضعفة العقول ومرضى القلوب! وما أحقّهم بالرحمة والرثاء لو كانوا يعقلون!.

مستقبل الفتاة المغربية:

يجب علينا أن لا نخبط في تعليم الفتاة وتهذيبها خبط عشواء. بل يلزمنا أن نسير في هذا كله على بصيرة وهدى.

ونحن لا نريد في بيان ما يكفل المصلحة الراهنة ويضمن مستقبل هذا الجيل أن نتوسع كثيراً ونرمي بالنظر إلى أبعد الآفاق. لهذا سنقتصر على ما نراه الآن ممكناً وضرورياً.

قلنا إن جلالة الملك يشرف على وضع برنامج صالح لتعليم البنات المسلمات، لكن رغبة الأُمة هي أن يتولى جلالته الإشراف دائماً على مدارس البنات. ولكن الإشراف الملكي المباشر لا يمكن باستمرار. ولكي تراقب تلك المدارس عن كثب ينبغي أن يُناط ذلك برجال يستوفون الشروط اللازمة ويستحقّون ثقة جلالة الملك. وفي هذه المراقبة خير ضمان لتنفيذ البرنامج الشريف الخاص بتعليم الفتيات ولاطمئنان الآباء على حياتهنّ المدرسية وتعليمهنّ تعليماً بريئاً نافعاً. ومما يحسن التنبيه إليه تمكين الآباء

من المشاركة في الإشراف على سير التعليم بالمدارس النسوية، وذلك في صورة لجنة استشارية منتدبة لذلك. ففي هذا أكبر مشجِّع للناس على إدخال بناتهم للمدارس والمضي في ترقيتهنّ بالتعليم والتهذيب. أما التعليم الابتدائي الحالي فلا يضمن للبنات مستقبلاً. ذلك أنه لا يؤدي بهنّ إلاّ إلى الشهادة الابتدائية التي يحصلن عليها وهنّ صغيرات السن. فالتي أسعدها الحظ من حاملات تلك الشهادة أمكنها أن تتابع تعليمها وتهذيبها في البيت على يد أبيها أو إخوتها أو مدرِّس يعهد بها إليه وليّ أمرها. فإذا حصلت على نصيب أوفر من العلم والتهذيب استطاعت أن تستقل عن الغير وتكون فيما بعد معلِّمة نفسها. فهذه الفتاة يمكن أن يكون لها مستقبل لأن تعليمها لم ينته بالشهادة الابتدائية ولم يعفَّ على أثره الإهمال والنسيان بتوالي الأعوام. أما غيرها من حاملات الشهادة الابتدائية ـ وهنّ أكثرية المتعلمات ـ فمآل معارفهنّ البسيطة الأولى إلى الدثور والاضمحلال مع الزمان، لأنهنّ بعدما يفارقن المدرسة الابتدائية نهائياً ينزوين في البيوت، لا أولياء أمورهنّ يستطيعون متابعة تعليمهنّ ولا هنَّ يقدرون على الاستقلال بأنفسهنّ واستغلال ما عِلمنَ للزيادة في تثقيف عقولهنّ وتهذيب أنفسهنّ. فلئن أفادهنّ التعليم صغيرات فسيخسرنه كبيرات. وما يجدي التعليم إن كان مصيره الإتلاف والضياع؟

لهذا وجب التفكير في تلافي هذا الخطر الذي يتهدد بويله الفتيات المغربيات إلا أفراداً منهنّ قليلات. وليس الأمر بيسير في طور حياتنا الراهنة. فهل تؤسّس لهنّ مدارس ثانوية؟ لا نعترض مبدئياً على هذه الفكرة البديهية المنطقية. لكننا نرى أمام المشروع

عقبات لا تذلّل إلا مع الزمان وتطوّر الفكر العام. فخروج البنات اللّائي جاوزن العاشرة من السن واختلافهنّ مرات في اليوم إلى المدارس التي ربما كانت بعيدة عن بيوت الكثيرات منهنّ أو يتعارض مع أفكار الجمهور ويصطدم مع التقاليد المغربية. فهل نُحدِث مدارس داخلية (بانسيون) للبنات؟ هذا أيضاً مشروع لا يقدّر له كبير نجاح لأن الآباء لا يرضون سكنى بناتهم بالمدارس.

نعم يمكن تأسيس مدارس ثانوية للبنات تكون مشتملة على داخليات. فتكون البنات مخيّرات بين التردّد إلى المدرسة صباح مساء وبين تناول الغداء بها أو الإقامة فيها مدة الأسبوع. ولا شك أن تلك المدارس تظفر بتليمذات من هؤلاء وأولئك. لكن هل يكون عددهنّ كبيراً بحيث تعمر تلك المدارس العمارة التي تبرّر تأسيسها، هذا ما لا يجزم به.

فنحن بين أمرين: إما أن نتقدم على هذا المشروع ولو كلّف من تضحية الأموال ما كلّف معتمدين في نجاحه على عمل الزمان الذي بتواليه تتطور الأفكار وتستقر المشاريع الحديثة إذ يألفها الناس ويتلاشى سوء ظنهم بها وينبذون نهائياً ما كانوا يتوهمون من أن كل جديد بدعة وضلالة. والمغاربة عمليون سرعان ما تقنعهم النتائج الإيجابية وتهديهم الحقائق المحسوسة وتلهمهم الأمور المجربة. وإما أن نقتصر في البداية على حل وسط يوفّق بين حالة الأفكار وتقاليد الأُمة وبين ضرورات نهضتنا الحديثة. ذلك أنه يمكن إنشاء دروس تكميلية تعطى أسبوعياً لحاملات الشهادة الابتدائية الراغبات في مواصلة التعليم والتهذيب. ويمكن فتح هذه الدروس أيام العطلة الأسبوعية التي تعطى للمبتدئات.

وهذا من شأنه أن لا يضطر إلى تأسيس مدارس جديدة خاصة. ومما يجعلنا نشير بهذه الفكرة المعتدلة أن بناتنا لا يحتجن الآن إلى دراسة ثانوية كاملة تمكّنهنّ من شهادة الباكلوريا أو ما يماثلها. فكل ما تمسّ حاجتهنّ إليه اليوم هو صيانة معارفهنّ من التلف بعد نيل الشهادة الابتدائية وتمكينهنّ من وسائل تزيد في ثقافتهنّ حتى لا يتعرّضن مع السنين للوقوع في الجهل بعد أن مارسن العلم والتربية في عهد الدراسة الأولى. أما ما عدا هذا فيمكن اعتباره اليوم من الكماليات.

ولا تغرب عن البال الصفة العملية التي يمتاز بها هذا المشروع فهو من حيث المادة لا يحتاج إلى بذل كثير، إذ مدارس البنات الابتدائية هي التي تكون مراكز لهذه الدراسة التكميلية، ثم إن اختلاف الفتيات إلى المدارس مرتين في الأسبوع أهون على أهلهنّ من تردّدهنّ إليها في كل صباح ومساء.

وهذه الدراسة الأسبوعية كافية لإنفاذ البرنامج الذي بطبيعة الحال سيكون محدوداً إذ لا يشتمل على المعارف النظرية المعهودة في برامج مدارس البنين، وإنما يجب أن يكون مقيداً بالعلوم الضرورية للمرأة مراعى في تدريسها الجانب العلمي قبل سواه. ويمكن تقسيط برنامج الدراسة التكميلية على سنتين أو ثلاث وختم هذه المرحلة الثانية من تعليم البنات بشهادة تبرهن على نيلهنّ ثقافة عامة متوسطة وعلى كفاءتهنّ في مهنة خاصة. وبعبارة تشير هذه الشهادة إلى أن صاحبتها قد حصلت على ثقافة مناسبة تجدر بالمرأة الجديدة الراقية وتؤهلها لمهمتها في البيت والمجتمع.

أما نظام البرنامج المذكور فينقسم إلى قسمين:

أولاً: طور الثقافة العامة وتدبير المنزل وتربية الأطفال يشترك فيه جميع الحاملات للشهادة الابتدائية. ومدة هذا الطور سنة فأكثر.

ثانياً: طور التخصّص وهو يشتمل على:

أ ـ قسم التدريس ينخرط فيه التلميذات الراغبات في أن يتخرجن معلمات. وهذه المسألة مهمة جداً لأن انتشار تعليم الفتاة يتوقف على إعداد المعلمات، وإلا سارت المرأة المغربية في حركة تعليمها سيراً بطيئاً تضيع معه مصلحة هذا الجيل ويتعرقل به نمو النهضة التي نريدها قوية لناشئة البلاد بنين وبنات.

ب ـ قسم القبالة: تتلقى الداخلات فيه المعلومات النظرية اللازمة. أما الدروس التطبيقية الراجعة إلى التدريب فتكون بمستشفيات الولادة. وهذه المسألة ليست جديدة، فقد وقع منذ سنة 1941 تعليم القابِلات المسلمات في المستشفيات حيث يمارس أساليب الفن. وفي هذه السنة 1943 نجح في الفرقة الأولى عشر تلميذات حصلن على جوائزهنّ في القبالة. والقبالة مسألة لا تقلّ أهمية عن مسألة المعلمات. لهذا وجب أن يعنى بها عناية علمية مناسبة ترفع من شأنها في أعين كثير من الفتيات.

ج ـ قسم الصناعة: تعلّم فيه الصنائع المتداولة اليوم في مدارس البنات من طرز وخياطة وغزل ونسج إلخ...

موجز حياة
محمد حسن الوزاني

ـ ولد بفاس (المغرب) في يناير 1910.

دراسته الابتدائية والثانوية:

ـ دخل وهو صغير الكتّاب القرآني سيدي خيار (ساقية الدمناتي بفاس).

ـ سجل بمدرسة اللمطيين ليتلقى تكويناً عصرياً ويتعلم اللغة الفرنسية.

ـ بعد نجاحه في الشهادة الابتدائية دخل ثانوية مولاي إدريس بفاس حيث بقي أربع سنوات.

ـ كان يتابع دروساً عربية خاصة نمت معلوماته الدينية والعقدية.

ـ بعد إنهاء دراسته بثانوية فاس التحق بليسي كَورو بالرباط ومكث به عامين كان يقيم أثناءهما بداخلية الفرنسيسكانيين.

ـ قبل إنهاء دراسته الثانوية سافر إلى باريز حيث هيأ البكالوريا في ليسي شارلمان.

دراسته العليا:

ـ انخرط سنة 1927 في المدرسة الحرة للعلوم السياسية التي كان أول خريج مغربي منها.

كما درس في :

- كـوليج دوفرانس.
- وبمعهد الصحافة.
- وبمدرسة اللغات الشرقية.

- في أثناء مقامه بباريز عمق معلوماته في السياسة الدولية بإقباله على دروس التاريخ الدبلوماسي والقانون الـدولي التي كانت تنظمها مؤسسة «كارنيجي للسلام».

نشاطاته الثقافية والسياسية :

1927 - شـارك في تـأسيس جمعيـة طلبـة شمـال أفـريقيـا المسلمين، وهو عضو في مكتب هذه الجمعية.

1928 - انتخبـه الجمع العـام لجمعية طلبـة شمال أفـريقيـا المسلمين المنعقـد بباريـز في 16 ديسمبر 1928 أمينـاً عـامـاً للجمعية. ومحضر المداولات مكتوب وموقع بخط يده. وقد قام خلال هذا الجمع بمداخلة هامة دعا فيها شباب أقطار المغارب الثلاثة إلى التآزر والاتحاد.

1928 - نظم بتعاون مع بعض الطلبة العرب بباريز إرسال أول بعثة من الشبان المغاربة لمتابعة دراستهم بمدرسة النجاح في فلسطين.

1929 - شارك مشاركة فعالة في تأسيس جمعية الاتحاد العربي بباريز التي كان أول رئيس لها هو محمد صلاح الدين الذي أصبح فيما بعد وزير الشؤون الخارجية في حكومة النحاس باشا

بمصر. وانخرط عضواً في جمعية «كوكب الشمال الأفريقي» التي أسسها مصالي الحاج سنة 1926.

1929 ـ (شتنبر) علم أثناء مقامه بفاس بهدم مسجد سيدنا عمر بفلسطين من طرف القوات الإنجليزية بتعاون مع الصهاينة، فنظم احتجاجاً في شكل عريضة أمهرت بآلاف التوقيعات ووُجهت إلى الوزير الأول البريطاني. وقد تعرض بصفته المحرك لهذه العريضة إلى حملة من طرف الصحافة الاستعمارية.

1929 ـ (نونبر) بعد أن أقام مدة ببرشلونة، غادر هذه المدينة متوجهاً إلى باريز لإتمام دراسته.

1930 ـ أنهى دراسته العليا بباريز ورجع إلى المغرب.

ـ نظم قراءة «اللطيف» بعد صلاة الجمعة بالقرويين بفاس، وخرج على رأس مظاهرة شعبية في الشوارع احتجاجاً على صدور الظهير البربري (16 ماي 1930).

ـ على أثر هذه المظاهرة جلده الباشا ابن البغدادي، وحكم عليه بالسجن ثلاثة أشهر قضاها في تازا.

ـ وبعد خروجه من السجن ألزم بالإقامة الإجبارية بفاس.

ـ ولم يتمكن بسبب السجن والإقامة الإجبارية من حضور المؤتمر الأول لجمعية طلبة شمال أفريقيا المسلمين المنعقد بتونس يوم 20 غشت 1930.

1931 ـ غادر المغرب متوجهاً إلى فرنسا بعد أن حصل على جواز سفر لا تتجاوز مدة صلاحيته شهرين.

ـ نشر بتعاون مع أصدقائه بباريز كتاباً بعنوان: «عاصفة على المغرب، أو أخطاء سياسة بربرية» بتأييد من الأوساط الفرنسية المعارضة للسياسة الاستعمارية للحكومة.

1932 ـ (14 مارس) ألقى محاضرة بباريز عن «مولاي الحسن (الأول) أبي النهضة المغربية».

1932 ـ أقام في جنيف حيث تعاون مع الأمير شكيب أرسلان، ونشر مقالات في مجلة «الأمة العربية» «La Nation Arabe».

ـ اضطر إلى مغادرة سويسرا بسبب نشاطاته السياسية.

ـ توجه إلى مدريد حيث شارك في تأسيس «الجمعية العربية ـ الإسلامية» (جوان 1932).

ـ أقام في سبتة وتطوان (سبتمبر، أكتوبر، نونبر 1932) حيث اتصل بالوطنيين المغاربة في الشمال ونسق معهم برنامجاً للعمل.

1932 ـ (جويبى) شارك في باريز مع روبير جان لُونكَي في تأسيس مجلة «مغرب» وكتب فيها بانتظام مقالات مهمة.

1932 ـ (ديسمبر) توجه إلى مدريد حيث تحادث حول العلاقات السياسية والثقافية مع القادة الجدد للجمهورية الإسبانية.

1933 ـ (يناير) رجع إلى فاس ماراً بطنجة. فقام برحلة عبر المغرب نظم خلالها اجتماعات ومظاهرات في فاس، والخميسات، والدار البيضاء.

1933 ـ (4 غشت) أصدر في فاس الجريدة الشهيرة «عمل الشعب» بالفرنسية.

1933 ـ (19 - 23 شتنبر) قام في فاس بتهييء المؤتمر الثالث لجمعية طلبة شمال أفريقيا المسلمين الذي منع في آخر لحظة.

1933 ـ (8 ديسمبر) بعد أن حجزت المحكمة العدد 18 من عمل الشعب، أصدر محمد حسن الوزاني جريدة «إرادة الشعب» وقد أعطى محمد حسن الوزاني بتأسيس جريدة «عمل الشعب» و «إرادة الشعب» الحركة الوطنية المغربية سلاحاً خطيراً وفعالاً في نفس الوقت لتحقيق المطامح المغربية. بفضل هذه الجرائد تمكن المغاربة من اكتشاف حقوقهم إزاء الحماية، وبعض الحقائق لمبرراتها.

1934 ـ (مارس) حضر محمد حسن الوزاني بفاس في مؤتمر الاتحاد المغربي لجامعة حقوق الإنسان والمواطن.

1934 ـ (ماي) اتهام (عمل الشعب) بالتحريض على الشغب ومنعها من الصدور فكان ذلك رجوعاً إلى سياسة الخنق والقمع.

1934 ـ حضر محمد حسن الوزاني مؤتمر الحزب الاشتراكي الإسباني، ووجه إلى أصدقائه الفرنسيين تقريراً كاملاً عن أشغال هذا المؤتمر.

1934 ـ (18 شتنبر) حضر محمد حسن الوزاني الجمع الكبير الذي أقامته الرابطة ضد الإمبيريالية للتشهير بالضغط الواقع في تونس.

1934 ـ (فاتح ديسمبر) كان محمد حسن الوزاني ثاني اثنين قدَّما «برنامج الإصلاحات المغربية» إلى الحكومة الفرنسية في

باريز. وهو أحد المحررين الرئيسيين لهذا البرنامج.

1934 ـ (28 - 30 ديسمبر) حضر محمد حسن الوزاني في بروكسيل المؤتمر العالمي للرابطة ضد الإمبيريالية.

1935 ـ (11 يناير) حضر محمد حسن الوزاني تجمعاً هاماً لعمال شمال أفريقيا نظمته «الإغاثة الحمراء» في مقرها بشارع ماتيران ـ مورو بباريز.

1935 ـ (مارس) أصبح محمد حسن الوزاني، إلى جانب عدد من الصحفيين من بينهم جان لُونكَي، عضواً في اللجنة الموقتة لجامعة الشعوب المستعمرة، برئاسة أندري بيرطون.

1935 ـ (2 ماي) حضر محمد حسن الوزاني في باريز، إلى جانب جزائريين وتونسيين وسوريين، وهند صينيين، وملغاشيين، اجتماعاً نظمته لجنة الشباب ضد الحرب والفاشية، حيث درست مسألة مقاطعة المنتجات الفرنسية وبخاصة في شمال أفريقيا.

1936 ـ (31 ماي) حضر محمد حسن الوزاني المؤتمر الوطني للحزب الاشتراكي (S.F.I.O) فوزع على المؤتمرين والصحفيين المطالب المغربية في منشورين بعنوان: «نداء الشعب المغربي إلى حكومة الجبهة الشعبية»؛ و«نداء إلى الشعب الفرنسي».

1936 ـ (غشت) استقبل محمد حسن الوزاني بفاس على التوالي دافيد روسي، وروبير جان لُونكَي، ولِيُو وَانِيرْ، وروبير لوزو (نقابي ثوري) الذين جاؤوا ليبحثوا معه إمكانية إعانة الحركة الوطنية المغربية للجمهورية الإسبانية ضد فرانكو. فهيأ الوزاني

مع أصدقائه برنامجاً للمساعدة وتوجه صحبة عمر بن عبد الجليل إلى برشلونة حيث قدم بنجاح إلى الحكومة الجمهورية أطروحات الوطنيين المغاربة. وهيأ مع الجماعة الوطنية الدولية (Con-fédération Nationaliste Internationale) مخططاً للتعاون.

لم ترد الحكومة الجمهورية أن تطبق الاتفاقات المبرمة إلا بموافقة الحكومة الفرنسية للجبهة الشعبية، لكن للأسف عارض ذلك ليون بلوم.

وبعد أن أقام محمد حسن الوزاني مدة بإسبانيا توجه إلى باريز في محاولة لإقناع الحكومة الفرنسية لكن بدون جدوى.

1936 ـ (25 أكتوبر) عقدت كتلة العمل الوطني أول مؤتمر لها بالرباط.

1936 ـ (2 نونبر) رجع محمد حسن الوزاني من فرنسا وألقى خطاباً في مؤتمر كتلة العمل الوطني بفاس استعرض فيه نتيجة سفره إلى فرنسا ومساعيه لدى حكومة الجبهة الشعبية. ولم يخف خيبة أمله الكبرى على أثر موقف الحكومة، وفكر في العمل المباشر بالمغرب بعدما اقتنع بأن على المغاربة ألاَّ يعتمدوا إلا على أنفسهم. وهيئت حينئذٍ عدة مظاهرات من طرف كتلة العمل الوطني.

1936 ـ (14 نونبر) مُنع تجمع في الدار البيضاء حول حرية الصحافة، وأُوقف محمد حسن الوزاني بتهمة كونه المحرض على الاضطراب المستوحى من روبير جان لُونكَي. وقد وقعت حركات احتجاج في عدة مدن بالمغرب، تلتها عمليات اعتقال

عدد من المناضلين. ولأجل تلطيف الجو عمدت سلطات الحماية إلى إطلاق سراح محمد حسن الوزاني ورفاقه ورفع الإجراءات القمعية عن الصحافة الوطنية.

1937 ـ وقع في هذه السنة انشقاق في حظيرة كتلة العمل الوطني على إثر خلافات تتعلق بالبرنامج السياسي وبالبنيات المكونة للمنظمة. وانبثق عن هذا الخلاف حركتان: «الحزب الوطني»، و«الحركة القومية» ذات الاتجاه العصري الديموقراطي بزعامة محمد حسن الوزاني، التي كان لها من الصحف: «عمل الشعب» باللغة الفرنسية، و«الدفاع» باللغة العربية.

ساندت الحركة القومية بصحيفتيها الملتزمتين أعمال الاحتجاج المترتبة عن حوادث مكناس (2 شتنبر 1937) بسبب تحويل مياه وادي بوفكران، وحوادث مراكش (24 شتنبر 1937) التي أثارها البياز أثناء زيارة رماديي والجنرال نوكَيس إلى هذه المدينة.

وقد وقع حجز العددين 51 و 52 من «عمل الشعب» المخصصين لهذين الحدثين. وفي خضم موجة من القمع والاعتقالات أُلقي القبض على محمد حسن الوزاني، ونُفي بظهير نونبر 1937 حيث طال نفيه تسع سنوات.

1937 - 1946 ـ نفيُ محمد حسن الوزاني الذي ابتدأ في مستهل نونبر 1937 وانتهى في متم ماي 1946.

1946 ـ أسس محمد حسن الوزاني «حزب الشورى والاستقلال» بزعامته كأمين عام للحزب. ووضع لحزبه أهدافاً يمكن تلخيصها فيما يلي:

«إن حزب الشورى والاستقلال، كما يدل عليه اسمه، هو الحزب الديموقراطي المغربي الحق، وهو بطل إقامة ديموقراطية بالمغرب لفائدة الشعب المغربي. إن الكفاح الوطني من أجل الاستقلال في نظر الحزب، كان وما زال مرتبطاً ارتباطاً لا ينفصم بالكفاح من أجل إقامة ديموقراطية في إطار ملكية ليبرالية دستورية. لذلك فإن الاستقلال في نظر الحزب ليس غاية في حد ذاته، وإنما هو وسيلة لتحرير البلاد وجعلها من جديد مالكة زمام أمر مستقبلها، وذلك ما لا يمكن تحقيقه إلا بواسطة مجتمع حر ديموقراطي. وهكذا فإن الديموقراطية تظهر كالمحتوي لكل سيادة الأمة واستقلالها.

«ومنذ الاستقلال تأكدت رسالة الحزب الديمقراطية كعملية خلاص وطني، وكعمل ملح أساسي وحاسم لحياة البلاد ومصير شعبها.

ولكي يقوم الحزب بمهمته جند جميع العناصر الحيّة في الأمة. هذا التجنيد الضروري لقيادة النضال الديموقراطي للشعب المغربي. إن القوى المحركة الأساسية في هذا النضال لهي طبقات الكادحين والفلاحين، وأهل الفكر، والمثقفين، والبرجوازية الصغيرة، وعلى العموم جميع الأفراد والجماعات المقتنعين بالمثل العليا والأهداف القومية، الذين يضعون مصلحة الأمة فوق كل شيء.

إن خصومنا الأساسيين، فضلاً عن الاستعمار وعملائه في البلاد، لهي الإقطاعية والديكتاتورية بجميع أشكالها. وإن المهمة

الرئيسية والأولى لحزبنا لتتمثل في تنسيق النضال الديموقراطي على المستوى الوطني بكيفية مباشرة أو غير مباشرة، مع كفاح العمال والفلاحين والمثقفين والشبان والنساء وجميع أفراد الشعب على جميع الواجهات الضرورية، وبالأساس على الواجهة الإيديولوجية، والواجهة الاجتماعية، والواجهة الاقتصادية.

إن المنطلق العام للحزب هو أن يحوّل المغرب المضهد سياسياً والمُسْتَغَلّ اقتصادياً إلى مغرب حر في سياسته مزدهر في اقتصاده. كما يجب كذلك أن يتحول المغرب الجاهل والمتأخر إلى مغرب عالم متقدم، ولتحقيق كل ذلك يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار المبادىء الثلاثة التالية: الاستقلال، الديموقراطية، سعادة الشعب».

لم ينقطع محمد حسن الوزاني منذ رجوعه من المنفى عن الكفاح لتحقيق الأهداف التي رسمها لحزبه. ففي جريدة «الرأي العام» التي أسست في أبريل 1947، كتب بانتظام في افتتاحياتها الشهيرة «بالغمرات» مقالات أساسية تناول فيها مختلف موضوعات الساعة الوطنية والدولية، سواء ما يهم السياسة والاجتماع والاقتصاد. وإن مقالاته الطويلة لتعد دروساً حقيقية في علم السياسة.

1946 ـ (غشت) رفض محمد حسن الوزاني جميع الإصلاحات التي اقترحها المقيم العام إيريك لابون في خطابه يوم 22 يوليو 1946 وعارض في مشاركة الوطنيين المغاربة في مجلس شورى الحكومة.

1947 ـ (شتنبر) حرر محمد حسن الوزاني مذكرة 23 شتنبر 1947 المقدمة إلى الحكومة الفرنسية التي كانت موضوع محادثات رسمية بين حزب الشورى والاستقلال والمقيم العام بالرباط من أجل تسوية المشكل الفرنسي ـ المغربي على أساس إلغاء الحماية واسترجاع السيادة الوطنية وانتخاب مجلس وطني تكون مهمته الأولى إعطاء المغرب دستوراً قائماً على أساس ملكية دستورية، وقد ترأس وفد الحزب في هذه المحادثات.

1951 ـ (إبريل) كان محمد حسن الوزاني أحد المؤسسين للجبهة الوطنية المغربية التي وُقع ميثاقها في طنجة من طرف ممثلي الأحزاب الوطنية المغربية.

1951 ـ (غشت ـ 1957 يناير) هاجر محمد حسن الوزاني عن طواعية إلى الخارج فتوجه إلى عدد من البلدان لشرح القضية الوطنية والدفاع عنها (الشرق الأوسط، الولايات المتحدة الأميركية، إسبانيا، البرتغال، سويسرا، باكستان، الهند، إندونيسيا)، وحضر دورات الأمم المتحدة بباريز (قصر شايو)، وبنيويورك.

ـ شارك كعضو مؤسس للجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة التي كان الأمير محمد عبد الكريم الخطابي رئيساً لها مدى الحياة.

ـ مثّل حزب الشورى والاستقلال لدى جامعة الدول العربية بالقاهرة.

ـ حضر كممثل للحركة الوطنية المغربية في مؤتمر باندونك (إبريل 1955).

ـ قام من لوزان بتسيير المحادثات التي أجراها وفد حزب الشورى والاستقلال في إيكس ليبان (غشت 1955) نظراً لكون التراب الفرنسي كان محظوراً عليه.

ـ أقام في باريز بعد رجوع جلالة الملك محمد بن يوسف إلى فرنسا لمتابعة المفاوضات الفرنسية المغربية.

ـ رجع إلى المغرب بعد ذلك. ولما كان يعتبر أن استقلال بلاده لم يكن غاية في حد ذاته، فإنه اتجه منذ ذلك الحين لإقامة ديموقراطية حقيقية، وقد حدد هو نفسه المهام التي كانت تنتظره بقوله: كان همنا الوحيد منذ ثلاثين سنة هو تحرير المغرب والدفاع عن وحدة ترابه، ويمكن أن نقول إن هذا الهدف تحقق جزئياً. وقد بقي الآن أن نتم وحدتنا ونكمل استقلالنا وقد كان حزب الشورى والاستقلال ينادي دائماً، إلى الكفاح من أجل التحرير، بإعطاء الشعب المغربي تربية ديموقراطية حتى يتيسر له عند تحرير البلاد أن يسيّر دفة شؤونه الإقليمية والوطنية بصفة حازمة.

«وإن أول ما أهتم به الآن ـ يقول محمد حسن الوزاني ـ أن أتوجه بكليتي إلى إقامة أنظمة ملكية دستورية بكيفية عاجلة. وإن جلالة السلطان يحبذ هذا النوع من الحكم.

ثم لا بد من أن أستأنف الاتصال مع الجمهور المغربي والعاملين في حزبي وسيكون دوري هو تربية هذه الجماهير لأنبهها إلى الطامعين في استغلالها.

إن رسالتنا الأولى هي إبراز شخصية المواطن المغربي وتحريره

من المركبات والعقد النفسية التي تحول دون نمو الشخصية، ولذلك وجب التوجه إلى الشعب لفهم مطامحه والتنقيب عن أمراضه لنجد لها العلاج الناجع.

هـذا وإن المشاكـل الاقتصاديـة والاجتماعيـة الآن تتطلب الاستعجال أكثر من غيرها، فيجب الكشف عن الحلول الملائمة لها.

وعلى المغرب أن يجند ثرواته وقواته البشرية لخلق رفاهية اقتصادية في صالح جميع سكان المغرب، يجب علينا أن نقوم بكل مجهود لرفع موردنا الوطني وضمان توزيعه توزيعاً عادلاً، فلا ننس أن اقتصادنا ـ خلال فترة الحماية ـ كان اقتصاداً استعمارياً لم يستفد منه إلا الأجانب وبعض الاقطاعيين الذين تحالفوا مع النظام السالف. إن الشعب المغربي ما زال ينتظر تسوية المظالم التي ذهب ضحيتها وإني منذ الآن سأتجند لتحقيق هذا البرنامج».

وهكذا فإن محمـد حسن الوزاني لم يكن يكـافح لإقـامة ديموقراطية سياسيـة فحسب، ولكن أيضاً لإقـامة ديمـوقراطيـة اجتماعية. ألم يصرح في تـجمع بالدار البيضاء في يناير 1957 بقوله:

لقد كافحنا دائماً منذ تأسيس حزب الشورى والاستقلال لإقامة نظام ديموقراطي. هذا النظام الديموقراطي ليس نظاماً سياسياً فحسب، ولكنه أيضاً نظام اجتماعي. إن حالة الفلاح والعامل تفرض علينا مراجعة مفاهيمنا الاجتماعية من أجل ابتكار توزيع جديد ومنصف لثروات البلاد وفق طريقة حديثة وعادلة.

لا بد إذن من إعطاء مكانة لحياة كريمة للطبقة العاملة، لأن عالم الشغل عندما كان يكافح من أجل الاستقلال والحرية، كان ينتظر من هذا الكفاح العدالة ورغد العيش».

ـ كان الوزاني يتابع بكيفية موازية معركة التحرير الوطني، ويطالب «بوحدة أجزاء البلاد. فأراضي سبتة ومليلية، وإفني، ووادي الذهب، مثل كولومب بشار، والقنادسة، والطاوس، وتيندوف وموريطانيا يجب أن ترجع أراضي مغربية، ويجب أن نستعمل كل الوسائل لتوحيد بلادنا».

نهاية 1957 ـ ترأس محمد حسن الوزاني الوفد المغربي في المؤتمر الأفريقي الآسيوي المنعقد في القاهرة، وعين عضواً في المجلس الوطني الدائم لهذا المؤتمر.

1957 - 1959 ـ أقام مرات عديدة في كل من الشرق الأوسط وسويسرا.

1959 ـ سمي عضواً في مجلس الدستور المغربي، ولم يحضر قط جلسات هذا المجلس.

1959 ـ (غشت ـ شتنبر) انفصل بعض أعضاء المكتب السياسي لحزب الشورى والاستقلال عن الحزب ليؤسسوا مع المهدي بن بركة «الاتحاد الوطني للقوات الشعبية» مستحوذين على جريدة «الرأي العام» ومطبعة أمل. فجمع محمّد حسن الوزاني مؤتمراً بفاس في 1 و2 يناير 1960، وغيّر اسم حزب الشورى والاستقلال فأصبح يسمى حزب الدستور الديموقراطي، وأصبحت جريدة «شورى الرأي العام» الناطقة باسمه.

1960 (يوليوز) ـ سُمي محمد حسن الوزاني وزيراً للدولة، وبعد بضعة أسابيع قدم استقالته. وبصفته وزيراً للدولة ترأس الوفد الرسمي المغربي في المؤتمر التأسيسي لدول عدم الانحياز بالقاهرة، وفي مجلس الدفاع المشترك العربي.

1964 ـ انتخب محمد حسن الوزاني نائباً عن مدينة وزان في أول برلمان مغربي.

ـ وأصدر جريدتين سياسيتين: «الدستور» 1962، «السياسة» 1967، وكان رئيس تحريرهما. وفيهما كان يعرض أفكاره، سواء فيما يتعلق بالمسائل الوطنية أو الدولية.

1971 (يوليو) ـ أصيب محمد حسن الوزاني بجروح في حوادث الصخيرات، وبترت يده اليمنى. ومنذ ذلك الحين أمست حالته الصحية تتدهور واضطر إلى الإقامة للاستشفاء عدة مرات بالمغرب وبالخارج. وإذا كانت جراحه وأمراضه قد أصابته بكثير من الضعف فإنها لم تؤثر إطلاقاً على معنويته ونشاطه وقدرته على العمل. فقد تابع عمله السياسي بعقد اجتماعات عبر أنحاء المغرب يشرح فيها مواقفه بالنسبة للوضعية السائدة آنذاك. وقام بكتابة التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرة المغربية.

أما مواقفه السياسية تجاه المشاكل المغربية منذ 1971 فيمكن أن تلخص كما يلي:

1 ـ على الصعيد الداخلي:

أ ـ السياسة العامة: كان يرى أن المغرب يواجه آنذاك أكثر

من ذي قبل وضعية داخلية عميقة التردّي في الفساد الإفلاس، بل متوترة ومهددة بالانفجار.

لكن المسؤولين وأسفاه يبدون وكأن ليس لهم أي شعور بالأخطار التي تخفيها وبالتهديدات التي تتعرض لها البلاد. فالمغرب فيما يروّجون، يتمتع بأفضل صحة وسلامة كأن كل شيء فيه يسير على أحسن ما يرام.

غير أن الوضعية الداخلية تظل متأزمة وعرضة للانهيار. ومما لا شك فيه أنها وضعية أزمة تهدد في كل وقت بالانفجار. وإذا كان صحيحاً أنها ليست وليدة اليوم فهي سائرة إلى مأزق لا منفذ له بالنسبة للجميع.

ولذلك ففي هذه الساعة الحاسمة من الحياة الوطنية نرى واجباً علينا أن نصارح الجميع، إن لم يكن بالحقيقة كلها، فعلى الأقل ببعض الحقائق التي لم يبق في الإمكان كتمانها.

فأول ما نصرح به أن المغرب، منذ ست عشرة سنة، ما يزال يبحث عن طريقه وعن مسلك الإنقاذ والخلاص، وهكذا فإن جميع المغاربة يتساءلون مهمومين، بل منزعجين: إلى أين يسير المغرب؟ وما العمل؟.

ومعنى هذا: أين الداء وما الدواء؟.

وهي أسئلة تثار بحدة متزايدة كلما تحرجت الحالة بسبب عدم تغيير الحالة والمناهج الحكومية: ونحن مصممون على الإتيان لهذه الأسئلة ببعض عناصر الإجابة عنها.

فمما لا شك فيه أن المغرب يشبه «رجلاً مريضاً» من الضروري التعجيل بإنقاذه بواسطة «عملية جراحية كبرى» تستأصل الداء، وتجرى على يد «طبيب ماهر» هو قيادة جديدة قادرة على حكم البلاد حكماً صالحاً صحيحا.

وبهذا تثار اليوم أكثر من كل وقت مضى المشكلة السياسية في المغرب المستقل، وهي مشكلة لا سبيل إلى تسويتها إلا بإخراج البلاد من الأزمة التي يتخبط فيها الجهاز السياسي الراهن، إذ بدون حل هذه المشكلة الجوهرية يستمر المغرب في معاناة الفراغ الكبير الذي تتصف به الحياة العامة وهذا الفراغ لا يمكن ملؤه بقيام أي «رهط من الحكم» أو بإيجاد أية مؤسسة تبرز فوق مسرحها ديموقراطية اسمية أو وصائية أي ديموقراطية بلا شعب.

وبكلمة واحدة، فإن المشكلة السياسية المتحدث عنها سابقاً تعبر حقاً عن أزمة الدولة وعن إفلاس الطبقة المسيرة في المغرب. قال بعضهم: «إن الطبقة القائدة التي لا تستطيع الاحتفاظ بانسجامها إلا بشرط أن تحجم عن العمل والتي لا يمكن أن تدوم إلا بشرط أن تمتنع عن التغيير، والتي لا تقدر على مسايرة مجرى الأحداث ولا على استخدام الطاقة الفتية للأجيال الصاعدة لمحكوم عليها بالانقراض والاضمحلال من التاريخ».

ولنعد إلى الوضعية متسائلين: كيف العمل لمعالجتها؟ الحقيقة هي أنه ليس من سبيل إلى هذا إلا بإعطاء المشكلة السياسية

الكبرى لمغرب اليوم الحل الذي تتطلبه حتماً ولزوماً.

ونعني بهذا أن الحل الذي يفرض نفسه هو أن يمكّن الشعب المغربي من أن يصير قائد نفسه، والمسؤول عن مصيره، وصانع مستقبله. فاسترجاع هذا الحق الطبيعي، المطلق، غير القابل للتفويت أبداً ليس معناه بالنسبة للشعب إلا وضع حد لغيبته عن تسيير شؤونه العامة، ولحرمانه من تدبير تراثه القومي كأنه، مع الاستقلال الذي انتزعه بضراوة الكفاح، لم يسترجع حقه في أخذ مصيره بيده، وتولي حكم نفسه بنفسه، وذلك بصفته شعباً راشداً، وسيداً في وطنه.

إن كل حل غير هذا للمشكلة السياسية الجوهرية في هذا البلاد ـ وهي مشكلة تعني السيادة الوطنية وممارسة الشعب لسائر الحقوق الناتجة عنها ـ لا يمكننا إلّا أن نقابله بالرفض الكلي المطلق ممتنعين بهذا عن كل حل آخر لا يكون أصح الحلول وأفضلها على الإطلاق.

وفي انتظار هذا، فإن المشكلة الوطنية الأساسية، وذات الأسبقية ما فتئت هي المشكلة الرئيسية التي تعد مفتاح العلاج للوضعية الراهنة في المغرب. فمن الواضح البين إذن أن حل كل مشكلة داخلية أخرى، مهما كانت أهميتها، إنما هو رهن حتماً بإعطاء تلك المشكلة ذاتها أفضل وأمثل حل لها. بل لنوضح بكل دقة أن تلك المشكلة الرئيسية ليست غير حكم البلاد حكماً صالحاً رشيداً، وهي مشكلة لا يمكن حلها كيفما اتفق وجرى، بل بكل الجدية التي تجدر بها. أما باعتبارها مشكلة وطنية في جوهرها فيجب ألا تباشر تسويتها خارج الأمة، بل معها ومن

أجلها. ولإنجاز هذه التسوية لا يوجد غير طريق واحد هو تزويد البلاد بحكم وطني صالح أي بحكم من طراز جديد، وعلى غير مثال سابق في المغرب.

فماذا نعني إذن بهذا الحكم؟.

في مذكرة سياسية مرفوعة إلى رئيس الدولة، في 20 أبريل 1965، سبق لحزبنا أن أثار نفس المشكلة، وأشار إلى الحل الملائم لها. فالمسألة اليوم كأمس هي، في رأينا، مسألة طي صفحة التجارب الحكومية السيئة الحظ طياً نهائياً، وتمتيع البلاد بحكومة صحيحة أصيلة تتولى الحكم حقاً وواقعاً باسم الأمة، ومن أجلها، وبسندها. وبهذا وحده تتوفر لها قيادة سياسية في مستوى الرسالة الملقاة على كاهلها، والمهام التي عليها الاضطلاع بها، والمسؤوليات التي تتحملها في خدمة الصالح الوطني.

ولتحقيق هذا المطمح الأساسي والاجتماعي للأمة فإن التغيير الكامل لكيان الجهاز السياسي القائم في البلاد هو وحده الذي يمكن أن يؤدي إلى ذلك.

وبعبارة أخرى، يتحتم تغيير الأجهزة ورجالها، والسياسة ومناهجها. أما الحكومة الوطنية الصالحة ذاتها فلا يمكن أن تكون إلا حكومة من نوع جديد، كما يجب أن تتألف من رجال النخبة الحقيقيين وذلك بما لهم من مقدرات، وجدارات ومزايا. فهم رجال ذوو قيمة وأهلية بفضل تكوينهم، وكفاءتهم، واستقامتهم، وفعاليتهم، وتفانيهم في خدمة الصالح العام، والثقة التي يستمدونها من الأمة.

وحتى تكون الحكومة الوطنية الصالحة مؤهلة للاضطلاع بمهامها القومية، وتعمل كقيادة جديدة جديرة بأداء رسالتها على رأس البلاد، يجب أن تكون مزودة بجميع السلط والوسائل التي تكون لكل حكومة حقيقية ونشيطة وفعالة وبكلمة واحدة، لحكومة تتولى الحكم بالفعل وبجدوى.

وقيام هذه الحكومة يتنافى مع كل حكومة تتألف من «رجال مسخرين» أي يدخلها أي واحد، ليعمل أي شيء بأية كيفية. ومن شأن مجيء الحكم الصالح أن يملأ الفراغ الذي يطبع الحياة العامة، كما يكون من شأنه أن يؤسس الحوار بين شقي البلاد الرسمي والحقيقي، أي بين الحكومة والأمة.

وخلاصة الأمر أن مجيء تلك الحكومة الوطنية هو الحل الوحيد للمشكلة السياسية الكبرى التي يثيرها تنظيم الحكم وممارسة السلطة في المغرب.

فانعدام هذا الحل الذي لا يمكن أن يوجد فيه محاورون صالحون، ولا حوار نافع بين الحكام والمحكومين والمواطنين، وبعبارة أخرى، إن المأزق السياسي الذي تنحبس فيه البلاد يستوجب بالضرورة مخرجاً سياسياً يتحقق بتغيير المفاهيم والأساليب في مجال الحكم، وهذا يعني نهج سياسة كبرى تستهدف تحقيق نهضة التجديد الذي تطمح إليه الأمة جمعاء. وبتعبير واضح، يعني هذا، في رأينا، القيام بتنظيم ثورة باردة من الأعلى هي التي ما فتئنا ندعو لها، منذ 1962، كسياسة وبرنامج لقيادة جديدة تتمتع بتقدير، وثقة، وسند البلاد. وللقيام بمهمة

التجديد الوطني التي هي مهمتها فإن على القيادة الجديدة **أن** تبني عملها على برنامج من الإصلاحات الجريئة المطابقة لمقتضيات الساعة، وللمطامح المشروعة للأمة. وهذا البرنامج المزدوج يتألف، **أولاً**، من برنامج الحد الأدنى أو المستعجل، وهدفه إعادة الصفاء إلى الجو المعنوي للبلاد وتقويم الوضع الناشىء عن الأزمة الداخلية، وإعادة الثقة إلى الشعب محدثاً بهذا كله الهزة النفسية الضرورية، **وثانياً**، من برنامج الحد الأقصى أو المؤجل، ويشتمل على الإصلاحات الجذرية الهادفة إلى قلب الأوضاع والأجهزة رأساً على عقب، وإحلال تنظيم وطني جديد محلها يشاد على دولة عصرية، وحكومة صالحة واقتصاد منظم ومجتمع جديد.

وهكذا لا يوجد، في رأينا، منفذ للمأزق السياسي الحاضر خارج ما نسميه بالثورة الباردة من الأعلى التي هي ثورة عنيفة تنبعث من تفكير صحيح، وتقوم على نظام محكم، وتقاد قيادة موفقة.

نعم، لسنا نرى غير ذلك وسيلة لحل الأزمة الداخلية التي تهدد بدفع البلاد إلى ما لا تحمد عقباه، وطريقاً لخلاص الأمة المغربية التي تطمح بصفتها حرة سيدة إلى أن تُحيي تاريخها، لا أن تتحمله ويفرض عليها فرضاً.

أما الوضع المتأزم بكل إصرار في المغرب فنرى، مرة أخرى، واجباً علينا أن نرفع الصوت للمطالبة بتغييره بغية قيام وضع وطني جديد، وبحق الشعب المغربي في أن يحكم حكماً

صحيحاً صالحاً بوصفه شعباً راشداً، وصاحب السيادة، ومالكاً لمصيره.

فَكَفى المغربَ ما ضيع عليه من أوقات، وجهود، وأموال، وكفاه ما عومل به كوطن حر انتزع استقلاله وسيادته بشديد الكفاح وجسيم التضحية، أي كوطن جدير بممارسة حقوقه كاملة في الحكم والسياسة لا وصي عليه ولا رقيب ولا حسيب أبدا.

وباختصار إن المسألة الجوهرية التي ما فتئت مطروحة على البساط هي مسألة تغيير جذري كامل للأوضاع في الداخل، لا مسألة تعديل جزئي للدستور لا يسمن ولا يغني من جوع، ومسألة التغيير ـ في نظرنا ـ مسألة ثورة باردة من الأعلى دون سواها، وهي ثورة فرضتها أحداث مضت وأخرى قد تكون الأيام بها حبلى. وبديهي أن الثورة الباردة من الأعلى ذات طورين متزامنين، ودورين متلازمين، هما الهدم والبناء، والتغيير والتطوير، والتصحيح والإصلاح.

فالثورة الباردة من الأعلى هي السياسة الانقلابية التي تستطيع أن تقتلع الفساد من جذوره، وتبني المغرب الجديد دولة ومجتمعاً وتنطلق بالأمة نحو الآفاق الجديدة حيث التطهير والإصلاح، والإنقاذ والخلاص، فهذا في نظرنا هو الطريق، ولا طريق سواه.

أما إذا بقيت دار لقمان على حالها واستمر ما كان على ما كان فسيظل المغرب معرضاً لما لا تحمد عقباه نتيجة عدم الاستقرار وعدم الأمن، وليس من شأن هذا إلَّا أن يزيد الأوضاع فساداً، والأزمة تفاقماً، والانفجار تزايداً. وخلاصة القول: أن الشعب

المغربي لم يعد يطيق تحمل ما هو فيه من أوضاع الفساد والتعفن والانحراف والتدهور، وأنه أصبح أكثر من ذي قبل جد قلق على حاضره ومستقبله، وكل هذا يدفع به إلى التماس الإنقاد والخلاص على أَحَرَّ مِن الجمر. ونعتقد أن السبيل الوحيد إلى كل إنقاذ وخلاص لنا هو القيام بثورة وطنية جديدة فعالة بوسائل الحكمة والإصلاح، وبواسطة التشريع والتنظيم، وذلك في نطاق إجماع وطني رائع، وتعبئة شعبية حماسية تشمل سائر عناصر الأمة المغربية المتطلعة إلى مصير أحسن مهما كلفها من جهد وتضحية. وإذا كان ضمان الاستقرار والأمن والطمأنينة هو أول وأفضل ما يجب على كل دولة أن توفره للأمة في نطاق القانون العادل والمشروعية الصحيحة، والديموقراطية السليمة حقاً التي تستمد وجودها فعلاً من الشعب ولا تكون إلا في خدمة الصالح العام فيجب التعجيل بنهج السياسة المؤدية إلى كل هذا في الحقيقة والواقع. وبهذه المناسبة نعلن بصراحة أن كل حوار يجب أن يكون مع كل القوات الحية الواعية في البلاد، وذلك بغية إقامة نظام الحكم الصالح بدل أوضاع الفساد الداخلي الذي يشكل أعظم خطر على حياة الأمة حاضرها ومستقبلها. فبقاء ما كان على ما كان في الحكم والسياسة، والاستمرار في التحايل من أجله بوسائل اللف والدوران والمغالطة والمراوغة إنما يعرضان البلاد وشعبها مرة أخرى إلى سوء المنقلب والمصير بالنسبة للجميع وبدون استثناء، فالحوار المنشود يتحتم أن يهدف إلى وضع الأسس التي يجب أن يشاد عليها نظام الحياة العامة الجديدة للأمة في عهد استقلالها وسيادتها، وبمقتضى إرادة التحول والتجديد

لديها، والعاقبةُ للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

التجارب البرلمانية:

ولما اتخذ محمد حسن الوزاني موقفاً ضد مشروع مراجعة الدستور (1972) شرح وجهة نظره المتعلقة بالتجارب البرلمانية فكتب في هذا الموضوع: «ومن تلك التجارب والمحاولات التعسة الحظ العمليات الدستورية ومؤسساتها التمثيلية على اختلاف أنواعها ودرجاتها، وقد كانت النتيجة الحتمية أنها مسخت الديمقراطية في هذه البلاد وشوهت سمعتها، وأفسدت أنظمتها، وأساءت إليها في نفس الأمة التي لم تجرب منها إلا ما هو غير ذي قيمة وجدوى.

وإذا كانت الديمقراطية والدستور من مطالبنا الأساسية فإن هذا لا يعني مطلقاً في كثير ولا قليل «سياسة الدمقرطة والدسترة» كما ألفناها في بلادنا حتى اليوم، لأنها سياسة محكوم عليها في مهدها بالخيبة التامة والفشل الذريع».

وفيما يتعلق بعدم تسجيل المواطنين في القوائم الانتخابية أعطى محمد حسن الوزاني التفسير التالي:

«إذا كان النقص في تسجيل المواطنين في القوائم الانتخابية يعد ثغرة في الهيئة الناخبة المغربية فإن سبب ذلك يرجع إلى إعراض الملايين من المواطنين المسجلين وغير المسجلين عن الانتساب كما جرى ويجري كل مرة في المغرب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن التسجيل وسيلة لا غاية، إذ الغاية هي إقامة نظام ديمقراطي حقيقي سليم يستمد وجوده حقاً من إرادة الشعب، ولا

يعمل إلا لصالح الشعب، بحيث لا يكون اسماً بلا مسمى، كما لا يكون ملفقاً ومسخراً لمصلحة الحاكمين وسياستهم الظرفية، وذلك ما ينبغي أن يتحقق على أساس شورى الحكم طبقاً للمنهج الإسلامي الأصيل.

والخلاصة أن التسجيل الذي لا يكون وسيلة لتلك الغاية إنما هو مجرد عملية يراد بها تزييف إرادة الشعب، وصنع مؤسسات من النوع المألوف الذي لا يمت إلى الحكم الديمقراطي بصلة، وتسخير المؤسسات لما سخرت له سابقاتها إن لم يكن أكثر، وهكذا تكون عملية الانتخاب ونتيجتها مُنَافِيتين لمفهوم ومشمول الانتخاب وهو حرية التصويت وسلامته من كل غش، إذ بدون هذا لا يؤدي الانتخاب مهمته لصالح المواطنين، ويكون وسيلة لخدمة أغراض السياسة ودعايتها، ولا يخرج عن كونه مجرد ديماغوجية مهرجة ومضللة. والجدير بالذكر أنه في نفس الوقت الذي تعمل فيه أبواق الدعاية الرسمية من صحف وإذاعة لترغيب المواطنين في التسجيل كما ينشط أعوان السلطة بممارسة شتى الضغوط على المواطنين لنفس الغرض، نلاحظ أن ممارسة الحقوق الديمقراطية الأخرى كحرية التعبير عن الرأي وحق المعارضة بواسطة الصحف وغيرها تعرقل عملياً بواسطة الرقابة البوليسية المفروضة على الصحافة خلافاً لقانون الحريات العامة وللدستور الرسمي الذي يفرد لها باباً خاصاً، فلماذا تحرصُ السلطة على ممارسة المواطنين لحق التسجيل في لوائح الانتخاب دون بقية الحقوق التي لكل إنسان ومواطن؟ السؤال يحمل في طيه الجواب. . .

2 ـ على صعيد السياسة الخارجية:

كتب محمد حسن الوزاني في موضوع السياسة الخارجية:

إن الشعب المغربي ما يزال شديد التمسك بحقه المقدس في استرجاع ما اغتُصب، زمن الاستعمار وعلى يد الاستعمار طبقاً لسياسة التوسع والتراضي، من الأراضي المغربية الصميمة التي لا تتم سيادة ولا وحدة بدون تحريرها من قبضة الغاصبين والمحتلين مهما طال الزمان ومهما كلفه ذلك من ثمن وتضحية، كما أكد معارضته لكل سياسة تتصف بالتخلي والتنازل بغير حق وبصفة غير مشروعة عن أي جزء من تلك الأراضي، وكذلك لكل معاهدة أبرمت أو قد تبرم لهذا في غيبة الشعب صاحب السيادة والتراب الوطني المحرر أو المغتصب لحد اليوم. وبمناسبة الاتفاق المبرم في مؤتمر القمة الأفريقي بالرباط في يونيو 1972 يلاحظ بكل دهشة واستغراب عدم نشر هذا الاتفاق الذي احتُفظ به سراً على الشعب لسبب غير واضح، بحيث كان وما زال يجهل حقيقة ما جرى بين المسؤولين في المغرب والجزائر خلال سنوات من لقاءات، ومخابرات، واتفاقات ظلت كلها في طي الخفاء، الأمر الذي جعل الشعب في الداخل والرأي العام في الخارج يجهلان ما تم وما لم يتم في مشكلة الحدود والأراضي المحتلة، وهكذا وبعد نحو شهرين لا يعرف المغاربة خريطة بلادهم الحقة كأنَّ أمرها لا يعنيهم مطلقاً في قليل ولا في كثير. ولهذا نطالب المسؤولين في بلادنا بكشف مخبئات الدبلوماسية المغربية حتى يحكم الشعب عليها عن خبرة وبينة.

كما نستنكر بشدة كل سياسة تميل إلى التهاون والتساهل جرياً

مع العواطف وطلباً للحلول السهلة على أساس قاعدة «كم من حاجة قضيناها بتركها» ونطالب بنبذ تلك السياسة المتسمة بالعجز، وبسلوك سياسة خارجية جديدة بإعادة التفكير في أسس واتجاهات الدبلوماسية المغربية، وذلك لجعلها أكثر مطابقة للمتطلبات الوطنية ومراعاة للمصالح العليا للوطن والأمة، وهو ما يتم بترك كل سياسة عاطفية متساهلة، ونهج سياسة تتقيد بالواقع والحقيقة، وتسير على ضوء التجارب بالنسبة للأشياء، والرجال، والدول؛ وكل سياسة غير هذه إنما تسير على غير هدى وتتعرض للفشل والخيبة، وتجر البلاد إلى الهزيمة والكارثة.

3 ـ فيما يتعلق بالوحدة الترابية:

فيما يخص الوحدة الترابية، كتب محمد حسن الوزاني في يونيو 1975:

1 ـ إن قضية التحرير والتوحيد قضية ترابية لا تقبل التجزئة، فهي تشمل جميع ما يسيطر عليه الاستعمار الإسباني شمالاً وجنوباً في البر والبحر من المدن والجزر والأقاليم، كما تشمل سائر الأصقاع التي احتلتها فرنسا في عهد احتلالها وسيطرتها بالشمال الأفريقي كله والتي أرادت التفاوض مع المغرب في 1958 لإرجاعها إليه، ثم ترامت عليها الجزائر التي اعتبرت نفسها وارثة الاحتلال الأجنبي والاستعمار الفرنسي فيما اقتطعته فرنسا من المغرب وألحقته بسيطرتها في الجزائر والملحقة هي كذلك بالتراب الفرنسي مدة احتلالها منذ 1830، وتقع المنطقة الصحراوية المغتصبة من لدن الجزائر بعد فرنسا بين بشار

والقنادسة شرقاً وبين تيندوف غرباً وتمتد إلى أقصى حدود المغرب التاريخية جنوباً.

2 ـ إن تحرير وتوحيد الأقاليم والأطراف المغتصبة يعد أسبقية جميع الأسبقيات كيفما كان نوعها وشأنها في المغرب، لأنها قضية حياة أو موت بالنسبة إليه، فهي بسبب هذا تتعلق بمعركة وطنية مصيرية تهون في سبيلها كل التضحيات.

3 ـ إن قضية التحرير والتوحيد قضية المغرب كله، والأمة جمعاء، فلا يجوز لأي فريق أو لأي فرد أن يحاول الاستبداد بأمرها واستغلالها بأي شكل للدعاية الحزبية أو للتهريج الغوغائي.

4 ـ إن البت في قضية الوحدة الوطنية الكاملة لا يعني غير المغرب وطناً وأمة ودولة، وإن الفصل فيها بإحقاق حق المغرب وإبطال باطل الاستعمار وحلفائه وعملائه ومرتزقته، حكومات كانت أو جماعات أو أشخاصاً، لا تملكه أية منظمة خارجية كيفما كان نوعها، بل العمدة في ذلك إنما هو الشعب المغربي بجميع طاقاته ووسائله وقواته، وفي طليعتها الجيش الوطني. فالوحدة غايتنا، والجهاد سبيلنا، وما النصر إلا من عند الله، ولينصُرَنَّ الله من ينصره.

5 ـ إن تكتل الجزائر وموريطانيا مع الاستعمار الإسباني ضد المغرب سراً وعلانية قد فضح سياسة ما يسمى «بالمغرب العربي» وطعن في الصميم التضامن المنسوب إليه، فأقام البرهان على أن المغرب العربي لا يعدو أن يكون أسطورة فارغة، وورقة خاسرة

خصوصاً بالنسبة للمغرب الذي توسعت وتحاول أن تتوسع الجزائر على حساب أراضيه المغتصبة سواء في عهد الاستعمار أو بعد الاستقلال.

6 ـ إن الاعتبار بالوقائع، والاتعاظ بالتجارب، من جهة، ومتطلبات الواجب الوطني، وضرورات المصلحة العليا للبلاد من جهة أخرى، تقضي كلها بأن يعجل المغرب بإعادة النظر جذرياً في سياسته الخارجية، وذلك بنبذ سياسة العواطف والمجاملات، والأوهام والخيالات بدعوى المرونة والتساهل، وبتقييم مواقفه على أساس صحيح وسليم من الواقع، والواجب والمصلحة. إن التمادي في سياسة الأساطير، والتساهلات والتنازلات إنما هو إمعان في الخذلان، وإخلال بقضايا الوطن، وإهدار لحقوقه، وتضحية بمصالحه، وهو العمى السياسي الذي نربأ بأنفسنا عن الوقوع فيه فضلاً عن اتخاذ أي موقف يتصف به.

7 ـ إن المغرب ـ تمسكاً بحقه، ووفاء لقضيته ـ أصبح مضطراً إلى مراجعة موقفه من الجزائر وموريطانيا وبعض الدول العربية، وجامعة الدول العربية، وذلك نتيجة سلوك كل واحدة منها تجاه مسألة استرجاع كامل التراب الوطني المغربي المحتل.

8 ـ إن لجنة تقصي الحقائق الأمنية تخلت ـ على لسان رئيسها ـ عن حيادها بعد زيارتها للجزائر وأثناء وجودها بموريطانيا حيث تبنّى المسؤول عنها في تصريحات بباريس ونواكشوط وجهة نظر الاستعمار والمتواطئين معه ضد المغرب وقضيته مع الجزائريين والموريطانيين، فحاد بذلك عن حقيقة مهمة اللجنة حتى

بلغ به الأمر أن طعن في تحكيم محكمة العدل الدولية بطلب من هيئة الأمم المتحدة. وبذلك الموقف فقدت اللجنة كل صلاحية للبحث والتحقيق باسم لجنة تصفية الاستعمار، وفشلت في مهمتها معرضة تقريرها إلى الطعن من لدن المغرب إن تضمن ما يؤيد باطل الاستعمار وحلفائه وعملائه ضد حق المغرب في استرجاع صحرائه المغتصبة.

9 ـ إن البلاغ الجزائري المكيافيلي الصادر في 31 مايو 1975 باسم وكالة الصحافة الجزائرية الرسمية يثبت، بشكل صريح ووقح، التواطؤ الجزائري السافر مع الاستعمار الإسباني، وإرادة الترامي والتوسع من جديد على حساب وحدة المغرب الترابية مبرهناً بكل هذا على موقف التهجم والتحدي نحو المغرب، والتطاول إلى التدخل في شؤونه الداخلية ونزاعه مع إسبانيا المستعمرة المعروض حالياً على نظر محكمة العدل الدولية من طرف هيئة الأمم المتحدة، تأييداً لطلب المغرب، والعمل لإنصافه في حقه ضد الاستعمار الباغي.

فنظراً لهذا كله يتعين على المغرب أن يحزم أمره، ويقوي عزمه ويُعد عدته لأخذ حقه بالقوة عند الاقتضاء، إذ الحق يؤخذ ولا يعطى، وعملاً بهذا يجب أن يقف المغرب بالمرصاد لكل ما قد تقدم عليه إسبانيا من انسحاب كما هددت به وأعلنته رسمياً على سبيل التناور والمغالطة وذلك ليكتسح أراضيه إن لم تسلم إليه فور الجلاء عنها.

وبما أن قضية الوحدة الترابية الوطنية قضية لا تتجزأ فيجب

على المغرب أن يعمل في نفس الوقت بكل حزم وجد، وبما يملك من وسائل فعالة لاسترجاع مدنه وجيوبه وجزره بالشمال.

وفيما يخص الجزائر فإن رد الفعل الوحيد على موقفها العدائي المكشوف من المغرب، وتواطئها العلني مع الاستعمار ضده، وخطتها التوسعية على حساب التراب الوطني المغربي ومراميها القريبة والبعيدة ضد المغرب وطناً وأمةً في الحاضر والمستقبل، ليس هو الدخول معها في لجاج سلبي وحرب كلامية عقيمة، بل هو الإقدام على فتح الملف الترابي معها بصفتها دولة ورثت الاستعمار الفرنسي فيما اقتطعه من التراب المغربي وألحقه بسيطرته وقتما كان مالكاً للجزائر كقطر مندمج في التراب الفرنسي منذ أكثر من 130 سنة.

والسبيل إلى وضع قضية استرجاع ما تحتله الجزائر خلفاً وارثاً للاستعمار من مناطق مغربية صميمة هو:

1 ـ إلغاء معاهدة إيفران المؤرخة في 15 - 1 - 69 وبلاغ تلمسان المشترك في 27 مايو 1970 ومحادثات المحمدية وأوفاق الرباط في 15 يونيو 1972 التي لم يصادق عليها المغرب قط.

2 ـ إعلان عزم المغرب على استرجاع جميع المناطق والحدود المغربية التي ضمت إلى الجزائر في عهد الاستعمار وبعده.

3 ـ نشر خريطة رسمية للمغرب في حدوده الأصلية والتاريخية الحقة التي طلبت فرنسا في 1958 من المغرب التفاوض معه لإرجاعها إليه والتي التزمت حكومة الثورة الجزائرية في اتفاق 6 يوليوز 1961 مع المغرب بتسوية مشكلها الترابي غير متقيدة

بالحدود المصطنعة في عهد الاستعمار الفرنسي.

4 ـ التصريح بعدم قبول المغرب مسبقاً لتحكيم أية منظمة خارجية (هيئة الأمم المتحدة أو منظمة الوحدة الأفريقية أو الجامعة العربية) في قضية تحرير أراضيه المغتصبة، لأن تدخلها ليس من شأنه إلاّ أن يفسد عليها الأجواء ويعرضها إلى ما تعرضت إليه قضاياه في الماضي وتتعرض إليه في الحاضر من آفات وأخطار.

كما يجب على المغرب أن يرفض سلفاً كل محاولة لإجراء ما يسمى بحق تقرير المصير، لأن شروطه منعدمة كلها حيث إن السلطة المتصرفة تستطيع أن تمنع تطبيقه الصحيح والنزيه والسليم بما تقوم به من مناورات، ومسرحيات للمغالطة، والتزوير، والتضليل، كما وقع ويقع في صحرائنا تحت السيطرة الإسبانية.

5 ـ توجيه النداء إلى المغاربة سكان المناطق المغتصبة من الجزائر بعد الاستعمار لتعريفهم بسياسة المغرب التحريرية تجاههم ولدعوتهم إلى تعبئة نفوسهم ووسائلهم للمساهمة في إنقاذ أراضيهم من الاحتلال، وخلاص أقوامهم من السيطرة الجزائرية بديلة السيطرة الاستعمارية الفرنسية.

6 ـ تطبيق مخطط محكم للعمل الجدي من أجل ذلك بكل الوسائل المجدية في مجال الاتصال والتوعية والإعلام.

فبما تقدم كله يواجه المغرب مسؤولياته الوطنية، ويرتفع بموقفه إلى مستوى الأحداث الخاصة بقضية التحرير والتوحيد لترابه الوطني الذي تهون في سبيله كل الاختيارات، وتسترخص سائر

التضحيات، وَإِنْ يَنْصُركم الله فلا غالب لكم.

1975 ـ تدهورت صحة محمد حسن الوزاني أكثر فأكثر، وتأثّر بالغ التأثر بوفاة حرمه السيدة أم كلثوم التي كان يكن لها كثيراً من الاحترام والإعجاب بسبب التضحيات التي تحملتها معه.

1978 (9 شتنبر) قضى محمد حسن الوزاني نحبه، ودفن حسب رغبته في روضة أسرته بفاس بجوار زوجته وبين أجداده، في قلب هذه الحاضرة التي شهدت الدعوات الأولى للحرية والعدالة التي نادى بها في بداية الثلاثينات، فأعادت الثقة والأمل للشعب المغربي في ساعة قاتمة من تاريخه. وقد ترك محمد حسن الوزاني مؤلفات هامة:

1 ـ مذكرات حياة وجهاد

التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية - 1900) (1955 7 أجزاء (الجزء السابع في طور الإعداد للطبع).

2 ـ حرب القلم (مجموعة مقالات محمد حسن الوزاني (في مختلف الموضوعات) ـ 1937 - 1978 ـ
6 أجزاء

3 ـ دراسات وتأملات
6 أجزاء
- الإسلام والدولة، أو حقيقة الحكم في الإسلام.
- حرية الفرد وسلطة الدولة ـ ترجمة ـ
- في الدستور والبرلمان
- في السياسة والمجتمع... بعد الاستقلال

- الإسلام والمجتمع والمدنية
- وطنيات.

4 - خطب (جزآن)

1 - من 1933 حتى 1957

2 - من 1958 حتى 1978

5 - تصريحات صحفية

(جزآن)

6 - الدعوة إلى النهضة والانبعاث

7 - COMBATS D'UN NATIONALISTE MAROCAIN

- 2 volumes-

(Préface: Robert Jean Longuet)

8 - Discours et Interviews

(1 volume)

فهرس المحتويات

تقديم 5
الإسلام والمجتمع والمدنية 7
مآتي المدنية الشرقية 25
شورى الحكم في الإسلام 28
مدة الحكم الصالح في الإسلام 29
مَن هو الداعية؟ 36
الأمانة في الإسلام 37
إسـلاميات 41
- قوة الإسلام 41
- الإسلام والحياة 42
- لا نهضة إلا بالإسلام 43
- الإسلام والشخصية... والمدنية 44
- القانون في الإسلام 45
- قابلية الإسلام للتجديد والتطور 47
- العهد في الإسلام 50
- الجهاد في الإسلام 51

نهضة العلم بالقرويين 53
عود على بدء: نهضة العلوم بالقرويين 77
العربية في ماضي المغرب وحاضره 83
تعقيب على بحث ج. كولان حول العربية في ماضي المغرب وحاضره 109
الأندلس بين ملوك الطوائف ودولة المرابطين (نكبة المعتمد بن عباد) 130
المرأة المسلمة 195
موجز حياة محمد حسن الوزاني 223

التنضيد: كومبيوتايب ش.م. لصف الطباعي الالكتروني

الطباعة: مؤسسة الجواد للطباعة والتصوير بيروت